



دكتور محمد كمال حسين

المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

أدب مصر الإسلامية

(عصر الولاة)

الناشر

دار الفكر العربي

دكتور محمد كمال حسين

بكلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

أدب مضر الإسلاميه

(عصر الولاة)

الناشر

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قد يكون موضوع هذا الكتاب جديداً ، فالكتاب والمؤرخون المحدثون لم يعنوا بدراسة الحياة الفكرية والأدبية بمصر الإسلامية عنايتهم بدراسة الحياة الفكرية والأدبية في غير مصر من الأقطار الإسلامية ، مع أن القدماء وجهوا إلى مصر عناية خاصة ، فالواقدي وأبو اسحق الأموي وغيرهما وضعوا كتاباً في «فتوح مصر» ، وزار المسعودي مصر وتحدث عنها في مروج الذهب ، ووضع الصولي كتاباً في «شعراء مصر» ، وجعل الثعالبي في يتيمة باباً خاصاً لشعراء مصر ، وهكذا كان القدماء أحرص من المحدثين ، ولا أدري سبب تقصير الباحثين عن دراسة الحياة الفكرية والأدبية بمصر الإسلامية سوى وهمهم أن مصر الإسلامية لم تنتج أدباً يضارع أدب الشام أو العراق ، وما ضر هؤلاء لو بحثوا عن الأدب المصري وأثبتوا ما وهموه ، أما انزواؤهم عن البحث لفكرة اختمرت في أذهانهم فهو النقص بعينه ، فلا شك أن مصر كانت مركزاً هاماً من مراكز الفكر الإسلامي منذ دخلها العرب فاتحين ، واستقروا بها ونشروا في مصر الدين الإسلامي واللغة

العربية ، وامتزج العرب بالمصريين فتأثر العرب بمصر ، وتأثر المصريون بالعرب وكان نتيجة هذا المزج هو الشعب المصرى الإسلامى تتمثل فيه خصائص العرب والمصريين ، وخضع هذا الشعب لعوامل الشخصية المصرية والبيئة المصرية وظهر ذلك واضحا فى تفكيره وفى أدبه .

وقد كان لعلباء مصر أثر فى غيرهم من العلماء ، فقد اعتمد كل المؤرخين فى حديثهم عن مصر على ابن عبد الحكم ومحمد بن زكريا الغلابى وعمار بن وسيمة المصرى والسكندى وابن زولاق وغيرهم من مؤرخى مصر ، وأخذ فقه الشافعى عن المصريين كما كان أجل أصحاب مالك وتلاميذه من أهل مصر ، وعن محدثى مصر روى البخارى ومسلم والنسائى وغيرهم ، وعن علماء مصر أخذ علماء الأندلس والمغرب العلوم الاسلامية والعربية ، فمصر إذن كانت عظمة الحظ من الحياة العقلية وسائرتها الحياة الأدبية من شعر ونثر ، ولكن الحياة الأدبية فى مصر استغرقت زمنا طويلا حتى ازدهرت ولا غرابة فى ذلك ، فانتقال مصر بعد الفتح الإسلامى وتطور الحياة فيها لم يأت دفعة واحدة ، فقد كانت مصر مسيحية الدين فأصبحت إسلامية ، وكانت يونانية وقبطية اللغة فأصبحت عربية ، وكل هذا احتاج إلى زمن طويل حتى استقر هذا التطور وتم امتزاج العرب بالمصريين ، ومع ذلك فقد ظهرت بواكير الحياة الأدبية المصرية إبان هذا الانتقال والتطور مما بشر بازدهار حياة

أدبية خصبية ابتداء من العصر الطولوني ، وبدأ النضوج الأدبي واستمر في العصر الفاطمي وما يليه .

وهذا الكتاب بحث من أبحاث أرجو أن أوفق إلى إتمامها وهي البحث في الأدب المصري الإسلامي منذ دخل العرب مصر إلى الآن ، فقد تحدثت في هذا الجزء عن تطور مصر في عصر الولاة أى من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين ، وهو عصر غامض أشد الغموض ، والمصادر التي بين أيدينا قليلة والنصوص متفرقة مبثورة ، ومع ذلك فقد استطعنا استخلاص ما يمكن استخلاصه ، وتحدثنا عما أمكننا الحصول عليه ، أما الجزء الثاني من هذا الكتاب فيسكون عن « أدب مصر الفاطمية » .

وسنرى كيف أصبحت إلى مصر الزعامة الأدبية والفكرية في العالم الإسلامي وكيف استطاعت مصر أن تنهض بهذه الزعامة منذ العصر الفاطمي إلى الآن .

وهذا البحث قديم فقد كتبه لأول مرة سنة ١٩٣٤ ، وتقدمت به إلى كلية الآداب بالجامعة المصرية ... إذ ذاك ... وحصلت به على درجة الماجستير في الآداب مع مرتبة الشرف ، ولما عهد إلى بتدريس الأدب المصري بكلية الآداب قدمته للطبعة سنة ١٩٣٩ بعد تغيير بعض فصوله وبعض آرائه ، والآن أقدمه للطبعة مرة ثانية وقد أضفت إليه بعض آراء جديدة ليست في الطبعة الأولى . (وبعد) فقد قدمت شكرى في الطبعة الأولى إلى أساتذتي الأجلاء الذين أعانوني في هذا البحث منذ بدأت كتابته ، وليس

لى الآن إلا أن أكرر لهم شكرى الخالص ، فلا يزالون خير عون
لى فى أبحاثى التى أكتبها . وأخص بالشكر أستاذى الأكبر الدكتور
طه حسين بك ، الذى يوالىنى برعايته وتوجيهه ويشملىنى بعطفه
وعنايته ، فهو أول من نادى بدراسة الأدب المصرى ، وعمل على
إنشاء كرسى الأدب المصرى بكلية الآداب ، وهو الذى دفعنى
ووجهنى إلى هذه الدراسات ، فالفضل كله منه وإليه ، ولست
أملك ما أوفيه حقه فאלله تعالى نسأل أن يحزیه عن تلامیذه
أحسن الجزاء ؟

محمد لامل مسیح

فهرس الكتاب

الباب الاول : تطور الؤكأب واللغة فى مصر

صفحة

١	الآداب بمصر قبل الفتح الاسلامى
١٠	مكتبة الاسكندرية
١٢	قبائل العرب بمصر
٢٦	الصراع بين اللغات : اليونانية ، القبطية ، العربية

الباب الثانى : فى الحياة العقلية

٣٥	الفصل الأول : المدارس الدينية
٣٧	الحديث
٣٨	عبد الله بن وهب والمدرسة المالكية
٤٥	الليث بن سعد
٥١	المدرسة الشافعية
٦١	المدرسة الحنفية
٦٤	التصوف فى مصر
٦٨	لفصل الثانى : اللغة والتاريخ
٦٨	النحاة واللفزيون
٧٤	المؤرخون :
٧٦	بنو عبد الحكم
٨٨	ابن الداية وكتاب المكافاة

الباب الثالث : كتاب الرسائل والوفاء

٩٦	لفصل الأول : قبل الطولونيين
١٠٩	لفصل الثانى : ديوان الانشاء فى العصر الطولونى والافقيى

الباب الرابع : في الشعر

صفحة	
١٢٥	التفصيل الأول : من الفتح الاسلامي الى سقوط الدولة الأموية . . .
١٤٤	الفصل الثاني : من قيام العباسيين الى دخول ابن طولون . . .
١٤٩	أثر الفن في الشعر
١٥٩	فتنة الحبشية العربية
١٦١	الفن بين العرب والمصريين
١٦٧	أثر محنة خاقان التتران
١٧٠	بعض أغراض الشعر
١٨٤	الشعراء الوافدون
١٨٦	أبو نواس في مصر
٢٠٠	شعراء مصريون راحلون
٢٠٨	ماني الموسوس
	لمحة عن أشهر الشعراء في ذلك العصر :
٢١٠	مسعود بن عفير
٢١٣	الملح الطائي
٢١٥	الجليل الأكبر
٢١٧	الفصل الثالث : العصر في عهد الطولونيين والأخشيديين . . .
٢٣٧	أثر اللهو في الشعر
٢٤٧	الطبيعة في الشعر المصري
٢٥١	أغراض أخرى للشعر
٢٥٤	الشعراء الوافدون
٢٥٤	المتنبي في مصر
٢٦١	الناشئان الأكبر والأصغر
٢٦٣	كشاجم
	لمحة عن أشهر شعراء ذلك العصر :
٢٦٧	ابن جدار
٢٧٠	منصور الفقيه
٢٧٦	خاتمة

الباب الأول

تطور الآداب واللغة في مصر

١ - الآداب بمصر فييل الفتح الاسلامى :

كان الحكم الرومانى فى مصر يتمايز بالظلم والفساد ، وكانت الحياة فى مصر حياة شعب مجرد من كل حقوقه ، فالمدينة المصرية العتيبة التى كانت إبان حكم الأسرات الفرعونية ، والتى انتقلت إلى أيدي البطالسة فحاولوا البقاء عليها ؛ جاءت إلى أيدي الرومان فأضعفوها فى مصر ولم يعملوا على إحياء مدينة أخرى .

هذا الفساد الذى لحق جميع مرافق الحياة فى مصر ؛ امتد إلى مدرسة الاسكندرية التى حافظت على تراث الفلسفة والآداب اليونانية طوال عصر البطالسة ، وفيها نشأ عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين والآدباء . ولكن إبان الحكم الرومانى ضعف أمرها واضمحلت شأنها ، وهجرها أكثر تلاميذها لما كان ينتابهم من ظلم الحاكمين ، ولا سيما بعد أن دخلت الديانة المسيحية مصر . فحسرت مدرسة الاسكندرية بعض عناصرها الأساسية . وبعد أن انتشر الدين المسيحى فى مصر اشتد الجدل بين المسيحيين والوثنيين ، فكان كل فريق ينتصر لدينه ولو بمجد السيف ، فكان نتيجة هذا الصراع الدامى العنيف خيراً على الآداب ، ذلك أن الوثنيين هالهم سرعة انتشار المسيحية فى مصر

فعملوا على تقوية منزلتهم الأدبية بتضخيم عدد كتبهم بالنسخ والتأليف ، وكانت خزائن كتبهم بالاسكندرية تحوى مؤلفات اليونانيين والمصريين ، فخصصوا طائفة من النساخ لكتابة ما يملكه المؤلفون ، وأخرى لنسخ ما أمكن العثور عليه من مخطوطات القدماء^(١) ولكن هذه النهضة لم تدم طويلا لأن الصراع بين الوثنيين والمسيحيين كان عنيفا قاسيا فكثيرا ما هدمت دور العبادة وجرقت الكتب وخربت المدارس ، وأعدم العلماء ، حتى إذا كانت سنة إحدى وتسعين وثلثمائة للبلاد ، انقض المسيحيون بقيادة ثيوفيلس على السرايوم ، حيث جامعة الاسكندرية ومكتبتها ، فخطبوا كل شيء في طريقهم ، لأنهم كانوا يرون أن الجامعة وما بها من كتب مظهر من مظاهر الوثنية القديمة وأثر من آثارها ، ومنذ هذا التاريخ لم تهض مدرسة الاسكندرية ولم تبلغ منزلتها القديمة . كانت مدرسة الاسكندرية في دورها الثاني قد انجبت إلى العلوم العقلية ، فكانت مضمار الأبحاث الفلسفية والدينية ، فتأثرت الفلسفة بالدين وتأثر الدين بالفلسفة ، وساعد على نشاط هذه الأبحاث هذا الجدل الذي كان بين الوثنيين والمسيحيين من ناحية ، ثم مانشأ من خلاف بين المسيحيين أنفسهم عن طبيعة المسيح ، فاضطر المسيحيون إلى أن يستعينوا في جدالهم بالفلسفة والمنطق ، وفي الاسكندرية اختلطت الديانة اليهودية بالتعاليم اليونانية القديمة فأدى هذا المزج إلى ظهور نوع جديد من الفلسفة ازداد بانتشار المسيحية . هذا اللون الجديد

(١) تاريخ الأمة القبطية (طبعة مصر سنة ١٩٠٠) ص ٥٨ وما بعدها .

نليسه في مذهب الغنوسطية والإفلاطونية الحديثة ويهودية فيلون .
كادت هذه المذاهب الفلسفية الجديدة أن تأتي ثمرتها في خلق نهضة
فكرية بالاسكندرية وغيرها من مدن الإمبراطورية الرومانية ، فقد
رحل علماءها يدعون إلى هذه المذاهب ووفد إلى الاسكندرية عدد
كبير من طلبة العلوم الفلسفية حتى كانت الاسكندرية في هذا الوقت
أكبر موطن للفلاسفة والمفكرين^(١) ولكن هذه النهضة لم
تدم طويلاً .

ومصر وإن كان زمامها بيد الرومان ، فإننا نجد لغة العلم
والمتعلمين بها هي اللغة اليونانية ، فقد استطاعت هذه اللغة أن تحيا
بمصر وتحتفظ لنفسها بالمنزلة الأولى بجانب اللغة المصرية ، بل نرى
اللغة اليونانية تؤثر في اللغة المصرية تأثيراً قوياً ظهر في استعمال
المصريين للحروف اليونانية وفي هذه الألفاظ اليونانية السكثيرة التي
نجدها في اللغة المصرية التي تعرف باللغة القبطية ، بل كانت اللغة
اليونانية هي اللغة الرسمية بمصر^(٢) وتذهب مدام بيوتشر إلى أن الروائي
الروماني كان يصدر نشراته للبصريين يصف فيها حكمه للبلاد
وكانت هذه النشرات باللغة اليونانية ، وأن الولاة الرومانيين كانوا
يفخمون أنفسهم بإضافة لقب يوناني إلى أسمائهم^(٣) ، معنى هذا كله
أن اللغة اللاتينية لغة الرومان لم تنتشر بين المصريين ، في حين أن
اللغة اليونانية والآداب اليونانية كانت قوية منتشرة ، وقد أدى ذلك

(١) تاريخ الأمة القبطية ص ٥٨ .

(٢) تاريخ الأمة القبطية ص ٢٣٤ .

Milne : A History of Egypt Under Roman Rule. (٣)

(London. 1913) P. 15

إلى أن بعض الولاة من الرومان اضطر إلى أن يصطنع كتاباً يحذقون اللغة القبطية ، وكان لبعض هؤلاء الكتاب مؤلفات باليونانية مثل لوسيانوس صاحب محاورات الموتى^(١) .

وكان بمصر شعراء أنشدوا شعرهم باليونانية ، ومنهم من حاول تقليد شعراء اليونان القدماء ، فبعضهم حاكى هوميروس ، وأنشد على نمط الإلياذة ، وكتب أخيليوس تاتيوس وهو من شعراء مصر في القرن الرابع لليلاد عدة روايات خيالية ممتعة^(٢) وشاهد القرن الخامس الميلادى الشاعر سيروس الأخيمى ، صديق إيدوشيا زوجة الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى والذى تقلب فى مناصب الدولة حتى صار قائد الجيش المصرى ، ثم اعتزل المناصب الحكومية ورغب فى خدمة الدين المسيحى فعين أسقفاً لإحدى الكنائس ، كان هذا الرجل شغوفاً بالشعر وإنشاده ويعد من أكبر شعراء مصر فى ذلك القرن^(٣) ، وفى القرن السادس ظهر شاعر مصرى من طيبه هو كريستودورس ولا تزال قصائده تحفظ فى الكتاب الخامس من منتخبات الأشعار اليونانية ، ويقال إن هذا الشاعر وجد صعوبات فى تدوين أشعاره وترتيبها لقلة المتعلمين^(٤) . ومن نبغوا فى العلوم بمصر فى ذلك الوقت عالم اسمه ديسقوريدس ألف كتاباً فى علم النبات وحلاه بكثير من الصور والنقوش ، ولا يزال هذا الكتاب من نفائس مخطوطات مكتبة

(1) Quatremère : Recherches Sur la langue et la Littérature de l'Egypte (paris 1808) P. 5.

(2) Butcher : The Story of Egypt London 1867. v. 1. P. 356.

(٣) ميوتشر ج ٢ ص ٩ .

(٤) المرجع نفسه ج ٢ ص ٧٩ .

فينا (١). إذن نستطيع أن نقول إن الأدب بمصر قبيل الفتح كان أدباً
مصرياً باللغة اليونانية ، وإن اللغة الرسمية كانت اليونانية ، وإن لغة
الثقافة كانت اليونانية .

ولكن بجانب هذه الأدب اليونانية وجد بمصر أدب سريانية
فقد كان نهضة الفرس في القرن السابع الميلادي ، وغزوهم لبلاد
الشام أثر في وجود هذه الأدب بمصر ، ذلك أن كثيراً من علماء
السريان وأدبائهم هاجروا إلى مصر خوفاً من الفرس ، ونقلوا معهم
كتبهم وآراءهم ، ومن قبل هذه الهجرة كان بالاسكندرية بعض
علماء من السريان يدرسون علوم الطب بالسريانية ، فكثرت الأدب
واللغة السريانية بمصر ، ولا سيما في الأديرة التي هاجر إليها السريان ،
وفي القرن السابع قام بولس أسقف بلأ بترجمة نسخة الترجمة
السبعينية من الكتاب المقدس إلى اللغة السريانية وظلت هذه الترجمة
في وادي النطرون حوالى ألف عام وهي الآن بالمتحف البريطاني (٢)
وكتب أهرن القس مقالاته الطبية التي يجمعها كتاب « كناش في
الطب باللغة السريانية ، وترجم هذا الكتاب إلى العربية ماسرجويه
بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فكان من المراجع الهامة للعرب
في علوم الطب . ويحدثنا المؤرخون عن الطبيب سرجيوس من
رجال القرن السادس الميلادي ، أنه قد أتقن العلوم والأدب السريانية
كغيره من الأطباء (٣) ومن الأطباء الذين شاهدوا الفتح الاسلامي

(١) يولفسر ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) تاريخ الأمة القبطية طبع مصر سنة ١٩٠٠ من ٦٧ .

Butler : The Arab conquest of Egypt P. 93. (٣)

وعاش حتى أوائل الحكم العزقي أريامنيوس؛ وله مصنفات في الطب وكان يعرف بضابط التكناتيش.

وبجانب ذلك كله نرى بمصر أدبها القوي أو الشعبي الذي أنتجته الشعب المصري بلغتهم المصرية مثلاً فيها خلفه رجال الكنيسة باللغة القبطية؛ فقد عسارت اللغة القبطية إزاء اللغة الدين في مصر، وأبطل المصريون استعمال اللغة اليونانية الدخيلة في الكنائس المصرية والمجتمعات، وخالوا المصريون أن يرفعوا من شأن لغتهم، فترجموا إليها كثيراً من الكتب منها ترجمة العهد الجديد ترجمت إلى اللهجات القبطية الثلاث؛ وترجموا جميع الطقوس الدينية، وكتبوا تراجم البطاركة والشهداء وألفوا كتباً في التاريخ العام^(١) ولم يبق لنا من ذلك كله إلا التوريسير، ولعل أهم هذه الكتب كتاب في التاريخ وقصعة يحيى (أو يوحنا) النقيوسى كتبه في أواخر القرن السابع الميلادى، وحضر الفتح العربى وتحدث عنه، ويعتبر كتابه من أقوم المصادر التاريخية عن الفتح، ولم يبق من هذا الكتاب إلا الترجمة الخبشية لجزء منه. ويقول بتار: «لاستطيع اللغة القبطية أن تفخر بشعراء مجتدين أو مؤرخين ممتازين أو فلاسفة أو أحد من رجال العلم الفحول، بخل الآداب القبطية دينية لقلة ما كان لدى الأقباط من علم وفصاحة، مما سبب إهمال لغتهم وعدم انتشارها في العالم، مع أنه لا تكاد توجد لغة أقدم من لغتهم أو أغرب منها أو ذات تاريخ مجيد كتاريخها»^(٢)، وهذا رأى صحيح إلى حد ما ويحيل إلى أن

(١) ميولمرج ٢ من ١٧.

(٢) Butler: The Ancient Coptic Churches of Egypt, v. I, P. 247

الفلسفة الدينية كانت تجري في غزوة المصريين منذ القدم ، فأثار قدماء المصريين ما هي إلا مظهر من مظاهر الديانة المصرية القديمة ، وكل ما كان بمصر القديمة من علم وفن كان من أجل الدين ، فمدينة قلماء المصريين مدينة فنية ولتكنها ذيلية قبل كل شيء ؛ بخلاف المدينة اليونانية التي كانت أدبية فلسفية . وفي مصر التفت الحضارتان وامتزجتا ، وظل المصريون يميلون إلى الدين وما يتعلق به وتركوا العلوم الفلسفية إلى من وفد على بلادهم ، ومع ذلك تأثر هؤلاء بنيل المصريين إلى الدين فظهرت الآراء الفلسفية الجديدة التي تحدثنا عنها . وقد يكون من أسباب قلة ظهور فلاسفتهم أدباء في الأدب القبطي أن المذهب اليقوي بمصر لم يواجه من المضللات الدينية ما واجهه المذهب النسطوري في آسيا مثلاً ، لهذا ترى النساخرة يتقلون الكتب الفلسفية والعلمية الدينية إلى اللغة السريانية ، ولا تجد هذه الترجمة عند المصريين ، فلا غرابة إذا وجدنا المدرسة الفلسفية الوثنية بالاسكندرية تنقهر في القرن الخامس الميلادي بينما تقوى المدرسة اللاهوتية . فتح العرب مصر سنة ٦٤٠ هجرية (على خلاف في هذا التاريخ) فكان هذا الفتح إيذاناً بضعف الآداب اليونانية واللغة اليونانية من مصر ثم نحوها نهائياً ، وظلت الآداب القبطية واللغة القبطية : حتى إذا كان القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) فجد الأسقف سويرس ابن المقفع يقول في مقدمة كتابه سير الآباء البطاركة

« استعنت بمن أعلم استحقاقهم مني الأخوة المسيحيين وسألهم نقل ما وجدناه منها (أى من سير الآباء المسيحيين) بالقلم القبطي

واليوناني إلى القلم العربي الذي هو الآن معروف عند أهل الزمان .
ياقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم (١) .
أى أنه في القرن الرابع للهجرة كادت تمحى من مصر اللغتان اليونانية
والقبطية ، وإن كانتا قد ظلتا بمصر مدة طويلة بعد الفتح ، وهذا ما يقوله
ابن النديم في حديثه عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه أمر بإحضار
جامعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصح
بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة واللسان من اليوناني والقبطي
إلى العربي ، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة ، (٢) .
ويقول بتر : « إنه كان في كل كنيسة كتاب باللغة القبطية في حياة
الآباء يقرؤه القسس كل صباح ولا يسمح لأحد أن يقتنيه ، وقد
ترجم إلى العربية كثير من هذه الكتب والقصص التي في آخرها (٣) .
أما مدرسة اللاهوت بالاسكندرية فظلت بعد الفتح تستقبل
طلابها مصريين وأجانب . ففي سنة ثمانين وستمائة ميلادية رحل
إليها يعقوب الرهاوى لتمام دراسة الآداب اليونانية والسريانية ،
ويقول بتر : « من الثابت أن الاسكندرية كانت مركز الثقافة والآداب
في العالم في زمن الفتح ، ومع أن أكثر العلوم بها كانت دينية فإننا نجد
شيئاً من العناية بالآداب القديمة ، وعدة موضوعات عن الأخلاق
المسيحية المبينة على الأفلاطونية الحديثة ، (٤) ولكن هذه المدرسة

(١) سير الآباء البطارقة لابن المقفع (طبع بيروت) ص ٦ .

(٢) الفهرست ص ٣٣٨ طبع المطبعة الرحمانية .

Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt P. 96. (٣)

Butler : The Arab Conquest of Egypt. P. 96. (٤)

أصابها ضعف بعد الفتح وتفوقت عليها مدارس أنطاكية وحران وجنديسابور وغيرها ، ولست أدري كيف يقول ابن أبي أصيبعة :
« وظلت مدرسة الإسكندرية مركز التدريس في الشرق إلى أواخر القرن الأول حتى نقله عمر بن عبد العزيز إلى مدرسة أنطاكية ، (١)
ذلك أن مدرسة الإسكندرية ظلت بعد الفتح العربي واتصل بها المسلمون في العهد الأموي فاصطفى الإسكندراني يترجم كتاباً لـ خالد ابن يزيد وابن أبحر الطبيب الإسكندري يعتمد عليه عمر بن عبد العزيز في صناعة الطب ، وابن أبحر هذا كان يتولى التدريس بالإسكندرية وأسلم على يد عمر بن عبد العزيز ، وكذلك اتصل العباسيون بمدرسة الإسكندرية فقد مرضت جارية الرشيد ، فأرسل في طلب الطبيب المصرى بليطان بطريق الإسكندرية ، وفي أيام أحمد بن طولون كان سعيد بن توفيل يطبه ، وهكذا كما كان لمدرسة الإسكندرية أثر في الثقافة الإسلامية ، ولا سيما في علم الطب الذي ظهر عند المسلمين مشعباً بتعاليم الإسكندرانيين ، فؤلفات بولس الإيجيني ، وكان في الإسكندرية في أوائل أيام الفتح مما اعتمد عليها أطباء المسلمين .

كذلك كانت مدرسة الإسكندرية النواة التي استمد منها العرب علم الكيمياء أو علم الصنعة كما سماه كتاب العرب ، فكل من تحدث عن هذا العلم يذكر مصر وما أثرها على سائر من اشتغل به ، جاء في الفهرست : « والسكتب المؤلفة في هذا الشأن (أى الصنعة) أكثر وأعظم من أن تحصى لأن المؤلفين لها تتطوها عنهم ، ولأهل مصر

في هذا الأمر مختلفون وعلماء ، وأصل الكلام في الصنعة من ثم أخذوها ،^(١) وقد ظل هذا العلم بمصر طويلاً بعد الفتح وشغف به كثير من المصريين ، وقد رأينا كيف اعتمد حالة بن يزيد على بعض المصريين ليترجموا له كتب الصنعة ، ومن أشهر علماء مصر في هذا الفن روثم فقد ألف كتاباً تنافس المشهورون في الفن بها ، وقيل إن ذا النون المصري كان له أثر في الصنعة ، وإنه ألف كتاب الثقة في الصنعة^(٢) ولا ندري مبلغ هذا القول من الصنعة .

ومع ذلك كله نقول إن مكتبة الاسكندرية ضعف أمرها أيام العرب وأخذت الآداب والعلوم اليونانية والقبطية تضيع حتى زالت وحل محلها الآداب العربية .

٢ - مكتبة الاسكندرية :

ذكر بعض المؤرخين أمثال عبد اللطيف البغدادي في كتاب الإفادة والاعتبار^(٣) والقفطي في أخبار العلماء بأخبار الحكماء وابن العبري وجورجي زيدان في تاريخهما ؛ أن عمرو بن العاص أخرج مكتبة الاسكندرية العتيقة التي أنشأها بطليموس الثاني ، وقد ناقش هذا الخبر كثير من المستشرقين والمؤرخين .

فالمؤرخ جيبون ناقش هذه المسألة بإيجاز شديد وقدرها ، وقال الاستاذ رينودو Renaudot : إن بالقصة عنصراً من عناصر الوضع .

(١) ألفهرست ص ٥٠٧ . وفتاوى البارة فيما يظهر لأهل الكلام إلخ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٠٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٨ .

كما رفضها الأستاذ جوستاف لوبون في كتابه الحصار العريية ،
وتحدث الأستاذ بتر في كتابه «فتح العرب لمصر» خذيثاً طويلاً
لتلخصه فيها يأتي :

١ - أن هذه القصة - قصة إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية -
لم تظهر إلا بعد تيف وخمسائة عام ، فلم يذكرها المؤرخون الذين
سبقوا البغدادى والتفطلى وأبا الفرج الملقى .
٢ - أن يحيى النخوى الذى تذكر القصة أنه العامل الأكبر
فيها توفي قبل الفتح العربى .

٣ - أن مكتبة الإسكندرية الكبرى احترقت في عهد يوليوس
قيصر وأن المكتبة الصغرى التى كانت بالسرايوم نقلت أو أُلقت
قبل سنة ٣٩٩ ق .م فلم توجد مكتبة بالمعنى الصحيح أثناء
الفتح العربى .

٤ - لو صح أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية ، لما غفل
عن ذكر ذلك المؤرخ حنا النيقوسى . وحتم بحثه بأن ماروالة أبو الفرج
الملطى لا يعلو أن يكون قصة خرافية ليس لها أساس تاريخى .

وذهب الأستاذ سيدنى Sédillot^(١) إلى أن هذه القصة وضعت
كتاب متعاون للرب وللإسلام إبان الحروب الصليبية ، ولكنه لم
يحدثنا عن كاتب بعينه .

وكذلك نشر الأستاذ جريفى بحثاً طويلاً باللغة العريية فى جريدة
الأمهرام بعدد ٢١ يناير سنة ١٩٢٤ ختمه بقوله : إن جميع المستشرقين

الذين بحثوا حريق مكتبة الإسكندرية خرجوا بأبحاثهم إلى أن هذه
القصة خرافة من خرافات القرون الوسطى .

وقد يكون سبب هذه الخرافة هو خلط علماء المسلمين بين حنا
النحوى وحنا النحوى (أو النيقوسى) فالأول حنا النحوى أو
الجراماطيقى أو الفيلوبونى وجد بالأسكندرية وله مؤلفات سردها
مؤرخو العرب ، وكان يعلم الناس بالأسكندرية فى حدود سنة ٤٨٠م
وعمر حتى أوائل القرن السادس الميلادى وله عدة كتب منها شرح
على الأناطوطيقا لأرسطو وكتاب النفس وشرح كتاب الحيوان
لأرسطو وكتاب الرد على نيقوماخوس فى الأخلاق وهذه الكتب
كلها عرفها العرب ونسبوها إلى يحيى النحوى (ترجمة للجراماطيقى)
وأخفاً مؤرخو العرب فى قصة مقابلته لعمر بن العاص لأنه توفى
قبل البعثة النبوية ، وجاء هذا الخطأ من أنه كان فى مصر فى وقت
الفتح مؤرخ عالم كانت له ثقافة يونانية واسعة هو يحيى أو حنا النحوى
أسقف نيقوس ، وثابت أن هذا الرجل قابل عمرو بن العاص وأنه
كان ذا مذهب خاص اضطهد بسببه ، وهو صاحب تاريخ مصر الذى
أشرنا إليه قبل ذلك ، فتشابه رسم الحروف (النحوى والنحوى)
هو الذى جعل علماء المسلمين يقولون إن الأول هو الذى قابل
عمرو بن العاص .

٣ - قبائل العرب بمصر :

لا نغالى إذا قلنا إن مصر اتصلت ببلاد العرب منذ عهد بعيد
جداً ، بل ذهب علماء الجيولوجيا إلى أن صحراء مصر الشرقية من

وادی النيل حتى البحر الأحمر تعتبر جزءاً من بلاد العرب وذهبوا إلى أنه في العصور الجيولوجية القديمة كان الجزء الجنوبي الغربي من بلاد العرب يتصل بأفريقيا وكان البحر الأحمر عبارة عن بحيرة ، ويقول الأستاذ دى مورجان : « كانت صحراء مصر الشرقية جزءاً من بلاد العرب ، والآن تمتع منطقة سيناء هذه الصحراء الشرقية من أن تفصل نهائياً عن العرب » (١) .

وفي عصور التاريخ اتصت مصر ببلاد العرب عن طريقين أولهما : طريق النيل إذ كانت السفن تسير في النيل إلى موضع قفط الحالية ، ثم تسير القوافل في طريق وادی الحمامات حيث المناجم والمحاجر التي اكتشفها قدماء المصريين وينتهى هذا الطريق بالقرب من عيذاب والقصير ثم استخدم المصريون البحر الأحمر للإتصال بالموانئ العربية وأول دليل قاطع لما قام به المصريون في البحر الأحمر كان في الأسيرة الخامسة حين قام الملك ساهور حوالى سنة ٢٧٤٣ ق . م برحلته إلى شواطئ البحر الأحمر وترك صوراً لأسطوله وتقريراً عن أعماله على أسوار معبده ، وفي وادی الحمامات عدد كبير من النقوش يتحدث عن رحلات المصريين في البحر الأحمر ويقول المؤرخون إن الملاحة في البحر الأحمر لعبت دوراً هاماً في التجارة ، ولا سيما تجارة البخور التي كان يطلبها المصريون من العرب لاستخدامها في التحنيط وفي الشعائر الدينية ، والقدماء حتى عصر هيرودوت قالوا : إن جزيرة العرب وحدها هي التي تنبت العطور ، وقد

حدثنا الأستاذ نلينو : أن قدماء المصريين كانوا على اتصال دائم
بجنوب بلاد العرب التي تبعد أكثر البلاد إنتاجاً للبخور ، (١) .

أما الطريق الثاني الذي اتصلت مصر عن طريقه ببلاد العرب
فهو طريق سيناء وهو طريق قديم جداً وإذا تصفحنا تاريخ مصر نجد
أن المحور الأساسي الذي كانت تدور عليه سياسة الأسرة الثامنة عشرة هو
تأمين البلاد من محاولة غزو القبائل السامية ويدلنا على ذلك غزو سوريا
أيام إمنحتب الأول ، وأن تحتتمس الأول أعلن أن الفرات هو حدود
مصر الشرقية ، وكان غزو البلاد الشمالية عن طريقين طريق البحر
الأيض وطريق سيناء البري ، وكان طريق سيناء معروفاً لدى المصريين في
عهد الأسرة الأولى بسبب وجود معدن النحاس ، وفي عهد الأسرة
الثالثة زار زوسر سيناء وعمل على إخراج النحاس وأحجار الزمرد
ونقشت زيارته في وادي المنارة شمال مدينة الطور الحالية ، وفي
الأسرة الرابعة غزا سنفر وشبه الجزيرة ونقش أخبار حملته على
الأحجار ، وبني حصوناً ليلجأ إليها عمال المناجم من هجرات
قبائل العرب .

وفي الطرف الشرقي لشبه جزيرة سيناء نجد تل القلعة أو شربة
الحادم — ولا أدري لم سميت كذلك — وفي قمة هذا التل نجد معبداً
مصرياً لهاتوري وبه عدة نقوش يرجع تاريخها إلى الأسرة الحادية عشرة
وقد وسع المعبد في أيام الأسرة الثامنة عشرة ، وبالقرب منه في وادي
نصب وجد المصريون مناجم أخرى للنحاس وبني المصريون هناك

(١) محاضرات الأستاذ نلينو عن تاريخ جنوب بلاد العرب

معابد العمال كما عثر على كثير من النقوش المصرية شرق شبه جزيرة
سيناء ، وأكثر هذه النقوش أقامها موظفو المناجم الذين أرادوا أن
تسجل أسيانهم وأعمالهم ، وذهب بعض المؤرخين إلى أن الهكسيوس
من قبائل عربية . وضرب بعض المصريين في الصحراء العربية حتى
ذهب بعض المؤرخين إلى أن المصريين أسسوا مستعمرة مصرية
في بلاد العرب مكان يثرب أي المدينة المنورة .

إذن كانت الصلة بين مصر وبلاد العرب قديمة فرضتها طبيعة
الجوار بين البلدين فنشأت هذه الصلات بينهما .

وبجانب هذه الصلة التجارية ، كانت هناك صلة عليية فالأستاذ
M. Matter^(١) يحكى أن تاجراً من تجار الإسكندرية في القرن السادس
الميلادى يدعى قزمان كان حجاجاً للأسفار جريئاً على المخاطرة حجاجاً للاطلاع
على أحوال البلدان المجاورة قام بعدة رحلات عليية إلى بلاد العرب
والهند ووضع عدة مؤلفات عن هذه البلاد ولكن مؤلفاته فقدت ولم يبق
منها إلا مقتطفات قليلة متفرقة . ومؤرخو الكنيسة المسيحية يقولون
إن الرهبنة نقلت من مصر إلى بلاد العرب والشام ، ويدكرون بين
الربان الذين كان لهم أثر واضح في نشر المسيحية ببلاد العرب الراهب
هيلاريون وهو أحد تلاميذ مدرسة الإسكندرية ، وسافر إلى غزة
ودعا إلى الرهبنة فأجابته نحو ثلاثة آلاف رجل فرقم في فلسطين
وسوريا وبلاد العرب وتوفي سنة ٣٥٦ م وكذلك يتحدث مؤرخو
المسيحية عن التاسك موسى المصرى الذى عين أسقفاً لمسيحي العرب

سنة ٣٧٢م وذهب بعضهم إلى أن نسطور صاحب المذهب النسطورى
نفاه الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى إلى بترأ عاصمة بلاد النبط ثم نقله
إلى مصر ، ولكنه استطاع أن يهرب فى صحراء طيبة ومنها إلى بلاد
العرب سنة ٤٤٠ م وقيل إن مذهبه انتشر فى مصر وبلاد العرب ،
ولا سيما بعد الاضطهاد الذى لحق بأتباعه .

وفى سيرة ابن هشام أن قريشاً حين بنت الكعبة قبل الرسالة
بخمسة سنين استعانوا برجل قبطى نجار كان بمكة ، وشرح السيرة
يقولون إن اسمه باقوم ، وجاء فى كتب الطبقات أن جبر بن عبدالله
القبطى كان أحد الصحابة الذين أخذوا عن النبي دينه ويقول السيوطى
إن قبط مصر يفخرون بأن منهم من صحب النبي .

وكما ذهب مصريون إلى بلاد العرب جاء عرب إلى مصر فيحدثنا
صاحب الأغاني أن بعض بطون خراطة خرجوا فى الجاهلية إلى
مصر والشام لأن بلادهم أجدبت. وفى أوائل القرن السابع الميلادى
أى حوالى سنة ٦١٦م غزا الفرس مصر ويقول الأستاذ شارب : إن
الجنود الذين فتح بهم كسرى مصر كان بعضهم من أهل الشام وبعضهم
من العرب (١) ، وذهبت مسز بوتشر (٢) والأستاذ ميلن فى كتابه (٣)
إلى أن جيش الفرس كان مستمداً من الشام وبلاد العرب ، فلم
يلقوا مشقة فى حكم مصر ، إذ لعل الأغنياء فى مصر كان بينهم
كثير من العرب فرحبوا بأقربائهم ، ولا أدرى ما الذى

(1) History of Egypt. chapter 21.

(2) Story of The church of Egypt V. I. P. 347.

(3) Egypt under Rom : Rule, P. 114.

بقصده ميلن بهذه العبارة ، ولامن أين أخذها . وهي إن صححت
تدلنا على شدة الصلة بين المصريين والعرب .

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن تم له فتح الشام
وقبل أن يفتح العرب مصر انتقلت بعض متصرة غسان برئاسة
أبي ثور بن عامر بن صعصعة إلى مصر ، وأقطعهم حاكم مصر منطقة
تنيس ، وقال المسعودي إن عددهم عشرون ألف رجل ، ولكن بتلر
في كتابه فتح العرب لمصر أنقص عددهم إلى ألفين . وروى ابن اسحق
الأموي في كتابه فتوح مصر أن رئيس الغساسنة ابن عم جبلة ابن
الأيهم آخر ملوك الغساسنة ، وأنه هرب بماله وأهله بعد أن تم للعرب
فتح الشام .

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، أرسل من قبله حاطب بن
أبي بلتعة رسولا إلى المقوقس عظيم القبط في مصر يدعو إلى الإسلام
فأكرم المقوقس الرسول وأرسل معه هدية إلى النبي عليه الصلاة
والسلام تقبلها شاكرآ ، وأوصى بالقبط خيرا . وروى عنه أنه قال :
« استوصوا بالقبط خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما » قال ابن كثير والمراد
بالرحم أنهم أخوال اسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، أمه هاجر
القبطية وهو والد عرب الحجاز الذين منهم النبي عليه الصلاة والسلام
وأخوال إبراهيم ابن رسول الله وأمه مارية القبطية من سنا كورة
انصنا ^(١) . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : « أهل مصر أكرم
الأعاجم كلها ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب

(١) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٢٩ (طبعة دار الكتب المصرية)

عامة وبقرش خاصة ،^(١) وكان بين الأقباط من صحب رسول الله (صلعم) كجبر بن عبدالله القبطي ، وروى السيوطي عن سعيد بن عفير أنه قال : « والقبط تفخر بأن منهم من صحب النبي (صلعم) » ،^(٢) وجاء ذكر مصر في القرآن الكريم صراحة أو كناية في أكثر من عشرين موضعاً ، ولم يذكر غير مصر من البلدان بمثل هذا العدد ، فلا غرو إذن أن نرى العرب يعرفون شيئاً عن مصر ، فراحوا يتحدثون عنها ، ويخترعون الأحاديث الكثيرة عن عجائبها كما طمع العرب في ثروة مصر ، لهذا بعد أن تم لهم فتح الشام ، جاء عمرو بن العاص إلى مصر ومعه عرب من قبائل مختلفة ، يقال إن أكثرهم من عك ولخم ، ويقال أيضاً إن عددهم لم يزيد على أربعة آلاف نفس ، ثم أتبعه الزبير بن العوام بمدد قدر باثني عشر ألفاً ، فلما تم لهم فتح مصر وبنى مسجد القسطاط أمر عمرو جنوده أن يحتطوا حول المسجد الجامع كل بحسب قبيلته ، فن القبائل التي اختطت بالقسطاط وأقامت بها : مهرة وتجب ولخم وغسان وغافق^(٣) ومن بني غافق بطن يعرفون بالقراقة سكنوا سفح المقطم ثم تركوا أمّاكنهم وتفرقوا في البلاد المصرية ، وصار مكانهم مقبرة المسلمين فسميت المقبرة في مصر بالقراقة نسبة إلى هؤلاء القوم^(٤) .

وكان مع عمرو جماعة العتقاء ، وهم جماع من القبائل عرفوا

(١) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٢٩ :

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي : ج ١ ص ١٠٥ .

(٣) خطط التريزي : ج ٢ ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) ابن خلكان : ج ١ ص ٣٢٨ .

بالصعاليك ، كانوا يقطعون الطريق أيام النبي صلى الله عليه وسلم فبعث في طلبهم وأتى بهم أسرى ، فأعتقهم . وكان بينهم كثير من طوائف الأزد وفهم ^(١) .

كذلك شهد فتح مصر واختلط بالفسطاط قوم من الفرس هم أبناء جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام ، وأسلموا ورغبوا في الجهاد ، فنفروا مع عمرو بن العاص إلى مصر ^(٢) كما كان في جيش الفتح جماعة من الشام عرفوا في مصر بالحمراء ، لنزول الروم بينهم ، ولسكنهم عرب من بلى (قضاة) وفهم وعدوان وبعض الأزد ، وكانوا يسكنون قيسارية وماحولها ، ورغبوا في الإسلام قبل واقعة اليرموك وساروا مع عمرو إلى مصر ، وسموا بالحمراء لأن العرب اعتادوا أن يسموا الموالي من الروم بهذا الاسم ^(٣) .

واشترك في الفتح أيضاً عدد من قبائل مختلفة ، من قريش والأنصار وخزاعة ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وليث ، عرفوا في مصر باسم أهل الراية ، ونسبت الخطة إليهم ، لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد من الديوان ^(٤) .

أما همدان فلم يقبلوا أن يسكنوا الفسطاط ، واختاروا الجيزة لهم مقراً ، وحاول عمرو أن يرجعهم إلى الفسطاط فلم يستطع ، فاضطر إلى أن يخاطب الخليفة في شأنهم ، فكتب الخليفة إليه : « كيف

(١) خطط القرينى : ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) خطط القرينى : ج ٢ ص ٧٨ .

(٣) خطط القرينى : ج ٢ ص ٧٩ .

(٤) خطط القرينى : ج ٢ ص ٧٦ .

رضيت أن تفرق أصحابك ، ولم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدرى ما يفاجئهم ، فطعك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره ، فاجمعهم إليك ، فإن أبوا إليك وأعجبهم موضعهم ، فابن عليه من في المسلمين حصناً ، فبني لهم عمرو بن العاص الحصن بالجيزة ، وسكن مع همدان نافع وذو أصبح وطائفة من الحجر ، وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع ^(١) .

وبعد أن تم فتح مصر رأينا الخليفة عمر يكتب إلى عامل الشام أن يسيّر ثلث من بالشام من قضاة إلى مصر ، فنظر الوالي فإذا به ، تعادل ثلث قضاة فسيرهم إليها ، فانتشروا في البلاد ولا سيما حول أخميم وما يليها ، وتفرقت بلى بأرض مصر ثم اتفقت هي وجهينة فصار لها من الشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب (بالقرب من القصير) ^(٢) .

وكان عمر بن الخطاب يبعث كل عام غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية ، وقسم عمرو بن العاص من معه ، فكان يرسل ربع الناس يقيمون ستة أشهر في رباط الاسكندرية ، والربع في السواحل والنصف يقيمون معه ، ولم يختلط العرب بالاسكندرية كما اختلطوا في الفسطاط ، بل كان بها أخاند ، من أخذ منزلاً نزل فيه هو وبنو أبيه ^(٣) . فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو بن العاص من أصحابه

(١) حسن المحاضرة للسيوطي : ج ١ ص ٨١ .

(٢) البيان والإعراب للقريري : ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) خطط القريري ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

لرباط الاسكندرية ربع الناس، وكانت لحم أعز من في ناحية الاسكندرية .

أخذ العرب يفتدون على مصر أفواجا حتى غصت بهم البلاد ، وكان بين القبائل فضاء من القليل إلى القليل ، فلما كثرت الأمداد في زمان عثمان بن عفان وما بعد ، وكثر الناس وسع كل قوم لبني أيهم حتى كثر البنيان والتأم^(١) ولما ولي معاوية بن أبي سفيان زياد بن أبيه على البصرة ، غرب جماعة من الأزدي إلى مصر عام ثلاث وخمسين هجرية^(٢) فنزل منهم نحو مائة وثلاثين . كما كتب معاوية إلى علقمة القطيني عامل الاسكندرية «إني قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام وبخمسة آلاف من أهل المدينة ، فكان في الاسكندرية سبعة وعشرون ألفاً^(٣) كما كان بمصر في خلافة معاوية أربعون ألفاً^(٤) وفي إمارة الوليد بن رفاعه على مصر عام تسع ومائة^(٥) نزل بنو سليم (وهم من قيس) ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من عدوان الذين أنزلهم عبد الله بن الحبحاب وإلى الخراج في خلافة هشام بن عبد الملك . وكان عدد بني سليم ثلاثة آلاف رجل ، فأنزلهم الخوف الشرق وأمرهم بالزرع فاشتروا إبلًا وكانوا يحملون الطعام إلى القلزم فأثروا ، ولما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فأقاموا سنة فأتاهم ألف

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم : ص ١٢٨ .

(٢) خطط القرظي : ج ٢ ص ٧٨ .

(٣) حسن المحاضرة : ج ١ ص ٩٨ .

(٤) خطط القرظي : ج ١ ص ١٥١ .

(٥) البيان والأمراء : ص ٣١ .

وخمسمائة بيت من قيس ، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد صار بمصر ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم زيدوا إلى خمسة آلاف ومائتين ، ولكثرة القيسية بمصر وتجمعهم في الحوف وثراتهم العظيم كانوا مصدر فتن وقلقل ، وكثيراً ما حاربوا الولاة . وكان يجاورهم في الحوف جماعة من صلاح وطارق وهم من جذام ، ولذلك قامت الحروب الكثيرة بين القيسية والبنية ؛ شأنهما في ذلك شأن هاتين الطائفتين في كل الاقطار الإسلامية .

وسكن بنو عقبة وهم ن جذام أيضاً ما بين أيلة وحوف مصر (١) كما ذهب قوم من جذام ولحم إلى الاسكندرية (٢) ، وكانت لهم هناك أيام معلومة ووقائع مشهورة ولا سيما في فتنة ابن الجروى . وكان كل أمير يتولى مصر يأتي إليها معه عدد من الجند العرب كي يتقوى بهم ويقمع بهم الفتن التي تنجم في البلاد ، فقد قيل إن حوثة الباهلى سار إلى مصر في آلاف من العرب (٣) ولا أدري تماماً من أى القبائل كان هؤلاء القوم ، وأكبر الظن أنهم من القيسية عشيرة الوالى .

وبصعيد مصر أولاد الكنز ، أصلهم من ربيعة وكانوا ينزلون اليمامة فقدموا أرض مصر في خلافة المتوكل عام نيف وأربعين ومائتين في عدد كثير ، وانتشروا في البلاد ، فنزلت طائفة منهم بأعلى الصعيد وسكنوا بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها ، وكانت قبائل البجة تشن الغارات على القرى الشرقية

(١) البيان والاعراب للقريزى : ص ٣١ .

(٢) البيان والاعراب للقريزى ص : ٣٥ .

(٣) خطط القريزى : ج ١ ص ٢١١ .

في كل حين ، وخربوا كثيراً من أملاك الأهلالي ، فقام الربيعيون بمنعهم حتى كفوهم ، ولم يلبثوا أن تزوجوا منهم وصارت لهم مرافق في بلاد البجة واستولوا على مناجم الذهب بها فكثرت بذلك أموالهم^(١) . وانتقلت بطون من قريش إلى الأشمونين وكان بينهم بنو جعفر بن أبي طالب المعروف بالطيار ، وبنو مسلمة بن عبد الملك ابن مروان وتحالفوا جميعاً وعاشوا سالمين ، والجعافرة اليوم ينسبون إلى جعفر هذا .

ويقول المقرئ : « وجهينة أكثر عرب مصر^(٢) ، وهؤلاء كانوا يسكنون حول أسبوط وما بعدها ، ووقع بينهم وبين بطون بني من الخطوب ما خطب أدى إلى دوام الفتنة بينهما . وفي الفيوم نزل بنو كلاب^(٣) ومن منية غمر إلى زفيتا سكن سعود جذام ، وأكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها ولهم مزارع وفسادهم كثير^(٤) . وانتقلت طوائف من فزاراة إلى النخيرية وقلوب^(٥) . وفي الدقهلية سكن عرب ينتسبون إلى قريش^(٦) . وسكن حول تنيس ودمياط قوم ينتسبون إلى نصر بن معاوية وهم من هوازن ، وكان لهم شوكة شديدة بارض مصر ، وكثروا حتى ملأوا أسفل الأرض وغلبوا عليها ، قويت إلى أن عليهم قبيلة من البربر تعرف بلواتة ، تزعم

(١) البيان والاعراب للمقرئ : ص ٤٨ .

(٢) البيان والاعراب للمقرئ : ص ٣٨ .

(٣) البيان والاعراب للمقرئ : ص ٣٦ .

(٤) البيان والاعراب للمقرئ : ص ٣١ .

(٥) البيان والاعراب للمقرئ : ص ٦٢ .

(٦) البيان والاعراب للمقرئ : ص ٦٢ .

أنها من قيس فأجلت بني نصر وأسكنتها الجدار ، فصاروا أهل قرى
في مكان عرف بهم وسط النيل وهو جزيرة بني نصر^(١) . ثم تعاقب
على مصر طوائف من العرب في العصور التي تلت عصرنا الذي
نؤرخه ، ولعل أكثرها كان في القرن الخامس الهجري ، إذ أرسل
الوزير الناصر البازوري عام اثنين وأربعين وأربعمائة فاستدعى
سبئس من فلسطين وأقطعهم البحيرة التي كانت منازل بني قرة ،
فعظم أمرهم أيام الفاطميين ، ولكنهم تفرقوا في القرية وذلوا بعد
واقعة ديروط عام إحدى وخمسين وستائة أيام عز الدين التركماني ،
وكان يجاورهم فرقة من كنانة بن خزيمه وفرقة من بني عدى بن كعب
رھط عمر بن الخطاب ، ونزل العمريون في البرلس والسكنايون
بقرب دمياط .

كما نقسم نستطيع أن نقول إن أكثر عرب مصر من النينين قد
اخطوا درهم في الفسطاط وغيرها ، ورابط بعضهم في المدن
الكبيرة التي هي ثغور مصر والتي كان يخشى عليها من مهاجمة الأعداء .
وكان بمصر عدة من الثغور المعدة للرباط في سبيل الله تعالى ، وهي
البرلس ورشيد والاسكندرية وذات الحمام والبحيرة واخنا ودمياط
وشطا وتيس والأشتم والفرما والواردة والعريش وأسوان
وقوص والواحات ، فيغزى من هذه الثغور الروم والفرنج والبربر
والنوبة والحبشة والسودان^(٢) . كما كان لبعض العرب إقطاعات بمصر ،
كالذي قيل إن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر منية الأصبع ، فحاز

(١) خطط التبريزي : ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) خطط التبريزي : ج ١ ص ٤٣ .

منها لنفسه ألف فدان ، فلم تزل له حتى مات ، فاشتراها الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان ^(١) فسميت باسمه .

وكانت للعرب أيام خاصة في الربيع ينتقلون فيها من مراتبهم يجوسون خلال قرى الريف ، فقد جاء في خطبة لعمر بن العاص : « فحى لكم على بركة الله إلى ريفكم ، فنالوا من خيريه ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها ، فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً . . . إلى أن قال : فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فاذا ببس العود ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن وانقطع الورد من الشجر فحى إلى فسطاطكم على بركة الله ^(٢) » .

فان صحت نسبة هذا القول إلى عمرو ، فانانيتين أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم ، ويتصلون بالمصريين في قراهم ومدنهم ، ويتحدثون إليهم ويتساومون ، فن المصريين من أعجب بالعرب ودينهم فاعتنقه ، ومنهم من دفع إلى اعتناقه اضطراباً لعجزه عن أداء الجزية ، أو لأغراض أخرى . وكان عمرو يعين القرى التي تذهب إليها كل قبيلة ، فكان يكتب لكل قوم بريعمهم ولبنهم إلى حيث أحبوا ^(٣) . إذن في ابتداء الفتح كانت إقامة العرب في الفسطاط والثغور ، ولم يكن لهم مقام بالقرى ، وكان القبط متمكنين في بلادهم لا يتدخل في شئونهم عربى . على أن المسلمين في المائة الثانية انتشروا

(١) خطط للقرى : ج ١ ص ١٥٥ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٧٣ .

(٣) المخطط : ج ٤ ص ٢٨ .

في قرى مصر ونواحيها ، وما برح القبط يثرون على المسلمين ، إلى أن جاء المأمون سنة سبع عشرة ومائتين فأسرف في تأديبهم حتى أخضعهم له ، وغلب العرب على أماكن المصريين في القرى ، وحولوا بعض الكنائس إلى مساجد ، فاضطر المصريون إلى أن يتعلموا لغة الفاتحين ، وإلى أن يعتنق أكثرهم دين الاسلام .

ولما كثر عدد العرب بمصر طمعوا في ازدياد ثروتهم ، فعمدوا إلى الزراعة والتجارة ، حتى إذا كان أيام المعتصم أمر بإسقاط جميع العرب من الديوان ، فاضطر عرب مصر إلى أن يجتهدوا في جمع المال ، وصاروا كالمصريين سواء بسواء ، وزاد اختلاط العرب بالمصريين وتزوج العرب من نساء مصريات ، فلم يمض إلا زمن قليل حتى رأينا في مصر شعباً إسلامياً عربياً^(١) ، وقد دفعهم تعصبهم للإسلام إلى الثورة لبناء كنيسة ، فقد قيل إنه في سنة ست وعشرين وثلثمائة هدمت قطعة من كنيسة أبي شنودة فبذل النصارى للاخشيد مالا ليطلق عمارتها ، فلم يقبل إلا بعد استفتاء الفقهاء ، فأقضى أحدهم وهو محمد بن علي بأن لهم أن يرموها ويعمروها ، وعرف ذلك عنه فعملت الرعية إلى داره النار وأرادوا قتله فاستتر وندم على قتياله^(٢)

٣- الصراع بين اللغات : اليونانية - القبطية - العربية

انتشرت اللغة اليونانية في مصر منذ أيام البطالسة ، فكانت الدروس تلقى بها في المدارس^(٣) ولكن الشعب المصري كان منصرفاً

(١) Lane Poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 15.

(٢) المغرب لابن سعيد : ص ٣٢ .

(٣) Quatremère : Recherches sur la Langue et Littérature de l'Egypte P, 5.

بعض الشيء عن هذه الدروس اليونانية ، وأحجم كثير من المصريين ولا سيما سكان الوجه القبلى عن تلقى هذه اللغة الأجنبية ، فلم تنتشر اليونانية في الصعيد وفى القرى المصرية بمقدار انتشارها في الوجه البحرى أو المدن الكبرى . وفى عهد الرومان استمرت اللغة اليونانية اللغة الرسمية فى مصر . وقد ذكرنا كيف كان الوالى الرومانى يصدر نشرات المصريين باللغة اليونانية يصف فيها حكمه للبلاد ، وكيف كان الولاة يفخمون ويعظمون بلقب يونانى يضاف إلى أسمائهم^(١) وكانت اللغة اليونانية هى لغة الثقافة والحكم ، بينما احتفظت اللغة المصرية بمنزلتها بين الشعب فلم تغلب اليونانية عليها حتى أن القس أورجانوس Origen قال : « إذا أراد يونانى أن يعلم المصريين شيئاً من القانون ، فخير له أن يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع أن يفهم معهم ، أما إذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه ، مما يدل على أن اللغة اليونانية لم تكن منتشرة بين جميع المصريين . فبينما كان القديس بولس يجيد اللغتين اليونانية والمصرية كان القديس أنطونيوس لا يعرف غير اللغة المصرية وبها كتب كل أبحاثه الدينية . ولما وفد أفرام (فم الذهب) إلى مصر لزيارة الأنبا بشوا Anba Bishoi لم يستطع الرجلان أن يفهما إلا بمساعدة مترجم لأن كلا منهما لم يعرف إلا لغة بلاده^(٢) »

ونجد اللغتين اليونانية والمصرية منفوشتين على بعض الأحجار ومكتوبتين على أوراق البردى ، ويرجع تاريخ هذه الأحجار وتلك الأوراق إلى العصر الرومانى مما يثبت أن اللغة اليونانية كانت تسير مع

(١) تاريخ الأمة القبطية : ص ١٢٤ .

Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt V. 2. p. 251. (٢)

اللغة المصرية ، ونما يؤيد ذلك أيضاً أن التعاليم الدينية التي كانت تلقى في الكنائس أو تنشر بين الناس كانت تقرأ أولاً باللغة اليونانية ثم تشرح باللغة المصرية ، وأهل الصعيد أنفسهم الذين كانوا بعيدين عن مصدر اللغة اليونانية كانوا يرتلون صلواتهم باللغة اليونانية بينما كانوا يتحدثون المصرية .

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن اللغة اليونانية كان لها أثرها في مصر ، ونلح أثر هذه اللغة في اللغة المصرية نفسها التي تعرف باللغة القبطية فالحروف القبطية هي نفس الحروف اليونانية تقريباً ، ونجد كثيراً من الألفاظ اليونانية دخيلة في اللغة القبطية .

أما اللغة القبطية فلم تكن لهجة واحدة بل اختلفت لهجاتها باختلاف الأقاليم المصرية . نقل كاترمير عن اثناس بطريق قوص : « تعلم أن اللغة القبطية مقسومة إلى ثلاثة أقلام منها القبطى المصرى الذى هو الصعيدى ومنها القبطى البحرى المعروف بالبحيرة والقبطى الأشمونى المستعمل ببلاد الأشمونين — كما تعلم — وإنما المستعمل الآن القبطى البحرى والقبطى الصعيدى والأصل فيها لغة واحدة (١) ، نلح من هذه الجملة أن اللهجة الصعيدية هي أقل اللهجات القبطية تأثراً باللغة اليونانية لبعدها عن مراكز اللغة اليونانية وأنها أقرب اللهجات إلى اللغة المصرية القديمة حتى عبر عنها بالقبطى المصرى ، أما اللهجة البحرية فهي لهجة الوجه البحرى وهى أكثر اللهجات تأثراً باليونانية لقربها من بلاد اليونان ومن الاسكندرية حيث الجامعة ومقر الحكم ولا ندرى شيئاً عن اللهجة الاشمونية .

ولما شعر المصريون بالاضطهاد الديني اشتد كره المصريين لكل ما هو أجنبي ، ونظروا الى الأجانب نظرتهم إلى عنصر من عناصر الوثنية فنزع المصريون اللغة اليونانية من الكنائس واستبدلوها باللغة القبطية^(١) وكان ذلك في القرن السادس الميلادي ، ولكن اللغة اليونانية ظلت مستعملة متداولة في الكنيسة المملكانية ، أما الكنيسة اليعقوبية المصرية فقد أمرت بتحريم اللغة اليونانية بعض الشيء .

وبينما كانت الكنيسة اليعقوبية في خصام عنيف مع الكنيسة المملكانية تغير نظام العالم السياسي فجأة ، وأصاب مصر ما أصاب كثيراً من البلدان الأخرى ، فقد خرج العرب من بلادهم لغزو فارس والشام ومصر ، فوقفت الطائفة اليعقوبية تساعد المسلمين وتوازنهم ضد الرومان وقد أراد المصريون بمساعدة العرب أن يتخلصوا من أعدائهم الرومانيين ، وأن يمحوا من البلاد الكنيسة الرومانية ، فهدم المصريون كنائس خصومهم ، وحاولوا منع استعمال اللغة اليونانية بمصر ، ولكنهم لم يبلغوا مرادهم .

شعر المصريون في أوائل الحكم العربي بشيء من الحرية التي طالما تمنوها وعملوا من أجلها ، وظهرت هذه الحرية في استخدامهم في الأعمال الحكومية التي كانوا يعيدين عنها .

وهنا أرى أن أشير إلى موضوع يتحدث عنه مؤرخو العرب القدماء والمحدثون ، تلك هي مسألة نقل الدواوين من اللغات الأجنبية إلى العربية ، فجميع من تحدثوا عن هذا الموضوع ذكروا أن

الدواوين كانت تكتب في مصر باللغة القبطية وفي الشام باليونانية ، من ذلك ما قاله السكندى : « حتى إذا كانت ولاية عبدالله بن عبد الملك ابن مروان ، فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عبدالله أشناس عن الدواوين ، وجعل عليها ابن يربوع الفزارى من أهل حمص وذلك في سنة سبع وثمانين هجرية ، (١) فالتص صريح هنا أن اللغة القبطية كانت لغة الدواوين ، وهذا يخالف ما ذكرناه سابقا من أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية ؛ ثم إن المؤرخين قد اتفقوا على أن لغة الدواوين في الشام كانت اليونانية ، ومصر والشام كاتمان أملاك الامبراطورية البيزنطية فكيف تكون اللغة الرسمية في الشام تختلف عن اللغة الرسمية في مصر ؟ وقد حفظت لنا أوراق من البردى يرجع تاريخها إلى عهد الوليد بن عبد الملك كتبت باليونانية والعربية وهى وثائق صدرت من الولى نفسه ، ونجد بعض الوثائق المحفوظة بدار الكتب المصرية قد كتبت باللغة اليونانية فقط ولا نجد بينها وثائق كتبت باللغة العربية والقبطية أو القبطية فقط (٢) مما يدل على أن لغة الدواوين في مصر والشام كانت اليونانية وليست القبطية كما وهم مؤرخو العرب ، وقد يكون منشؤ هذا الوهم أن بعض موظفى الدواوين كان من ، الأقباط فظن المؤرخون أن اللغة القبطية كانت اللغة الرسمية في البلاد .

ومهما يكن من شئ . فإن اللغة القبطية كانت لغة تؤلف بها

(١) الولاة السكندى : ص ٥٨ .

(٢) أوراق البردى للأستاذ جرومان طبع دار الكتب المصرية في مواضع

السكتب، فالمؤرخ يوحنا النيقوسى كتب تاريخه فى أيام ولاية عبدالعزيز ابن مروان ؛ بعضه باللغة اليونانية وبعضه الآخر بالقبطية (١)

بعد الفتح العربى كانت اللغة العربية فى أول الأمر فى حيز محدود فى مصر يتكلمها العرب ومن جاورهم من المصريين الذين اضطروا بحكم الجوار إلى أن يختلطوا بالفاتحين وأن يعرفوا لغتهم، ثم أدخلت بعض الاصطلاحات العربية فى الدواوين ، فاضطر المصريون إلى أن يعرفوا لغة العرب تقرباً إليهم وتحقيقاً لمصالحهم ، فترى القسيس بنيامين قد أجاد اللغة العربية حتى أنه شرح الانجيل بالعربية للأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان (٢) كما كان لا تتشار الدين الإسلامى فى مصر أثر كبير فى نشر اللغة العربية بين المصريين إذ اضطروا من أسلم منهم إلى أن يتعلم اللغة العربية حتى يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى أن يفهم دروس الفقه .

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم فى الربيع ويتصلون بالمصريين فى الريف فكان ذلك من أسباب انتشار اللغة العربية بين الشعب ، حتى جاء الوقت الذى ترك فيه المصريون اللغة القبطية وأهملوا شأنها حتى فى مسائلهم الشخصية ، واتبعوا المسلمين فى كل شئ . وها هى أوراق البردى التى حفظت فى دار السكتب المصرية وغيرها من المسكبات والمتاحف تؤيد ذلك ؛ فتلا نجد — فى القطعة

(١) تاريخ الأمة القبطية : ج ٢ ص ١٦٦ .

(٢) Quatremère : p. 23.

رقم ١١ التي ذكرها الأستاذ جروهمان في كتابه — عقد بيع بين
مصرية ومسلم كتب باللغة العربية ووجد فيه ثلاثة أسطر باللغة القبطية
هي شهادة بعض المصريين على هذا العقد ؛ أن الكاتب استعمل بعض
اصطلاحات مصرية خالصة ، فالمصريون هم الذين يحدون الجهات
بالبحرى والقبلى (١) مما يدل على تأثر اللغة العربية بالاصطلاحات
المصرية . ثم مما يدلنا على ضعف اللغة القبطية وسيرها في طريق
الاضمحلال ؛ أن القديس شنودة كتب مؤلفاته باللغة القبطية واللهجة
الصعيدية . ثم اضطر إلى أن يكتبها مرة أخرى باللغة العربية حتى
يتسنى الأقباط أن يقرأوها ، وبعد أن كانت مراسيم الكنيسة تقرأ
باليونانية وتشرح بالقبطية صارت تقرأ بالقبطية وتشرح بالعربية
وفي القرن العاشر الميلادى كان المصرى المثقف يفخر بأنه يعرف
اللغة القبطية (٢) وحدث أنه في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ظهر
نشاط غريب بين الأقباط إذ أرادوا أن يعتزوا بقوميتهم ويحافظوا
على لغتهم فجمعوا الكتب القبطية في دير مكاريوس St. Macarius
ولكن حركتهم هذه فشلت في القرن الحادى عشر لأن اللغة القبطية
كانت تنفقر أمام اللغة العربية ، وازداد إلحاح الناس على ترجمة
الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية (٣) . وبعد القرن

(١) يقول القريزى في خطبه : ج ١ ص ٢٣ : إلا أن أهل مصر يستعملون
في تحديد بلاد من الجهة الجنوبية لفظة القبلية فيقولون الحد القبلى ينتهى الى
كذا ، ولا يقولون الجنوى وكذلك يقولون الحد البحرى ويريدون بالحد البحرى
الحد الشمال .

Quatremère : p. 39. (٢)

Hugh : The Monasteries of Wadi'n Natrûn (New Yourk) (٣)

V. I. p. 26.

العاشر الميلادى كان رجال الدين المسيحى يقرأون صلواتهم باللغة القبطية بينما كانت كتبهم الدينية باللغة العربية ، وفى زيارة المسعودى لمصر سأل كثيراً من المصريين عن معنى كلمة فرعون فى لغتهم فلم يظفر بجواب . ومع ذلك كله فإننا نجد اللغة القبطية كانت معروفة فى مصر إلى عهد قريب فالمقرئى ذكر فى خططه ودرنكه أهلها من النصارى يعرفون اللغة القبطية فيتحدث صغيرهم وكبيرهم بها ويفسرونها بالعربية^(١) ، وقال فى موضع آخر « ودير مواس خارج أسبوط من قبلها بنى على اسم توما الرسول والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطية البحرية ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية^(٢) » ،

ونستطيع أن نقول إن كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية وتخطبوا بها فقد قيل إن البطريق يوسف عندما حوكم سنة ٨٥٠ م خاطب رعيته باللغة القبطية بحضور عدد كبير من العرب ، وفهم العرب كل ماقاله وحدثوا به القاضى^(٣) وذكر ابن حجر فى أخبار القاضى خير بن نعيم « وكان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها وكذلك شهادة الشهود منهم ويحكم بشهادتهم »^(٤) وقال السكندى فى خبر خروج العلويين بالفسطاط سنة ١٤٥ هـ إن ابن حديد وقف على الباب الذى ناحية بيت المال فسلم خالد بن سعيد وهو فوق ظفر المسجد كلمة قبطية^(٥) فهذا كله يدلنا على أن بعض العرب بمصر تعلموا اللغة القبطية وتخطبوا بها .

(١) المقرئى ج ، ٤ ، ص ٤٣٦ (٢) المقرئى ، ٤ ، ص ٤١٧

(٣) كاتروير ص ٣٤ ، وبنلر فى كتابه تاريخ الكنيسة القبطية ص ٢٥١

(٤) رفع الإصر عن قضاة مصر نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٥) الولاة والنضاة ص ١١٣

والآن إذا فخصنا اللغة التي يتحدث بها المصريون فانا نجد بها كثيراً من الألفاظ القبطية فلفظ «كان ماني» و«شونة» و«أرض شراقي» و«أردب» وغيرها هذه كلها ليست عريضة بل هي مصرية وكان القدماء يستعملون كلمة «القباطي» وهو نوع من النسيج كان يرسل من مصر إلى بلاد العرب، واستعمل السكندى كلمة مواحيز بمعنى أماكن فقال «كانت مواحيز مصر يعمرها أهل الديوان»^(١) واستعمل ابن الداية لفظ «تليس» بمعنى الحقيقة الكبيرة^(٢) ولا يزال المصريون يستعملون هذه الكلمة بنفس المعنى القديم. واستعمل المؤرخون العرب كلمة براني ويسمى المصريون إلى الآن الرياح الجنوبية بريح المريس و«إمريس» بالقبطية معناها جهة الجنوب. وكلمة طوبة بمعنى الحجارة أصلها قبطي وشجرة اللبخ إلى غير ذلك

ونجد اختلافاً في اللهجات المصرية فلهجة الصعيد تختلف عن لهجة أهل القاهرة، ولهجة أهل مديرية الشرقية غير لهجة أهل رشيد أو أهل الاسكندرية، وقد علل الدكتور جورجي بك صبحي ذلك بأن اختلاف اللهجات الآن في جهات مصر المختلفة كان بتأثر هذه الجهات باللهجة المصرية القديمة^(٣)؛ وقد يكون هذا السبب صحيحاً وأضيف إلى ذلك أسباباً أخرى منها اختلاف اللهجات العربية التي أتى بها العرب، ثم تأثر المصريين في عصورهم المختلفة بالأمم الأوروبية الأمر الذي جعل لهجات البلاد تختلف اختلافاً واضحاً.

(١) الولاة والقضاة ص ٤١٨ (٢) المكافأة لابن الداية ص ٨٢

(٣) محاضرة الدكتور جورجي بك صبحي عن الثقافة القبطية بقاعة يورت

في ديسمبر سنة ١٩٢٣

البَابُ الثَّانِي

في الحياة العقلية

الفصلُ الأوَّلُ

المدارس الدينية

وأصبحت مصر منذ دخول العرب إليها مركزاً علياً في المملكة الإسلامية كما هي مركز سياسي،^(١) وقد ذكرنا كيف كان العرب الذين وفدوا على مصر في شبه معزل عن المصريين وعلومهم ولذلك لم يهتم عرب مصر في القرن الأول إلا بالدين الإسلامي، فأتخذوا من جامع القسطنطين مكاناً للدروس والمناقشات الدينية، ولسنا في معرض الحديث عن هذه العلوم التي كانت تلقى في مسجد القسطنطين، ولكننا مضطرون إلى الإلمام بها لأن دراسة الآداب تضطرننا إلى تتبع تطور الحياة العقلية، ورفق النثر الفني لا يتأتى إلا من هذه الدراسات العميقة، والمناقشات العلمية العنيفة، التي تقوم على جهد في الفكر وذخيرة من العلم، كما أن ألوان الحياة العقلية وأنواع العلوم التي كانت تدرس تعيننا على معرفة نوع هذه

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٢٢٨ (الطبعة الأولى)

الكتابات المختلفة وفنون الشعر وتطورها جيلا بعد جيل .

علم القراءات :

ففي مسجد القسطنطين ، نرى أول مدارس به كانت علوم الدين من تفسير للقرآن الكريم ، ورواية قراءاته ، ورواية الحديث الشريف ، وكان للصحابه الذي شهدوا فتح مصر أثر بارز في هذه العلوم الدينية ، إذ هم الذين تولوا أمر التدريس في المسجد الجامع ، وأول من قرأ القرآن بمصر هو أبو أمية عبيد بن خمر المغافري^(١) وكل القراءات بمصر رواية عن نافع ، نقلها عنه إلى مصر عثمان بن سعيد المصري المعروف بورش وكان مصريا صميا فهو عثمان بن سعيد ابن عدى بن غزوان بن داود بن سابق ، كان أصل أجداده من الأقباط ، ثم اعتنقوا الدين الإسلامى . ولدورش بمصر سنة ١١٠ هـ واشتغل بقراءة القرآن وتعلم العربية ، ورحل الى المدينة قهرأ بها على نافع سنة ١٥٥ هـ^(٢) .

ثم عاد إلى مصر ، وإليه انتهت رئاسة الاقراء فيها وتوفى سنة ١٩٧ هـ^(٣) وساعده في نقل رواية نافع زميل له معاصر ، هو سقلاب بن شنيته أبو سعيد المصري^(٤) ولكن المقرئى قال إن أبا ميسرة عبد الرحمن بن ميسره مولى الملامس الحضرمى كان أول الناس إقراء بمصر بحرف نافع قبل الحسين ومائة من الهجرة ، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة من الهجرة ، ولكن المعروف أن أثر ورش في القراءة

(١) خطط المقرئى ، ج ٤ ، ص ١٤٣ (٢) معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ٣٣

(٣) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٧٧ (٤) شرحه

أقوى من أثر أى مقرر آخر . ويحدثنا السيوطى أن عمر بن عبد العزيز أرسل نافعاً إلى مصر ليعلم المصريين ، فأقام نافع بمصر مدة طويلة ^(١) ومهما يكن من شيء فإن مدرسة نافع قد قوى أمرها في مصر ، وتعدد تلاميذ ورش ، فمنهم أبو يعقوب الأزرق بن عمرو بن يسار المصرى الذى لزم ورشا مدة طويلة ، وأتقن عنه الأداء ، وخلفه في الإقراء ، ولكنه انفرد عن ورش بتعليظ اللام وترقيق الراء ، وكان له أثر كبير في مصر والمغرب ، حتى أن المصريين والبربر ما كانوا يعرفون إذ ذاك غير ورش وأبي يعقوب هذا ^(٢) وقد توفي أبو يعقوب حوالى سنة أربعين ومائتين من الهجرة

وأخذ الأندلسيون قراءة نافع عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصرى المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائة هجرية ^(٣)

من ذلك كله نستطيع أن ندرك أن المصريين كان لهم أثر واضح في القراءات ، وعن المصريين أخذ القراء في الأندلس والمغرب ، كما كان للمصريين رأى خاص يختلف بعض الشيء عن قراءة نافع ، كالذى ذكرناه عن قراءة أبي يعقوب المصرى في تعليظ اللامات وترقيق الراءات .

المحبرث :

وفي الحديث نجد الصحابة الذين وفدوا على مصر يكثرون من روايته ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص أكثر الصحابة رواية

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٢

(٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٧٨ (٣) درج

للحديث ، فقد كان من نجباء الصحابة ، ومن المكثرين لروايته^(١) ولأهل مصر عنه أكثر من مائة حديث^(٢) ، فقد كان عند الله يعرف الكتابة ، وكان يكتب كل ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاستطاع بذلك أن يحفظ عدداً من الأحاديث كما سمعها من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكثيراً ما كان يرجع إلى أوراقه عندما يسأل في أمر لا يستطيع أن يجيب عنه . روى ابن عبد الحكم أن عبد الله قال (كنا عند رسول الله ﷺ ، نكتب ما يقول لا أو نعم)^(٣) كما كان لغیره من الصحابة أثر بارز في رواية الحديث وقد أفرد ابن عبد الحكم في آخر كتابه (فتوح مصر) فصلاً خاصاً بالأحاديث النبوية التي رواها المصريون ، وكذلك نجد في كتاب السيوطي (در السحابة في من دخل مصر من الصحابة) ذكر هؤلاء الصحابة وما رووه من الأحاديث ، واعتمد أصحاب الكتب الستة في الأحاديث على رواية كثير من المصريين ، فسيّد ابن عفير ويحيى بن بكير وعبد الله بن صالح ، وغيرهم كانوا من شيوخ البخاري وكان أحمد بن يونس ويحيى التميمي وغيرهما من شيوخ مسلم وأبي داود ولاداعي للأفاضة هنا عن كل المحدثين المصريين

عمر الله بهن وهب والمرمّة المالكية :

ولكن لا بد أن نقف عند رجل مصري يعد من أوائل جامعي

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢٤

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم . (٣) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٧١

الحديث ، ذلك هو عبد الله بن وهب المصري صاحب كتاب (الجامع في الحديث) . وقد عثر على معظم هذا الكتاب حديثاً في مدينة ادفو ، ويعد من أقدم المخطوطات العربية في جميع مكاتب ومتاحف العالم ، إن لم يكن أقدمها جميعاً ، وهذه النسخة مكتوبة على ورق البردى الذي عرفت به مصر منذ القدم ، ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثالث الهجري . أما مؤلفه ، فهو أبو محمد عبد الله ابن وهب بن مسلم القرشي بالولاء^(١) . وقد شهد ابن وهب هذا العصر الذي ابتدئ فيه تدوين الحديث والفقه والتفسير ، فقد كان العلماء قبل ذلك العصر يتكلمون عما حفظوه ، وقد يدونون ما سمعوه في صحف مبعثرة متفرقة ولم تكن لهم كتابات مرتبة . ولكن جاء بعض الأئمة والمجتهدين ودونوا ما رأوه وما رووه فكتب مالك كتابه الموطأ بالمدينة وكتب الأوزاعي مذهبه بالشام ، وصنف ابن اسحاق في المغازي ، وكتب ابن وهب في مصر كتابه (الجامع الحديث) فهو بذلك من أول الذين جمعوا الحديث ، والغريب أن هذا الرجل على ما هو عليه من فضل وعلم ليس معروفاً عند كثير من المؤرخين والكتاب وذلك في أغلب الظن لأن (جامعته) كان مفقوداً ، وقد يكون هذا الكتاب هو الأثر الوحيد الذي يدلنا على فضل هذا الرجل ، ولعل رأى العلماء والمؤرخين في هذا المحدث يتغير بعد أن كشف عن جزء من كتابه ، كما نرجو أن تعمل الهيئات العلمية على طبع هذا الكتاب .

ولد بن وهب بمصر في ذي القعدة من سنة أربعين أو خمس وعشرين ومائة من الهجرة ؛ وكان كغيره من متعلّمي هذا العصر ، يرحل في طلب العلم إلى الحجاز والعراق ، فوجد على المدينة سنة ثمان وأربعين ومائة هـ ، وهناك أخذ عن مالك ، وما زال مقبياً معه حيناً ويفترق حيناً آخر ، إلى أن توفي مالك سنة ١٩٧ هـ ، ويقول ابن خلكان إن مالكا كان يكتب إلى ابن وهب « إلى عبد الله بن وهب الملقب ولم يكن يفعل هذا مع غيره »^(١) ، فهذا يدل على أن مالكا كان يعترف بفضل ابن وهب ومنزلته فلقبه بالملقب ، وروى ابن خلكان أيضاً قصة عنه فيقول « كتب الخليفة جعفر المنصور إلى عبد الله بن وهب في قضاء مصر ، فخبأ نفسه ، ولزم بيته ، فاطلع عليه سعد بن سعد وهو يتوضأ في صحن داره ، فقال له « ألا تخرج إلى الناس تقضى بكتاب الله وسنة رسوله » فرفع له رأسه ، وقال « إلى هنا انتهى عقلك !! أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء ، وأن القضاة يحشرون مع السلاطين »^(٢) فإن صحت هذه الرواية فهي تحدثنا عن عقيدة ابن وهب وشدة تقواه وقيل إن سبب موته أنه قرأ عليه كتاب الأحوال من « جامع » ، فأخذه شيء كالغشي ، فحمل إلى داره ، فلم يزل كذلك إلى أن قضى نحبه ، في شعبان سنة سبع وتسعين ومائة من الهجرة^(٣) .

أخذ ابن وهب أكثر مادة كتابه عن مصدرين هما : مالك ابن أنس وعبد الله بن لهيعة المصري ، وليس لنا أن نتحدث عن

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٤٩ (٢) شرحه

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٩

مالك لأنه لم يكن مصرياً في شيء، وإن كان مذهبه قد دخل مصر وكثر تلاميذه الذين كانوا يدرسون مذهبه في المسجد الجامع، وكان ابن وهب من أجل تلاميذه في مصر، وعنه أخذ كثير من المصريين، حتى أن السيوطي حين عقد فصلاً عن من كان بمصر من الفقهاء المالكية، كان يذكر ابن وهب كأستاذ لمعظم هؤلاء الفقهاء، مثل عبدالحكم بن عبد الله الذي كان أكبر أولاد ابن عبدالحكم وأفقهم وأجل أصحاب ابن وهب^(١)، ولم يكن ابن وهب وحده هو أستاذ المدرسة المالكية في مصر، بل نجد كثيراً غيره، أمثال: أشهب ابن عبدالعزيز العامري فقيه ديار مصر، وكانت إليه الرياسة بها، وبلغ من العلم درجة كبيرة، حتى قال الشافعي: ما أخرجت مصر أفضله من أشهب لولا طيش فيه^(٢)، وكان ثقة في روايته، حتى قيل إن أشهب ما كان يزيد في سماعه حرفاً واحداً^(٣)، وكان أساس المدرسة المالكية هو رواية الموطأ وهذا الكتاب كغيره من الكتب الإسلامية التي ألقت في هذا العصر يقوم على الرواية، ولكن ابن وهب لم يشأ أن يقبل الروايات كما هي في الموطأ، بل كان يدقق في اختيار الأحاديث، ولعل هذا هو السبب الذي جعل المحدثين جميعاً يشقون به.

أما المصدر الثاني الذي أخذ عنه ابن وهب أكثر مادة كتابه فهو عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقي^(٤) ولد سنة ست

(١) حسن المحاضرة ج ١، ص ٢٥٤ (٢) حسن المحاضرة، ج ١،

ص ١٦٦ (٣) النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٧٥

(٤) أنظر النووي، ج ١، ص ٣٦٤ والسماعى، ص ٤٠٥

وتسعين هجرية من أصل عربي ، وكان والده لطيفة من مشاهير التابعين الذين رووا الحديث^(١) ، ونشأ ابنه عبدالله حياً للحديث ، جامعاً له ، فكان يرحل في طلبه^(٢) ، وكان ابن لطيفة يكنى أبا خريطة وذلك أنه كانت له خريطة معلقة في عنقه ، فكان يدور بمصر ، فكلما قدم قوم كان يدور عليهم ، فاذا رأى شيخاً سألته من لقيت وعن كتبت؟^(٣) وابن لطيفة هذا تلميذ يزيد بن أبي حبيب ، الذي وصفه الليث بن سعد بقوله « هو سيدنا وعالمنا »^(٤) ، وقيل إن يزيد هذا أول من أظهر العلم بمصر والمسائل في الحرام والحلال ، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترهيب والملاحم والفتن^(٥) ، لهذا كان يزيد بن أبي حبيب أحد الثلاثة الذين جعل عمر بن عبدالعزيز اليهم الفتيا في مصر ، وهم جعفر بن ربيعة وهو عربي ، وعبد الله بن أبي جعفر ، ويزيد بن أبي حبيب ، وهما من الموالي ، ولكن العرب أنقوا أن تكون الفتيا إلى الموالي فأجابهم عمر بقوله « ما ذنبني إن كانت الموالي تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لاتسمون »^(٦) ، ولا تقف شهرة يزيد بن أبي حبيب عند الفقه أو الحديث ، بل زاه من الذين اعتمد عليهم عبدالرحمن بن عبدالحكم في كتابه فتوح مصر ، والسكندى في كتابيه الولاية والقضاة ، والطبرى في تاريخه وغيرهم وذلك لسكنته عليه بالفتن والحروب ، وخاصة ما يتعلق منها بمصر وشؤونها وحكامها ،

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٥ (٢) تاريخ الاسلام للذهبي .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٧٥ (٤) حسن المحاضرة ، ج ١ ،

ص ١٦٣ (٥) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٠٨

(٦) خطط القرينى ، ج ٤ ، ص ١٤٣

كان يزيد أستاذ ابن طهية وأستاذ عالم مصرى آخر هو الليث بن سعد ، ولكن ابن طهية اختلف عن أستاذه ابن أبي حبيب ، وعن قرينه الليث ، فلم يكن حذرا فى قبول الروايات الكثيرة التى كانت تصل إليه ، ولم يحتط فى إسناد الأحاديث والأخبار إلى الثقة ، لهذا قل من يثق بأحاديثه وأخباره ، مع كثرة ما نقل عنه ، يقول ابن خلكان : إن ابن طهية كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ، وكان يقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت ، فقليل له فى ذلك فقال ما ذنبى إنما يجيئونى بكتاب يقرؤنه على ويقومون ، ولو سألو فى لأخبرتهم أنه ليس من حديثى^(١) وأظن أن هذا هو السبب الذى جعل ابن سعد يقول عنه : «إنه كان ضعيفا»^(٢) ومن يدرى لعل هذا الرجل كان سببا فى اختراع هذه الأخبار الكثيرة التى رواها ابن عبد الحكم والسكندى وغيرهما ، وأخذها عنهما غيرهما من المؤرخين ، إذ أن أكثر ما ورد عن مصر مروى عن طريقه .

وروى ابن وهب كثيرا عن ابن طهية ، ولست أدرى كيف ياخذ ابن وهب عنه ، وهو الذى يدقق فى كل رواية . فقد قيل إن ابن وهب روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ألف حديث ماجرح فى حديث واحد^(٣)

أما زملاء ابن وهب فى نشر مذهب مالك بمصر فنستطيع أن نقول

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٤٩

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ص ٢٠٤ ، طبعة ليدن سنة ١٣٣٨ هـ

(٣) الكواكب السائرة فى ترتيب الزيادة لابن الزيات ، ص ٤٥ (مطبعة بولاق

إن خاصة أصحاب مالك كانوا مصريين كابن القاسم وأشهب وعبدالله ابن عبدالحكم .

أما ابن القاسم فهو أبو القاسم عبدالرحمن بن القاسم العتقي ينسب إلى جماعة العتقاء الذين وفدوا على مصر منذ الفتح ، واختطوا بالفسطاط كما ذكرنا ، ولد سنة ١٢٨ هـ وصحب مالكا وروى عنه مسائله كلها ، وكان يقول : رجلان اقتدى بهما في ديني مالك بن أنس في العلم وسليمان في الورع^(١) وكان يفرع على أصول مذهب مالك وصارت إليه رئاسة المالكية بمصر إلى أن توفي سنة ١٩١ هـ ، وخلفه منافسه وزميله أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي ، تلقى العلم عن مالك والليث بن سعد والفضيل بن عياض^(٢) وكان من أكثر الناس علما وجمالة ، وقد وصفه ابن وهب بقوله : كان أشهب فقيها في علوم شتى ، ماسئل عن شيء إلا أجاب^(٣) ، وقال الشافعي : ما رأيت أفقه من أشهب لو لا طبش فيه^(٤) ، وكان يناقش ابن القاسم في رئاسة المالكية ، حتى انتهت إليه بعد وفاة ابن القاسم ، وقد انتصر لأشهب بعض المصريين أمثال محمد بن عبدالله بن عبدالحكم الذي كان يفضل أشهب على ابن القاسم وتوفي أشهب على ابن القاسم وتوفي أشهب سنة ٢٠٤ من الهجرة^(٥)

ويروى السيوطي أن أول من أدخل مذهب مالك في مصر هو عثمان بن الحكم الجذامي المتوفى سنة ١٦٣ هـ .

(١) الكواكب السيارة ، ص ٣٩

(٢) الديباج لابن فرحون ، ص ٩٨ (طبعة السعادة سنة ١٢٩٣)

(٣) الكواكب السيارة ، ص ٣٧ (٤) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٨

(٥) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٦

الليث بن سعد :

وما دعنا نتحدث عن هؤلاء العلماء والفقهاء الذين كان لهم أثر في مصر ، لا بد لنا من وقفة قصيرة عند عالم مصري شهيد له بالعلم والفقہ ، حتى قيل عنه إنه إمام أهل مصر في الفقہ والحديث ، ذلك هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن ، لم يكن عربياً أصيلاً في عروبتہ ، ولم يكن مصرياً عريقاً في مصريته ، بل كان فارسياً من أصبهان ، وكان مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي ، ولد الليث في قرية من قرى مصر هي قلقشنده ، ويقول الليث إن بعض أهله حدثوه أنه ولد سنة اثنتين وتسعين للهجرة ، ويوقن هو أن ولادته كانت سنة أربع وتسعين للهجرة ، ولكن السمعاني يقول إنه ولد سنة أربع وعشرين ومائة ، ويقول السيوطي إنه ولد سنة أربع وتسعين^(١) ويقول غيره إنه ولد سنة ثلاث وتسعين^(٢) نشأ بمصر وتثقف على علمائها أمثال يزيد بن أبي حبيب ، وجعفر بن ربيعة وخير بن نعيم وغيرهم ثم لم يقنع بهذا كله ، فقرأه يطوف ببعض البلدان طلباً للعلم ، فذهب إلى مكة للحج سنة ثلاث عشرة ومائة ، وهناك أخذ عن نافع مولى عبد الله بن عمر وعطاء بن أبي رباح وهشام بن عروة وقتادة وغيرهم وزار بيت المقدس سنة تسع وثلاثين ومائة هـ ، وزار بغداد سنة تسع وخمسين ومائة^(٣) ففي هذه الزيارات كلها قابل عدداً كبيراً من التابعين

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٤

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٣٨

(٣) يراجع ما كتبه الأستاذ Onest في مقدمة كتاب الولاة للكندي عن الليث

وأخذ عنهم الحديث ورووا عنه ، وزى له شأنا آخر من الناحية
 الفقهية فقد كان الليث فقيهاً مبرزاً ، حتى أن الشافعي كان يقول «الليث
 ابن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به» (١) فهذا حكم
 إمام من أئمة الفقه لليث بن سعد ، كذلك نجد ابن خلكان يروى أن
 ابن وهب كان يقرأ عليه مسائل الليث ابن سعد فمرت به مسألة ،
 فقال رجل من الغرياء : أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا
 يجيب فيجيب هو فقال ابن وهب للرجل : بل كان ، مالك يسمع الليث
 يجيب فيجيب هو ، والله الذي لا إله إلا هو ، مارأيتنا أحداً قط أفقه
 من الليث (٢) . ويروى السيوطي أن ابن بكير قال مارأيت أحداً أكمل
 من الليث ، كان فقيه النفس ، عربي اللسان ، يحسن القرآن والنحو ،
 ويحفظ الحديث (٣) والشعر ، حسن المذاكرة (٤) وقال سعيد بن أيوب
 لو أن مالكا والليث اجتمعا كان مالك عند الليث شبه أبكم ولباع
 الليث مالكا فيمن يريد (٥) وكان مالك يقول : «حدثني من أرضي من
 أهل العلم ، يريد به الليث (٦) ومن تلاميذ الليث عبد الله بن المبارك
 وأبو النضر هاشم بن القاسم ويونس بن محمد المؤدب وعبد الله بن وهب
 وأشهب وأكثر هؤلاء من شيوخ ابن حنبل . وسعيد بن عفير
 وعبد الله بن صالح كاتب الليث وعبد الله بن يونس التميمي وقد روى
 البخاري عن أكثرهم ، كما أخذ عنه قتيبة بن سعد

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٦٨ (٢) شرحه

(٣) في السكواك البيارة في ترتيب الزيارة (يحسن القرآن والفقه والشعر

والطب والشعر) (٤) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٤

(٥) كتاب الرحمة الغيثية للمصطفى ص ٦ (طبع بولاق سنة ١٣٠١ هـ)

(٦) شرحه ص ٨

من هذا كله نستطيع أن نعرف مكانة الليث بن سعد في نفوس المصريين المعاصرين له ، حتى قيل إن القاضي والوالى كانا من تحت أمره ومشورته ، لا يقطعان أمرا إلا بعد أن يرى هو فيه رأيه^(١) ، واضطر أحد الشعراء من خصوم الليث إلى أن يرسل إلى الخليفة أبي جعفر المنصور يقول :

لعبد الله عبد الله عندي نصائح حكمتها في السر وحدى
أمير المؤمنين تلاف مصرا فإن أميرها ليث بن سعد
وكان الليث ثريا كريما ، ومع فقهه وتدينه كان يأخذ بنصيبه في
الحياة الدنيا التي لم يحرمها الله ، وقد كتب مالك إليه يقول « بلغني أنك
تأكل الرقاق ، وتلبس الرقاق ، وتمشي في الأسواق ، فأجابه الليث
ابن سعد « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.
الخ الآية^(٢) » وقيل إن مالكا أهدى إليه صينية فيها تمر ، فأعادها بماء
ذهبا ... كما كان يتخذ لأصحابه الفالوذج ويعمل فيها الدنانير فمن
أكل أكثر من صاحبه ناله دنانير أكثر^(٣)

كان الليث على حظ كبير من المال ، وقسط وافر من العلم ، وكان
يساجل مالكا بالمراسلة ، ويأخذ عليه أمورا لا يراها هو ، وقد عثرنا
على إحدى هذه الخطابات التي أرسلها الليث إلى مالك مدونة في كتاب
« أعلام الموقعين ، لابن قيم الجوزية ، وفي هذه الرسالة نرى بعض
المسائل الفقهية التي لاتعنيننا في بحثنا هذا ، ولكننا نستطيع أن نتخذ
هذه الرسالة مثلا للكتابة الدينية في هذا العصر .

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٨٢ (٢) شرحه

(٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٣٨

تدلتنا الرسالة على أن لغة التأليف التي كانت عربية ساذجة قد دخلها شيء من الصعوبة والتعقيد ، ليس معنى هذا أن اللغة أصابها الفساد . بل خرجت عن سهولتها الأولى ، وصارت لغة تأليف على بعد أن كانت لغة مخاطبة وحديث ، واللغة لا بد لها من تغيير حتى تحتل هذا التجديد الذي طرأ على العقالية العربية ، من ذلك كله نجد شيئا من الغرابة في هذه الكتب العلمية والدينية ، ونجد ضعفا في تأليفها ، ولكن عربيتها صحيحة في الغالب ، فلم يبق إلا أن المؤلفين لم يتمكنوا من تأدية المعنى الذي قصدوا إليه في قالب عربي صحيح إلا بمشقة وجهد ، ولهذا لا نستطيع أن تفهم هذه المتون الدينية التي كتبها المؤلفون في هذا العصر وما بعده إلا بعد شرح وإطالة نظر لم يشأ الليث في رسالته هذه أن ينمق كتاباته أو يزخرها بالزينة اللفظية ، لأن هذه الألوان من الزينة لم تكن قد انتشرت بعد ، لهذا استعمل الأسلوب العربي القديم الذي نراه في كتب الحديث وغيرها والذي نجده في رسائل صدر الإسلام . فهو يبدأ بالسلام وحمد الله على طريقة المتقدمين ثم يدعو الله للمخاطب ولنفسه وبعد هذا كله يعرض لموضوع الرسالة .

« سلام عليك ، فيأى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو (بعد) عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة ، قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالك الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك بكم وآتمه بالعون على شكره ، والزيادة من إحسانه ، وذكرت نظرك فى الكتب التى بعث بها إليك ، وإقامتك إياها ، وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتتني

فجزاك الله عما قدمت منها خيراً ، فانها كتب انتهت إلينا عنك ، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندى موضع وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلاً ، إلا أنى لم أذاكرك مثل هذا ، وأنه بلغك أنى أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وإنى يحى على الخوف على نفسى ، لاعتماد من قبلى على ما أفتيتهم به ، وأن الناس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحداً ينسب اليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى ، والحمد لله رب العالمين لاشريك له .

ثم نراه بعد ذلك يحدثه فى أمور فقهية خالصة ، ويفتى له فيها . ومن هذا الخطاب يظهر لنا أثر ثقافة الليث ، فهى ثقافة عربية خالصة ، وثقافة دينية إسلامية تمثلها هذه المسائل الفقهية التى يتحدث عنها ، ثم إننا لانجد أثراً لهذه الجملة المسجوعة ، ولا التكرار والحشو ، ولا ذلك الإطناب الذى نراه فى الرسائل التى تكلف أصحابها الزينة البديعية ، فهذا خطاب دينى كتب بأسلوب علمى ، هو هذا الأسلوب الذى نراه فى كتب الفقه . ثم نراه يختم خطابه بالدعاء لمالك ، والسؤال عنه وعن آله وحاله « وأنا أحب توفيق الله إياك ، وطول بقائك ، لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك ، مع استئناسى بمكانك ، وإن نأت الدار ، فهذه منزلتك

عندى ورأى فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب إلى بخبرك ، وحالك ،
وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك ، أو لأحد يصل لك ،
فإني أسر بذلك . كتبتُ إليك ونحن صالحون معافون ، والحمد لله ،
نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما أنعم به علينا ،
والسلام عليكم ورحمة الله ، (١) .

هذا هو إمام مصر الذى أسف الشافعى على فوات لقيه (٢) ،
ولو كان تلاميذ هذا الإمام عنوا بعليه وفقهه لكان له شأن آخر غير
هذا الشأن ، ولما أهمله الفقهاء وغلباء المسلمين لاسيما هؤلاء المصريين
الذين كان لهم أن يفخروا بعالمهم ، ويحتفظوا بعليه ، ولكن كانت
المالكية مستاثرة بنفوس المصريين أو كما قال الليث : « إن الناس تبع
لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة » ثم إن الليث لم يصنف من
الكتب كغيره من الفقهاء ، ولم يدون أصحابه المسائل عنه ولهذا قال
الشافعى ضيعه أصحابه (٣) .

ومن أكبر تلاميذ الليث بن سعد ، إسحق بن الفرات صاحب
ممالك وقاضى مصر والذى قال الشافعى عنه « ما رأيت بمصر أعلم منه
باختلاف الناس » (٤) وقال ابن عليه « ما رأيت يولدكم أحدا يحسن
العلم إلا ابن الفرات » (٥) وتوفى سنة ٢٠٤ هـ . وكذلك إسحق بن
بكر بن مضر المصرى وكان يجلس فى حلقة الليث ويفى بقوله وتوفى

(١) نص هذا الخطاب فى كتاب اعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ، ج ٣ ، ص ٨٢
(طبع فرج الله زكى سنة ١٣٢٥ هـ) .

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٣٨ (٣) الرحمة النبوية للمقلان ص ٩ .

(٤) حسن المحاضرة ، ص ١٦٦ (٥) الكندى ، ص ٢٩٣

سنة ٢١٨ هـ^(١) وأحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى وكان وكيل
الليث ومحدثا عنه^(٢). ونستطيع أن نقول إن أكثر فقهاء مصر الذين
عاصروا الليث أمثال عبد الله بن وهب وعبد الله بن عبد الحكم
وأولاده قد تفقهوا بالليث بن سعد ولكنهم كانوا يؤثرون مذهب
مالك على مذهبه .

المدرسة الشافعية :

قويت المدرسة المالكية في مصر كما رأينا ، ولكن وفد الشافعى
على مصر وأقام بها ، فاجتمع له المصريون ، ومنهم كثير من أنصار
مالك مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيره ، فانقسم المصريون
بعد أن كادوا يجمعون على آراء مالك ، فلما وجد بعض وجوه
المصريين اختلاف التعاليم الشافعية عن المالكية رموا الشافعى بأشياء
كثيرة ، من ذلك ما يرويه ابن خلكان عن محمد بن عبد الله بن
عبد الحكم أنه قال : كنت أتردد إلى الشافعى ، فاجتمع قوم من
أصحابنا إلى أبى — وكان على مذهب الإمام مالك — فقالوا له
يا أبا محمد ، إن محمداً ينقطع إلى هذا الرجل ، ويتردد إليه ، فيرى الناس
أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه ، فجعل يلاطفهم ، ويقول هو حدث ،
ويحب النظر في اختلاف أقاويل الناس ومعرفة ذلك ، ويقول لى
فى السرى أبى إلزم هذا الرجل^(٣) .

ومحدثنا السكندى أن عيسى بن المنكدر — الذى تولى قضاء مصر

(١) حسن المحاضرة ، ص ١٦٧ (٢) الكواكب السائرة ، ص ٨٢

(٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٥٦

من سنة ٢١٢ إلى سنة ٢١٤ هـ — كان يصيح بالشافعي ويقول له :
يا كذا دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ، ورأينا واحد ، ففرقت
بيننا وألقيت بيننا الشر !! فرّق الله بين روحك وجسمك ، (١).
ويحدثنا ياقوت أن رجلاً من أتباع مالك يسمى فتيان كان يناظر
الشافعي كثيراً فيظهر الشافعي عليه ، فضاق فتيان بذلك ، وشم الشافعي
شتماً قبيحاً ، فلم يرد عليه الشافعي ، وتعصب قوم لفتيان ، فقصدوا
حلقة الشافعي حتى خلت من أصحابه ، وبقي وحده ، فجهموا عليه
وضربوه ضرباً مبرحاً ، فحمل إلى منزله ولم يزل فيه عليلاً حتى مات (٢).

وهكذا انقسم المصريون بين فقه المالكية والشافعية : واشتد
النزاع بين المدرستين ، حتى أدى الأمر إلى وقوع مناقشات عنيفة بل
إلى قتال أحياناً ، فقد جاء في كتاب المغرب « وفي سنة ٣٢٦ هـ عاد
أصحاب مالك والشافعي إلى القتال في المسجد الجامع العتيق ، وكان
في الجامع للمالكين خمس عشرة حلقة ، وللشافعية مثلها ، ولأصحاب
أبي حنيفة ثلاث حلقات ، فلما زاد قتالهم أرسل الأخشيذ ونزع حصرهم
ومساندهم وأغلق الجامع ، وكان يفتح في أوقات الصلوات ، ثم سئل
الأخشيذ فيهم فردهم ، (٣) .

من ذلك نستطيع أن نقول إن المدرسة الشافعية استطاعت أن
تنافس المدرسة المالكية بمصر ، وقد هيأت الشافعية جواً جديداً في
العلم لم تعده مصر من قبل ، إذ استطاعت أن تناقش المذاهب الأخرى

(١) الكندي ، ص ٤٣٨ (٢) معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ٣٩٥

(٣) المغرب في أخبار المغرب ، ج ٤ ، ص ٢٤

وأن تناظرها ، فابتدأت أذهان المصريين تتنبه لهذه المجادلات العنيفة
والمناظرات العلنية . ونحن إذا قرأنا كتاب الرسالة الذى بين أيدينا
وهو كما يقول المؤرخون مكتوب فى مصر ، نجد الشافعى يستعمل
فيه أحيانا طريقة المناظرة ، فيتخيل شخصاً يعارضه فى تفسير نص
أو فتوى ، فيجيبه ويفند آراءه حتى يلزمه الحجج ، ويقنعه برأيه ،
وطريقة المناظرة هذه لم تعرف قبله فى مصر ، ولم نجد لها أثراً قبل
الشافعى ، بل هى من آثار دراسة الشافعى فى العراق والحجاز ، حيث
كثر المتكلمون وأصحاب المذاهب ، وتشبعت الآراء ، وكثر
الجدل بين الطوائف الإسلامية وغيرها من المذاهب الدينية الأخرى ،
كمناظرة الشافعى ومحمد بن الحسن الشيبانى ، والشافعى وابن عليه ،
ونجد الخلفاء العباسيين ووزراءهم يحضرون هذه المناظرات وقيمونها
عندهم ، أما فى مصر فقد رأينا كيف كاد المصريون يعتقدون مذهباً
واحداً ، ولم تكن بمصر مناظرات كثيرة تشغل العلماء ورجال الدولة
كما كان فى العراق ، ونرى بعض أمراء مصر لا يحبون أن تقام
مناظرات بين العلماء أمامهم ، فقد قيل إنه تنازع أبو بكر بن الحداد
الفقيه وبكر بن محمد القاضى الماليسى وعبد الله بن الوليد ، وجرى
بينهم لفظ كثير فى حضرة الأخشيد ، فلما انصرفوا قال : يجرى هذا
فى مجلسى كدت والله أن آمر بأخذ عمائمهم ،^(١) ومهما يكن من شئ .
فالشافعى هو الذى شجع روح المناظرة العلنية فى مصر ، فكان
يناطر بعض المصريين ليستفيد من علمهم ، كالذى يرويه السيوطى

أن الشافعي كان يقول للربيع بن سليمان ياربيع ادع لي سرجاً — يريد سرج الغول وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولا يقول أحد شيئاً من الشعر إلا عرضه عليه — فيأتي به ، فيذاكره وينظره ، ثم يقوم سرج الغول فيقول الشافعي ياربيع ، نحتاج أن نستأنف طلب العلم^(١) . كما كان ينظر مخالفيه من الفقهاء ، كالذي يرويّه صاحب تاريخ بغداد أن صالح بن أبي صالح كاتب الليث بن سعد قال : كنا مع الشافعي في مجلسه فجعل يتكلم في تثبيت خبر الواحد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكتبناه وذهبنا به إلى إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن عُلَيمَة — وكان أحد المتكلمين وعن يقول بخلق القرآن وكانت له مع الشافعي مناظرات ببغداد ، وكان مجلسه بمصر عند باب الضوال — فلما قرأنا عليه جعل يحتج لإبطاله فكتبنا ما قال ابن عليه ، وذهبنا به إلى الشافعي فنقضه الشافعي ، ثم كتبنا ما قال الشافعي ، وذهبنا به إلى ابن عليه ، فجعل يحتج بإبطال ما قال الشافعي فكتبناه ، ثم جئنا به إلى الشافعي فقال إن ابن عليه ضال قد جلس عند باب الضوال يضل الناس^(٢) . وكان من أثر مناظرات الشافعي مع ابن عليه أن وضع ابن عليه وعيسى بن أبان كتاباً عن الشافعي والرد عليه ، ورد عليهما داود بن علي الأصهباني^(٣) . وهكذا أخذ المصريون يؤلفون كتباً في المذاهب والدفاع عنها ، وأخذوا عن الشافعي طريقته في الكتابة العلمية إذ كان يأتي بالآية أو الحديث ويشرحه ، ثم يستنبط منه ما ينتهي إليه رأيه ، وكان يختار من

(١) بنية الرعاة ، ص ٢٥٢ (٢) تاريخ بغداد ، ج ٦ ، ص ٢٠

(٣) شرحه ، ج ٦ ، ص ٢٢

الألفاظ الجياد الدقيقة ماتلاثم المعاني ، وجاء تلاميذ الشافعي فحولوا العبارة إلى نصوص عليية ، مخدوفة السند ، كالتى نراها فى مختصر المزنى ، مثلاً ، فقد أخذ كلام الشافعي وفهمه وكتبه على طريقة أستاذه دون أن يأتى بالأسانيد ، فوجدت بذلك روح الكتابة عند المؤلفين المصريين .

وكان كتاب « الأم » ، مثلاً يحتذى رجال المدرسة الشافعية فى كتاباتهم ، وهذا الكتاب ليس كتاباً واحداً ، بل هو مقسم إلى عدة كتب ، وفى كل كتاب موضوع خاص . وكما قلت كان يأتى بالآية أو الحديث فيفسره ، ويعلق عليه بمجمل قصيرة متينة التركيب والأسلوب ، وفى مقدمة الرسالة نجد الشافعي يبدأ قوله بالحمد ، ويكرر فى ذلك ، وهذه الطريقة ليست مصرية ، بل هى طريقة عبد الحميد الكاتب ، واستعملها كتاب العراق فى رسائلهم المطولة ثم نراه بعد ذلك يستطرد فى الموضوع الواحد ، فبينما هو يحمد الله يذكر آية أو نصاً ويفسرها ، ثم يعود إلى الحمد مرة أخرى ، ويكرره بالعطف ، وقد أكثر من الاستطراد وأطال ، ثم يصلى ويسلم على النبي فى الديباجة ، وهذه الصلاة وذلك التسليم لم يوجد فى الرسائل والكتب ، حتى جاء الرشيد فاستعمل ذلك فى رسائله ، حتى عدت من مناقب الرشيد وقد اتبعها الكتاب بعده .

والشافعي كان فصيحاً فى تعبيراته وألفاظه ، فكان لذلك أثره فى تلاميذه الذين أخذوا ما كتب ورووا عنه ما قال حتى اختلف

الكتاب أخيراً في كتاب « الأم » ، أهو للشافعي أم للبوطي
تلميذ الشافعي (١) .

والذي أراه أن تلاميذ الشافعي رَوَوْا ما في الأم عنه ، وجمع
البوطي ما رَواه عن الشافعي ، وسماه الأم ، فالشافعي نفسه - في
أغلب الظن - لم يسم كتابه الأم ، بل كان يملئ على تلاميذه دروساً
مقسمة إلى الكتب أو النصوص التي يتكوّن منها الأم فسمها البوطي
الأم . كذلك كان الأمر في كتاب الأصول لأبي حنيفة ، فإن أبا
الحسن الشيباني هو الذي جمع ما في الأصول وسماه بهذا الاسم ،
ولسنا نلاحظ أن الشافعي كتب بعض فصول الأم بنفسه ، وروى
الربيع بعضها عنه وإذن فالشافعي هو صاحب الكتاب وتلاميذه هم
الذين جمعوه ورتبوه حتى أخذ مظهره الحالي .

وكما أثر الشافعي في المصريين تأثيراً محسوساً ، كذلك نراه يتأثر
بالحياة المصرية نفسها ، فالشافعي كان من مدرسة الحديث أي من
تلاميذ مالك ، وقد هاجم مدرسة الرأي - أي مذهب أبي حنيفة -
أثناء زيارته للعراق ، ولسنا نجد في مصر يهاجم مدرسة الحديث
مثلة في مذهب مالك ، ويكوّن مذهبه الجديد في مصر . كذلك نراه
قد كتب الرسالة مرتين ، كتبها أولاً في العراق ، ثم أعاد كتابتها في
مصر بعد أن غير فيها بعض التغيرات التي تلائم الحياة المصرية ،
وكذلك نقول عن مذهبه فقد كتبه مرتين ، كتب في العراق مذهبه
القديم ، وكتب في مصر مذهبه الجديد ، ويستطيع رجال الفقه أن
يفرقوا بين المذهبين لو قدر للمذهب القديم البقاء .

(١) راجع بحث الدكتور زكي مبارك عن كتاب الأم (مطبعة حجازي بمصر
سنة ١٩٣٤) .

أما تلاميذ الشافعي الذين كان لهم الفضل في حفظ مذهبه ونشره
فقد عدهم الحافظ السلفي في قصيدة نظمها هي (١) :

فعليك يامن رام دين محمد بالشافعي وما تلاه وقال
أعنى محمداً بن إدريس الذي فاق البرية رتبة وكلا
وأجب كذا عن صحبه وأحبهم وأجلهم لله جل جلالا
فأجلهم شيخ الأئمة أحمد (٢) فيما رواه من الحديث وقال
والأعني (٣) ويونس الصدقي (٤) والـ
مزني (٥) آخر من إليه مالا

(١) الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة لابن الزيات ، ص ١٥١

(٢) يقصد الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المعروف .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الكريم بن أعين بن ليث وله
سنة اثنتين وثمانين ومائة وتوفي سنة ٢٦٨ سمع من ابن وهب وأشهب ثم صحب
الشافعي وتفق به وحمل في محبة خلق الفرائد إلى القاضي بن أبي داود ببغداد ثم
رد إلى مصر وانتهت إليه رئاسة المالكية بعد وفاة أبيه والشافعي وله كتاب السنن
على مذهب الشافعي .

(٤) يونس بن عبد الأعلى بن موسى الصدقي المصري روى عن ابن عيينة
وتفق على الشافعي وقرأ على ورش وتصدر الاثراء والفقهاء ولد سنة ١٧٠ ومات
سنة ٢٦٤ وروى عنه مسلم والنسائي وابن ماجه وكان الشافعي يقول عنه ما رأيت
بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى (ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤١٨) .

(٥) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن اسحق المزني يعتبر
إمام الشافعيين وأعرفهم بطرق الشافعي وفتاويه من كتب كثيرة في مذهب
الشافعي منها الجوامع الكبير والصغير والمختصر ومختصر المختصر والمختصر
والسائل المتبرة وغيرها وكتابه المختصر أصل الكتب المصنفة في مذهب الشافعي
وعلى مثاله كتب المؤلفون أو فسر وما فيه (ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٧١
والفهرست ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩) ويقول السيوطي إن الشافعي قال في المزني
إنه أو ناظر الشيطان لقلبه (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٨) ولد سنة ١٧٥
وتوفي سنة ٢٦٤ .

وكذلك حرمة ^(١) بن يحيى وال
بويطى ^(٢) الذى قد أعجز الإشكالا
واذكر أبا ثور ^(٣) فقيه عراقه
وفريدها والحارث البقلا
ثم الربيعان ^(٤) اللذان تفننا
فى فقهه وتحملا الأثقالا

(١) حرمة بن يحيى بن عبدة التجي أبو حفص المصرى كان له مذهب
لنفسه وصنف المبسوط والمختصر وروى عن مسلم وابن ماجة ولد سنة ١٦٠ ومات
سنة ٢٤٣ (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٨) .

(٢) أبو يعقوب يوسف بن يحيى المصرى البويطى سمع من عبدة بن وهب
والشافعى وسمع منه كثيرون منهم أبو إسماعيل الترمذى وإبراهيم بن إسحق الحربى
وفى تاريخ بغداد أن الشافعى لما مرض مرضه الذى مات فيه جاء محمد بن عبد الحكم
ينازع البويطى فى مجلس الشافعى فاحتكما إلى أبى بكر الحميدى فقال لهما إنه سمع الشافعى
يقول ليس أحد أحق بمجلسى من يوسف بن يحيى (يعنى البويطى) وليس أحد
من أصحابى أعلم منه ، وجلس البويطى فى مجلس الشافعى (ابن خلكان ، ج ٢ ،
ص ٣٤٦) وكان ابن أبى الليث الحنفى قاضى مصر يحسده ، فعصى به إلى الواتق
بأنه أيام محنة خلق القرآن فأمر بحمله إلى بغداد ، فلولا مقيدا وأريد منه القول
بذلك فامتنع فعبس فى بغداد إلى أن مات فى القيد والسجن يوم الجمعة من رجب
سنة احدى وثلاثين ومائتين (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٧) وللبويطى
كتاب المختصر الكبير والصغير وكتاب الفرائض (ابن التديم ، ص ٢٩٨) .

(٣) أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبى البيان السكلى الفقيه البغدادى صاحب
الامام الشافعى وناقل الأقوال القديمة عنه له الكتب المصنفة فى الأحكام جمع فيها بين
الحديث والفقه وكان أول اشتغاله بمذهب أهل رأى حق قدم الشافعى العراق
فاختلف اليه واتبعه ولكنه خالفه فى أشياء وأحدث لنفسه مذهباً اشتغ به من
مذاهب الشافعى وله مبسوط على ترتيب كتب الشافعى وأكثر أهل أذربيجان
وأرمينية يتفقون على مذهبه (الفهرست ص ٢٩٧) وتوفى سنة ٢٤٠ هـ .

(٤) هما الربيع بن سليمان الراى والربيع بن سليمان بن داود الأزدى الجيزى =

والزعفراني (١) الصدوق ورهطه

في كل قطر وأعرف الأبطالا

وأول قاض شافعي ولي مصر هو أبو زرعة محمد بن عثمان بن
ابراهيم الثقفي ولي القضاء سنة ٢٨٤ هـ ولما عزل رجع إلى دمشق ،
وكان الغالب على أهلها قول الأوزاعي ، فأبو زرعة هو الذي أدخل
مذهب الشافعي دمشق ، وتبعه من بعده كثير من القضاة (٢) ، وقيل
إن أبا زرعة شرط لمن يحفظ مختصر المزني مائة دينار يهبها له (٣) .

== أما الربيع الرازي فهو أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل
الرازي المؤذن المصري وهو الذي روى أكثر كتب الشافعي وقال الشافعي في حقه
« الربيع راويي » (ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٨٤) وكان الربيع الرازي أقدم
أصحاب الشافعي بعصر صحبة وأشهرهم بحجة له (الكواكب السائرة ص ١٢٢)
روى عنه أصحاب السنن الأربعة واللاحوي وأبو زرعة وغيرهم وكان يعمل الحديث
بجامع ابن طولون وهو أول من أملى به وتوفي سنة ٢٧٠ (حسن المحاضرة ،
ج ١ ، ص ١٩٦) .

أما الربيع الجيزي فهو أبو محمد الربيع بن سلمان بن داود بن الأعرج الأزدي
الجيزي صاحب الامام الشافعي واسكنه كان قليل الرواية عنه وأكثر روايته عن
عبد الله بن عبد الحكم وروى عنه أبو داود والنسائي وغيرها وتوفي سنة ٢٥٦
بالجيزة وهو الذي ينسب إليه جمع الأم وترتيبه بيد الويعلي ونلاحظ أن اسم الربيع
تكرر كثيرا في كتاب الأم فيلتبس الأمر على القارئ من الربيين هو
القصود وقد وفق الأستاذ زكي مبارك إلى التفرقة بين الربيع الرازي والربيع
الجيزي في بحثه عن كتاب الأم ص ٧٣

(١) أبو عبد الله الحسن بن محمد بن الصباح روى البسوط عن الشافعي على
ترتيب ما رواه الربيع وخالف في شيء يسير ولذا لا يعتمد عليه الفقهاء بل يعتمدون
على ما رواه الربيع وقد ضاع أكثر كتب الزعفراني وتوفي سنة ٢٦٠ هـ
(الفهرست ص ٢٩٧) .

(٢) الكندي : القضاء والولاية ص ٢٣ ورفع الأمر عن قضاء مصر
لأبن حجر نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٣) تاريخ الإسلام لانهي نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

وهناك قاض آخر كان له أثره في الأدب والفقه هو أبو عبيد
علي بن الحسين بن حرب المعروف بحريويه وهو من أهل بغداد
ودخل مصر في شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين من الهجرة وظل
قاضياً على مصر إلى أن عزل سنة إحدى عشرة وثلثمائة فخرج من
مصر إلى بغداد حيث توفي سنة تسع عشرة وثلثمائة من الهجرة .
حدث عن النسائي ، وتفقه على أبي ثور صاحب الشافعي ، وحدث
في زمن ولايته ، فلما صرف أُملي على المصريين وكتبوا عنه مجالس ،
وروى عنه أبو جعفر الطحاوي وأبو بشر الدولابي ، وكان له مركز
قيم في مصر حتى أنهم أخذوا أقواله أمثالا كقوله « إن البغاث بأرضكم
يستنسر ، قال الطحاوي كنت أذكر عنده ابن أبي عمران الحنفي
فقال لي « إلى كم تقول ابن أبي عمران ، قدر أيت هذا الرجل بالعراق ،
« إن البغاث بأرضكم يستنسر ، قال فصارت هذه الكلمة بمصر مثلاً (١) .
وقال الطحاوي أيضاً كان أبو عبيد يذاكرني بالمسائل ، فأجبتة يوماً
في مسألة ، فقال لي ما هذا قول أبي حنيفة ، فقلت له أيها القاضي أوكلها
قاله أبو حنيفة أقول ، قال : ما ظننتك إلا مقلداً ، فقلت له : وهل
يقلد إلا عصبى فقال لي أو غي ، فطارت هذه الكلمة بمصر حتى
صارت مثلاً (٢) . وكانت توقيعات أبي عبيد تخرج معنونة محتومة
وكتبت بمصر ألفاظه ، وجمعت توقيعاته وكانت محشوة فقهاً وبلاغة (٣)
ولكن فقدت كل هذه التوقيعات ولم يبق منها شيء .

(١) الكندي ص ٥٢٩ (٢) الكندي ص ٥٢٨

(٣) رفع الامر عن قضاة مصر لابن حجر .

المدرسة الحنفية :

وضع الإمام أبو حنيفة النعمان مذهبه متأثراً بما كان في العراق من مذاهب المتكلمين وأهل الرأي ، وقد رأينا المصريين لا يقبلون من المذاهب والآراء إلا ما كان صادراً من المدينة أو مكة ، فلا نجد مصريين اهتموا كثيراً بمذهب أبي حنيفة في أول الأمر ، إنما نقل المذهب إلى مصر القضاة الذين كانوا يعينون من العراق ، ولعل أول قاض تولى مصر من دان بمذهب أبي حنيفة هو اسماعيل بن اليسع الكندي (١) الذي ولى سنة ١٦٤ هـ ، وقد كرهه المصريون لأنه كان يذهب بمذهب أبي حنيفة ، ولم يكن أهل مصر يعرفون هذا المذهب (٢) حتى أن الليث بن سعد كتب إلى الخليفة يطلب عزل هذا القاضي ، ويقول : إنك ولتينا رجلاً يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين أظهرنا ، مع إننا ما علمناه في الدينار والدرهم إلا خيراً ، فاضطر الخليفة إلى عزل القاضي (٣).

وأشهر قضاة مصر الحنفيين في ذلك الوقت ، هو القاضي بكار ابن قتيبة بن عبيد الله بن أبي بردعة من نسل ابن أبي بكره الثقفي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه . ولد بكار بمدينة البصرة وأخذ الفقه عن هلال بن يحيى ، وعيسى بن أبان وغيرهما من مشايخ البصرة ، وروى عنه أبو داود السجستاني ، وابن خزيمة ، وأبو عوانة وأكثر عنه الإمام الطحاوي فقيه الحنفية بمصر وغيرهم .

(١) ذكر في حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٦٣ اسماعيل بن سميع .

(٢) الكندي ، ص ٥٧١ (٣) تاريخ الإسلام للذهبي

ولى قضاء مصر من قبل المتوكل ، فدخلها سنة ست وأربعين ومائتين
من الهجرة ، وكان يحدث في المسجد الجامع ، وكثيراً ما كان أحمد
ابن طولون أمير مصر يجيء إلى بكار وهو على الحديث فما يشعر
به بكار إلا وهو جالس إلى جنبه ^(١) . ويذكر ابن حجر عن ابن
زولاق أنه كان لبكار اتساع في العلم والمناظرة ، ولما رأى مختصر
المزني ، وما فيه من الرد على أبي حنيفة شرع هو في الرد على الشافعي ،
فقال لشاهدين من شهوده إذهبا إلى المزني فقولاه سمعت الشافعي
يقول ما في هذا الكتاب ، فضيا وسمعا المختصر كله من المزني ،
وسألاه عما إذا كان هذا كلام الشافعي ، فرد بالإيجاب ، فعادا إلى
بكار فأخبراه بذلك ، فقال : الآن استقام لنا أن نقول قال الشافعي
ثم صنف الرد المذكور ^(٢) .

وكان بكار يشتهي أن يسمع كلام المزني ، فاجتمعا يوماً في
جنازة ، فأشار بكار إلى أبي جعفر التل — وكان حنفياً أيضاً —
أن يسأل المزني عن مسألة ، فقال التل : ما رأيت أعجب من أصحابنا
الشافعيين ، لهم أحاديث في تحريم قليل النيد ، ولنا أحاديث في تحليله
فمن جعلهم أولى بأحاديثهم منا بأحاديثنا ؟ فقال المزني : ليس يخلو
أن يكون أحاديثكم قبل أحاديثنا أو بعدها ، فإن كانت قبلها فهكذا
نقول إنها كانت محللة ثم أحرمت ، فاحتاج إلى أحاديثكم ، وإن كانت
أحاديثكم بعد أحاديثنا فهذا لا يقول أحد أنها كانت حلالاً ثم صارت
محرمة ثم حلت !! فأعجب بكار بقول المزني ، وقال سبحان الله أن

يكون كلام أدق من الشعر فهو هذا^(١) وكان بكار يخالف أصحابه في تحليل قليل النيز ويذهب إلى تحريره .

ظل بكار قاضياً على مصر، ويحدث المصريين بمذهب أبي حنيفة حتى دعاه ابن طولون إلى خلع الموفق ولعنه ، فرفض بكار فحبسه ابن طولون ، ولما طال حبسه طلب أصحاب الحديث إلى الأمير أن يأذن لهم في السماع منه ، فأذن لهم ، فكان بكار يحدثهم من طاق في السجن إلى أن توفي سنة ٢٧٠ هـ .

أما الطحاوي فهو يعد إمام المصريين، في مذهب الحنفية لكثرة تلاميذه وخصب نتاجه ، ولد سنة ثمان وثلاثين ومائتين من الهجرة، وصحب المزني الشافعي وتفقه به ثم ترك مذهب الشافعي وصار حنفياً ، وكان كاتباً للقاضي بكار ، وسمع الحديث منه ومن خلق من المصريين ، ومن الغرباء القادمين ، وتوفي سنة ٥٣٢١ هـ ، بعد أن ترك عدة كتب في الفقه ، أولع الناس بها لاسيما كتابه « المختصر في الفقه » الذي وضع له الفقهاء شروحاً عدة .

واشتد تنافس المذاهب في مصر فإذا قلد قاض شافعي كاد لأصحاب المذاهب الأخرى ، كالقاضي اسماعيل بن عبد الواحد المقدسي الذي ولى سنة ٣٢١١ فقد تحدث مع الأمير تكين فبعث صاحب الشرطة فأقام من كان بالجامع الكبير من المالكيين والحنفيين^(٢) . ويروى ابن حجر عن ابن زولاق أن الأخشيدية كلها كانت تكره ابن الحداد الفقيه لكرهتهم في الشافعية^(٣) . وأمر

(١) الكندي ص ١١٠ (٢) الكندي ص ٤٤٤

(٣) رفع الإصر ، والكندي ص ٥٥٥

القاضي الحارث بن مسكين بإخراج أصحاب أبي حنيفة من المسجد وأصحاب الشافعي وأمر بنزع حصرهم^(١). وروى السكندی أن القاضي ابن أبي الليث انتهز محنة خلق القرآن فأوقع بأصحاب مالك والشافعي ومنع فقهاءهم من الجلوس في المسجد ومدحه الشاعر الحسين الجمل الأكبر بذلك^(٢).

النصوف في مصر:

مضى القرن الأول من الهجرة ولم نعرف أنه كان بمصر نزعة صوفية لها شعائرها وتقاليدها الخاصة المعروفة حتى كان أواخر القرن الثاني ظهر ذو النون المصري أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم ، كان من إخيم من أسرة نوبية ، ولاندرى عن أخذ هذا اللون من التعبد فقد قيل إن أستاذه شقران العابد وقيل عن فاطمة النيسابورية وقيل إنه كان يتصل بالرهبان في الأديرة فأخذ عنهم الزهد والانقطاع عن ملاذ الحياة والإقبال على العبادة والتفاني في الحب الإلهي ، وأنه أخذ عن هؤلاء الرهبان شيئاً من العلوم الفلسفية التي خلقتها الغنوسطية والأفلاطونية الحديثة فأدخل ذلك كله في تعبيراته عن حبه الإلهي والمعرفة ، وقيل إن بعض الرهبان الذين اتصل بهم كانوا يقرأون النقوش المصرية القديمة ، وأطلعوا ذا النون عليها ، وعلوه أسرارها فكان يذهب إلى البرابي ويحاول فك طلاسمها ورموزها ، وكان ذو النون صاحب خيال رائع فليس يبعد أن يستفيد ذو النون من هذه الرموز بما يغذى خياله ويوحى إليه بما

نراه في أقواله وأفعاله وأشعاره من تغان في الذات الإلهية ، كل هذه خلاقات حول المنبع الذي استقى منه ذو النون . ولا نستطيع أن نرجع إحداها لغموض شخصية ذي النون نفسه ولأن ما بقي لنا من آثاره لا تمكني لأن نحكم عليه حكما صحيحا أو قرينا الصحيح ، ومهما يكن من شيء فإن ذا النون روى الموطأ عن مالك ولكنه قام يدعو إلى طريقته في اخميم وتبعه خلق كثير ، ولكنه رى بالزندقة لأنه ابتدع في مضر الإسلامية ما لم يكن معروفا من قبل ، ورفع علناه اخميم أمره إلى والى مصر الذي حاكمه أمام عبد الله بن عبد الحكم زعيم المدرسة المالكية بمصر ، ومن الطبيعي أن تختلف نزعة ذي النون عن نزعة الفقيه عبد الله بن عبد الحكم ، وتاريخ الإسلام ملوء بالنزاع بين الصوفية والفقهاء ذلك أن الفقهاء يميلون دائما إلى ظاهر القرآن والسنن النبوية والعناية باستخراج الأحكام منهما حسب ما تؤديه اللغة والاستدلال المنطقي ثم يراعون دائما أن يقسموا الأعمال إلى أركان وفروض وأعمال ؛ أما الصوفية فلا يفرقون بين واجب ومسنون وإن الأعمال الظاهرة ليست بذات قيمة بجانب الباطن ، ولكل فرض من فرائض الدين أسرار ولكل شعار من شعار الدين رموز ويفضلون الطهارة القلبية قبل كل شيء ولتضارب النزعتين سمى الفقهاء أنفسهم رجال الشريعة وسمى الصوفية أنفسهم رجال الحقيقة ، ولما كانت الصوفية جديدة في الحياة الإسلامية المصرية في القرن الثاني والثالث من الهجرة وكانت الصوفية مضطهدة في كل بقاع العالم الإسلامي ويكنى أن نذكر قصة الحلاج والحاسبي مع أحمد بن حنبل وغيرها وكان ذو النون أول صوفي اضطهد في مصر

بسبب نزعته ، فترك مصر ورحل إلى بلاد عديدة كبلاد المغرب
والحجاز واليمن ، وبعد أن هدأت الحالة عاد إلى مصر بعد أن توفي
عبد الله بن عبد الحكم ، ولكن ثار الفقهاء ضده من جديد وكان
قاضى مصر إذ ذاك محمد بن أبي الليث الذى امتحن المصريين بمخلق
القرآن ، فأراد ذو النون أن يهرب من مصر مرة أخرى ولكنه لم
يفعل ، فقبض عليه وأرسل إلى بغداد فقيّد وسيق إلى المطبق والناس
يكونون حوله وهو يقول هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه
وكل فعاله عذب حسن طيب وأنشد .

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانَ الْمَصُونِ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى فَيْكِ يَهُونُ
لَكَ عِزْمُ بَأْنٍ أَكُونُ قَتِيلًا فَيْكِ وَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لَا يَكُونُ
وكان بعض رجال حاشية المتوكل اعتنق الصوفية ، فسعى في
إطلاق سراحه ، فأحضرة المتوكل وتأثر بوعظه ورأى أنه ليس بذى
النون مظهر من مظاهر الخوف على الدولة أو الدين ، فأطلق سراحه
وبذلك نصر المتوكل الصوفية على الفقهاء متأثراً بشخصية ذى النون
وتوفي ذو النون بمصر سنة ٢٤٨ .

وكان ذوالنون من أوائل الصوفية الذين استعملوا كلمة الحب
وتوسع في معنى الحب الإلهي وفسره تفسيراً لا يزال أساساً من أسس
الصوفية إلى اليوم . كما قيل أنه أول من تكلم في الأحوال والمقامات
وينسبون إليه أنه أول من وسع الكلام عن الولاية وبحث من أيهم
أفضل النبي أم الولي . وكذلك ينسبون إليه كلمة الابدال وأنه
أول من فصل مسألة المعرفة إلى غير ذلك من الآراء الصوفية التي
نراها اليوم .

ولأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية نجد شيئاً اسمه الصوفية لهم كيان وتدخل في أمر البلاد ، ويقول السكندى (١) وابن حجر : كانت بمصر جماعة من الصوفية يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر وكان عيسى بن المنكدر منهم ، فلما ولي القضاء كانت تأتيه وهو في مجلس الحكم ثم أنت تلك الطائفة فقالوا : إن أمير المؤمنين المأمون قد ولي أبا إسحاق بن الرشيد مصر وإنا نخافه ونخشى أن يشد على أهل العدوان فاكتب لنا كتاباً إلى المأمون بأنك لا ترضى بولايته ففعل ذلك ابن المنكدر وبلغ الكتاب المأمون واطلع عليه أبا إسحاق المعتصم فعزل ابن المنكدر عن قضاء مصر .

فهذا يدلنا على أن الصوفية أصبح لهم مكانة وعصبية في مصر . من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحركة الدينية بمصر كانت حركة كبيرة قوية ، وأخرجت مصر عدداً كبيراً من القراء والمحدثين والفقهاء ، بجانب هذه الحركة الأدبية التي سنتحدث عنها في الفصل القادم .

(١) الولاية والقضاء ص ٤٤٠ ، وابن حجر في كتاب دفع الإصر عن قضاة مصر .

الفصل الثاني

اللغة والتاريخ

النحاة واللغويون

رأينا كيف قامت بمصر مدارس دينية خالصة ، استمرت منذ الفتح في نشاط ودأب ، ولم يز في القرن الأول أثراً لهذه الدراسات الأدبية واللغوية التي كلف بها العراقيون وغير العراقيين من الشعوب الإسلامية ، ولكننا نجد تطوراً في القرن الثاني الهجري ، إذ قامت بمصر دراسات أدبية ونحوية ولغوية ، واطرد نمو هذه الدراسات حتى غمرت مصر وفاضت على غيرها من بلدان المغرب ، ونبغ عدد كبير من علماء المصريين ، وكثرت المؤلفات العلمية التي أفادت المصريين كما استفاد منها غير المصريين .

فن النحاة الذين كان لهم أثر محمود في مصر بنو ولاد ، وأشهرهم الوليد بن محمد التيمي النحوي المشهور بولاد . كان الوليد نحويّاً بحدوثاً ، روى عن القنبي وأبي زرعة المؤذن كُتِب اللغة والنحو ، وأصله من البصرة ، ونشأ بمصر ، ودخل العراق ، ولم يكن بمصر شيئاً من كتب النحو واللغة قبله ، وأخذ عن المهلب تلميذ الخليل بالمدينة ثم عن الخليل نفسه (١) . وتوفي سنة ثلاث وستين ومائتين من الهجرة

ومحمد بن ولاد التميمي الذي اخذ عن الدينوري النحو والأدب ، ثم
رحل إلى العراق ، وأخذ عن المبرد وعلب ، وكان يؤدب ابن صاحب
خراج بغداد (١) ، ولكنه عاد إلى مصر يعلم الناس ، ووضع كتابه المنطق
في النحو ، توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين من الهجرة وقد بلغ الخمسين
من عمره . ثم رحل ولده أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد إلى
العراق ، وأخذ النحو عن الزجاج ، وعاد إلى مصر وألف كتابه
المقصود والممدود ، بها : وكان الزجاج يعرف فضل أحمد هذا ،
ويثني عليه عند كل من قسم مصر إلى بغداد ، فكان يقول لهم : لي
عندكم تلميذ من صفته كذا وكذا . فيقال له : أبو جعفر النحاس
فيقول : بل أبو العباس بن ولاد (٢) وتوفي سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة
من الهجرة وأبو العباس هذا أستاذ أبي عبد الله الرباعي النحوي
الأندلسي .

وكتاب المقصود والممدود هو الكتاب الذي نقده المتنبّي في مصر
كما عرض لنقده المهلبّي اللغوي النحوي على نحو ما سنذكر في حديثنا
عن المتنبّي ، وقد طبّع هذا الكتاب لأول مرة في مصر سنة ١٩٠٨
وقد بدّاه ابن ولاد بحرف الألف مخالفا في ذلك مذهب الخليل بن
أحمد وقد قال ابن ولاد في مقدمة هذا الكتاب من ذلك : ولعل
بعض من يقرأ كتابنا هذا ينكر ابتداءنا فيه بالألف على سائر حروف
المعجم لأنها حرف معتل ولأن الخليل ترك الابتداء بها في كتابه
كتاب العين ، وليس غرضنا في هذا الكتاب فيما التمسناه بهذا النوع
من التأليف كغرض الخليل في كتاب العين لأن كتاب العين لا يمكن

طالب الحرف منه أن يعلم موضعه من الكتاب من غير أن يقرأه إلا أن يكون قد نظر في التصريف وعرف الزائد والأصلي من المعتل والصحيح والثلاثي والرباعي والخامس ومراتب الحروف من الخلق واللسان والشفة وتصريف الكلمة على ما يمكن من وجوه تصريفها في اللفظ على وجوه الحركات والحقاها ما تحتل من الزوائد بعد تصريفها بلا زيادة ويحتاج مع هذا إلى أن يعلم الطريق التي وصل الخليل منها إلى حظر كلام العرب ، فإذا علم هذه الأشياء عرف ما يطلب من كتاب العين والذي نذهب إليه في هذا الكتاب غير هذا المذهب لأننا نقصد إلى أن نقرب على طالب الحرف فيه ما يطلبه وأن يستوى في العلم بموضعه من العلم والمتعلم ، فلم نراع أن يكون في أول الكلمة حرف أصلي دون أن يكون زائداً أو زائد دون أن يكون أصلياً أو صحيح دون أن يكون معتلاً أو معتل دون أن يكون صحيحاً ، فنكلف الطالب للحرف أن يعرف أولاً جميع ما ذكرناه فلذلك بدأنا بالباب الذي يكون أول ما فيه من حروف المعجم الألف .

ثم أخذ ابن ولاد يفصل بين المقصور والممدود ويعدد أنواعهما على منهج السكوفيين والبصريين ، هذا كله في مقدمة كتابه ثم يتبع المقدمة بالمقصور والممدود من الألفاظ العربية مرتبسة حسب الحروف الأبجدية فكان يأتي بالكلمة ويشرح غريبها مستشهداً بالأشعار القديمة حيناً وبالآيات القرآنية حيناً آخر وقد يأتي باشتقاق اللفظ مما يدل على سعة علم ابن ولاد بالعلوم العربية الخالصة حفظه للأدب القديم واللغة العربية . وقد ختم كتابه ببحث طويل اشتمل على كثير

من قواعد الصرف، والذي الأخطه على هذا الكتاب سلاسة أسلوبه
وخطوة من التعقيد الذي نراه في كتب اللغة والصرف التي ألفت في
العصور المتأخرة .

ووضع احمد بن جعفر الدينوري بمصر كتابه «المهذب في النحو»
وصدّره بالكلام عن الخلاف بين البصريين والكوفيين ، وعزى
كل مسألة إلى صاحبها^(١) . ولم يكن نحويًا فقط بل كان أديباً يدرّس
هذا النوع من العلم ، فقرأ كتب ابن قتيبة كلها على المصريين . وقد
استفاد الأندلسيون من هذا الرجل ، كما استفاد منه المصريون ،
فقد روى السيوطي أن محمد بن موسى ابن هاشم المعروف بالأفشين
القرطبي رحل إلى المشرق ، ولقي بمصر أبا جعفر الدينوري ، وأخذ
عنه كتاب سيبويه رواية^(٢) ، وكان الدينوري قد أخذ كتاب سيبويه
بالبصرة عن المازني وتتلذذ للبرد^(٣) وتوفي سنة تسع وثمانين
وما تين .

أما أبو جعفر النحاس احمد بن محمد بن اسماعيل فقد نبغ في
النحو واللغة ، وحذق القرآن وما يتعلق به ، وألف في ذلك كتباً
كثيرة ، نذكر منها كتاب «معاني القرآن ومنسوخه» كما ألف في
النحو واللغة والأدب نذكر من ذلك كتبه «المبتهج في اختلاف
البصريين والكوفيين» و «أدب الكتاب» و «شرح المعلقات السبع»
وكتاب «طبقات الشعراء» ، ويروي ابن خلكان أن أبا جعفر

(١) معجم الأدباء ، ج ١ ص ٧٨٢

(٢) شرحه ص ١٣٠

(٣) بنية الوعاة للسيوطي ص ١٠٨

النحاش فصر عشرة دواوين وأملأها على تلاميذه بمصر^(١) . وكان في مصر محمد بن حسان النحوى الذى روى النحو عن أبى زرعة المؤذن وروى عن عبد الملك بن هشام مغازى ابن اسحق ومات سنة اثنتين وسبعين ومائتين^(٢) .

وكذلك نسمع عن محمد بن اسحق بن أسباط السكندى أبى النظر المصرى النحوى ، أخذ عن الزجاج وله كتاب في النحو سماه العيون والنكت ، وقال ياقوت : إنه نزل أنطاكية ثم صار إلى مصر وكان شيخ أهل الأدب بها ، وله تقدم في المنطق وعلوم الأوائل وله المغنى في النحو^(٣) . وكذلك محمد بن عبد الله بن محمد بن سلم وهو المعروف بالمطلى وكان نحويًا يعلم أولاد الملوك النحو ومات سنة ثلاث وثلاثمائة^(٤) .

وبجانب هؤلاء الأدباء والعلماء المصريين الذين رحلوا في طلب العلوم العربية ، نجد علماء العراق وغير العراق يزورون مصر ويروون بها علومهم ، وكان من أثر ذلك أن وجدت في مصر نهضة أدبية علمية جعلت لها مركز الزعامة في القرون التالية فقد جاء مصر أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وتوفي بمصر سنة ٢١٨ هـ ونراه السيرة قد تأثر بمصر فقد روى عن علمائها أمثال ابن وهب وابن لحيعة وكان ابن هشام إماماً في اللغة والنحو ، وقد اجتمع به الشافعى حين ورد مصر وتناشدا كثيراً من أشعار العرب^(٥) ووفد عليها

(١) ج ١ ، ص ٢٩ (٢) بنية الوعاة ص ٣٨٧

(٣) بنية الوعاة ص ٢١ (٤) شرحه ، ص ٦٠

(٥) حنين المحاضرة ج ١ ص ٣٦

أبو الغباس الناشئ الأكبر ، وكان نحوياً متمكناً متبحراً في عدة علوم .
من جملة المنطق ، وكان بقوة علم الكلام قد نقض علل النحاة ،
وأدخل على قواعد العروض شها ، ومثلها بغير أمثلة الخليل ، (١)
ونكسب بعلومه هذه في مصر كما سنرى في حديثنا عنه شاعراً

وجاء مصر محمد بن موسى الواسطي ، وكان من أهل العلم
باللغة وتفسير القرآن ومات بمصر سنة ٣٢٠ هـ (٢) ويموت بن
المزروع قدم مصر مراراً كان آخرها سنة ثلاث وثلاثمائة (٣) ولعله
في إحدى زياراته أو في هذه الزيارات كلها روى بمصر كتب خاله
أبي عثمان الجاحظ .

وكذلك زار مصر محمد بن زيد بن يضحوية بن الهيثم البردعي
وروى عنه بمصر ابن يونس المؤرخ وأبو القاسم الطبراني ، وأصله
من أذربيجان . نزل مصر فاستوطنها ، وكان كثير العلم متفتناً في
الأدب واللغة والشعر وكان ثقة أميناً (٤) .

ويحدثنا ياقوت أن المصريين ما كانوا يعرفون شيئاً من شعر
الطرماح بن حكيم ، فلما قدم ابن جرير الطبري مصر سأله علي بن
سراج المصري أن يملئ شعر الطرماح ، فجلس ابن جرير عند بيت
المال يملئه ويفسر غريبه (٥)

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة جاء مصر أحمد بن عبدالله

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٦٣ (٢) بغية الوعاة ص ١٠٩

(٣) الأنساب للسمعاني ، ص ٢١ (٤) بغية الوعاة ، ص ٤٣

(٥) معجم الأدباء ج ٦ ص ٤٣٣

بن مسلمة بن قتيبة ، فدخل عليه أصحاب الحديث يسألونه أن يحدثهم فقال : مامعى إلا كتب أبى وأنا أحفظها فإن شئتم سردها عليكم . فلما عرف الناس ذلك قصدوه . فصار مجلسه غاصاً بفتون الناس ممن يطلب العلوم والآداب ، وقصده أبو جعفر النحاس وابن ولاد وأبو مخاصم المظفر بن أحمد ووجه البلد (١) .

كذلك وفد على مصر محمد بن أحمد بن على من ولد المهلب بن أبي صفرة المعروف بالمهلبى النحوى ، قال عنه الزيدى : إنه كان عالماً نحوياً لغوياً ثقة (٢) ومات بمصر سنة ٣٤٩ هـ .

المؤرخون

ظهر فى مصر عقب الفتح لون من الدراسات الإسلامية وإن شئت فهو من العلوم العربية ، وهو القصص ، فظهر القصص الدينى بمصر سنة تسع وثلاثين هجرية ، وكان أول من قص بمصر هو سليم بن عتر التجيبى الذى تولى القضاء بمصر مدة طويلة (٣) كان هذا القصص سبيلاً فى موضوع آخر هو التاريخ ، وقد عنى المسلمون منذ الفتح بأمر تاريخ مصر ، لأنها ذكرت كثيراً فى القرآن الكريم ، كما روى عن النبى أحاديث كثيرة عن مصر وأهلها ، والمسلمون يعلمون أن إحدى زوجات النبى كانت مصرية ، وأن بعض الأنبياء والرسل كان لهم شأن فى مصر ، عرف المسلمون هذا كله ، ورأوا بعد الفتح أشياء لم يروا مثلها كالمهرم والمقابر الأخرى التى عرفت

(١) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حبر (نسخة خطية رقم ١٠٥

بدار الكتبة المصرية) (٢) بنية الوعاة ص ١٤

(٣) الولاة والقضاة الكندي ص ٢٠٧

بمصر باسم « البراني » ، وكان عند العرب هذا القصص الذي يحدثهم
عن القدماء فشقغوا بالتاريخ وروايته ، وزخرفوا أقوالهم بشيء كثير
من القصص الخيالية التي تثير الضحك أحيانا ، ووضعوا من عندهم
أخبارا بعيدة كل البعد عن الصحة ، وكانت هذه الأخبار كلها أساسا
لكتب التاريخ ، التي ظهرت بمصر ، وغذى هذه الحركة بمصر وجود
عدد من الأخباريين وأصحاب المغازي مثل محمد بن إسحق صاحب
السيرة ، وعبد الملك ابن هشام راويها ومحمد بن أبي الليث الذي كان
وراقا على باب الواقدي^(١) ثم وفد عليها ابن جرير الطبري مرتين ،
والمسعودي ، وعن مؤرخي مصر نقل ابن جرير كثيرا في كتابه
وابن هشام في السيرة . وغيرهما من المؤرخين . ووضعوا عن مصر
كتبا عديدة .

ولعل أكثر الكتب القديمة تضليلا وتخطاهو كتاب « فتوح
مصر » ، الذي يسنده بعض المؤرخين إلى ابن اسحق الأموي ، ويسنده
بعضهم الآخر إلى الواقدي ، وإن كنت أرجح أن الواقدي كتابا
غير الكتاب الذي ينسب إلى ابن اسحق . ويتجلى ذلك في الاختلاف
الذي بين السكتابين .

كتاب فتوح مصر لابن عبدالحكم :

وهناك كتاب آخر لمؤلف مصري له قيمته وأثره . إذ لا أكاد
أعرف مؤرخا كتب عن مصر دون أن يذكر هذا الكتاب ، أو
يأخذ عنه ، لهذا كان كتاب « فتوح مصر » مصدراً هاماً من مصادر

تاريخ مصر منذ الفتح ، كما أنه يمثل لنا ناحية أخرى من نواحي التأليف العلمي بمصر في هذا العصر ، فقد رأينا الحركة العلمية والنشاط الفكري كانا متجهين إلى العلوم الدينية في أول الأمر ، ثم أضيف إليهما العلوم العربية الخالصة ، كما توجه المصريون إلى القصص والعلوم التاريخية ، ولقد لعبت يد الخيال في هذه الأخبار التاريخية ، فأخرجتها عن جادة الحق ، ولكنها تمثل لنا عقلية العرب الذين كانوا يأخذون كل ما يروى لهم دون أن يحاولوا تحقيقه .

هذا النوع من العلوم كان عرييا خالصا ، اهتم به الجاهليون والمسلمون ، وأخذ به بعضهم عن بعض حتى دون في القرن الثالث الهجري ، ومن أوائل المدونين للتاريخ ابن عبد الحكم المصري صاحب « فتوح مصر » ، وأحد أفراد بني عبد الحكم .

بنو عبد الحكم

نحن مضطرون إلى الوقوف عند هذه الأسرة التي كان لها أثر كبير في الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية بمصر في القرنين الثاني والثالث من الهجرة .

نحن لانعرف شيئا عن أولية أسرة بني عبد الحكم ولكن ياقوت في معجم البلدان يقول إنهم ينسبون إلى الحقل بلدة بالقرب من أيلة [العقبة] وأول شخص في هذه الأسرة ذكره لنا المؤرخون هو أبو عثمان عبد الحكم بن اعين ابن الليث بن رافع المتوفى سنة احدى وسبعين ومائة وقيل إن له عدة مسائل عن الإمام مالك (١)

أما نشأته وحياته فلم يصلنا عنها شيء ، كذلك لانعرف إذا كان مصرياً أو غير مصري وصاحب الديباج يقول عن عبد الله بن عبد الحكم انه مولى امرأة من موالى عثمان بن عفان ويقال بل هو مولى نافع مولى عثمان ولا ندرى أيضاً أى لون من ألوان الولاء كان ولاؤه .

وأول شخصية لها قيمتها في هذه الأسرة هو عبد الله بن عبد الحكم ابن أعين ولد بالاسكندرية وقيل بمصر سنة خمس وخمسين ومائة وأخذ الفقه عن مالك وعن إمام مصر الليث بن سعد وسمع الحديث من عبد الله بن طهية ، ولما مات أشهب بن عبد العزيز رئيس المالكية بمصر سنة أربع ومائتين ، تولى عبد الله رئاسة مذهب مالك ونستطيع بسهولة أن ندرك خطر هذا المركز إذا علينا أن المسلمين في مصر كانوا جميعاً يدينون بهذا المذهب .

وكان العلماء في مصر لا يدرسون غير هذا المذهب ، واجتمع حوله المصريون والوافدون من الأندلس والمغرب يأخذون عنه مذهب مالك وتجمع المصادر التي تحدثت عنه أنه كان صالحاً متحققاً بمذهب مالك وأجمعت أيضاً على علو شأنه في الفقه ، ووضع عدة كتب منها المختصر الكبير جمع فيه ثمان عشرة ألف مسألة والمختصر الأوسط وقيسته أربعة آلاف مسألة والمختصر الصغير وفيه ألف ومائتا مسألة وقصر هذا الكتاب الأخير على ما في الموطأ ، وله أيضاً كتاب الأحوال وكتاب القضاء في البيان وكتاب المناسك وكتاب في سيرة عمر بن عبد العزيز .

هذا من الناحية العلمية ، ومن ناحية أخرى نرى المؤرخين يجمعون على أن عبد الله كان ثرياً جداً وله جاه عظيم بين المصريين ونحن لا نعرف كيف أتته هذه الثروة .

وبلغ من ثراه أن الشافعى لما وفد على مصر سنة تسع وتسعين ومائة تلقاه عبد الله بن عبد الحكم وانزله في داره وبالح في بابه وأعطاه من ماله الخاص ألف دينار واستطاع بنفوقه أن يجمع له من بعض المصريين ألف دينار أخرى وأخذ له من بن عسامة التاجر المصرى ألفاً ثلاثة ليتمكن الشافعى من أن يعيش بمصر عيشة راضية فقد جهل المصريون قدر الشافعى في أول الأمر وكان يود الرحيل من مصر لولا وجود بنى عبد الحكم .

وبروى المؤرخون أن عبد الله كان له تأثير كبير في تولية الشهود فكان يزكهم ويحرمهم وكان بعض الولاة يستشيرون عبد الله في تصريف أمور الدولة ويحدثنا الكندى أن الوالى عبد الله بن طاهر كان يقرب عبد الله بن عبد الحكم ويستشيريه في بعض أموره كما كان ابن عبد الحكم واسطة الصلح بين عبيد بن السرى الثائر وبين ابن طاهر كما كان ابن عبد الحكم أحد الفقهاء الذين جمعهم الوالى ابن طاهر لاختيار قاضى لمصر فرشح كل واحد من الفقهاء قاضياً ولكن الوالى عين مل رشحته ابن عبد الحكم بل ذهب ابن عبد الحكم إلى أبعد من ذلك فقد طلب من الوالى أن يزيد مرتب القاضى ففعل الوالى وحفظ القاضى وهو عيسى بن المنكدر يد ابن الحكم فجعله على مسائله وهنا ظهر ما يدلنا على خلق ابن الحكم فقد جرت العادة أن يكون الشهود من طبقة

خاصة من لهم جاه فلما تولى ابن الحكم على مسائل القاضى أدخل بين الشهود بعض الناس من لاجاه لهم ولا قدر فلما عوتب على ذلك قال : « إن هذا الأمر دين وإنما فعلت ما يجب على » ، فهذا الخبر يدلنا على أن ابن الحكم كان قوياً في خلقه وإنه لم يحاب وجوه المصريين لجاههم ، وقيل إن الرعيني الفقيه لما سمع كلام ابن الحكم قال له « أسأل الله أن لا يرفعك بالشهادة أنت ولا واحداً من ولدك » فكان الأمر على ذلك فقد بلغ ابن عبد الحكم هو وولده بالبلد ما لم يبلغه أحد ما قبلت لأحد منهم شهادة قط [هكذا روى السكندی عن ابن قديد] وهذه هي الدعوة التي قال عنها ابن خلكان أن ابن عبد الحكم لم يشهد ولا أحد من ولده لدعوة سبقت فيه .

واستمر عبد الله بن عبد الحكم رئيساً للمذهب المالكية وعلى مسائل القاضى حتى جاء الخبر بولاية المعتصم على مصر سنة أربع عشرة ومائتين ٢١٤ وذهبت جماعة الصوفية إلى القاضى يطلبون منه أن يكتب إلى المأمون بأن المصريين لا يقبلون ولاية المعتصم عليهم ، ولكن ابن عبد الحكم أشار على القاضى بأن لا يستمع لأقوال الصوفية وأن لا يكتب إلى الخليفة فأبى القاضى وكتب إلى المأمون فدفع المأمون كتابه إلى المعتصم فلما جاء المعتصم مصر عزل القاضى وحبسه كما حبس عبد الله بن عبد الحكم فأقام ابن عبد الحكم في السجن أياماً ثم مرض ومات في رمضان سنة أربع عشرة ومائتين ودفن بجوار الشافعى في منزل بنى عبد الحكم .

ترك عبد الله بن عبد الحكم أربعة أولاد عبد الحكم بن عبد الله وعبد الرحمن بن عبد الله وسعد بن عبد الله ومحمد بن عبد الله

أما عبد الحكم وهو أكبر أولاده فكان فقيهاً أيضاً على مذهب مالك كآبيه وأخذ الفقه عن أصحاب مالك من المصريين أمثال أبيه وعبد الله ابن وهب ، وقيل إنه لم يكن في أصحاب ابن وهب أتقى ولا أفقه منه بل ذهب صاحب الديباج إلى أن عبد الحكم أفقه لإخوته كما عرف أيضاً بجودة خطه ولم يصلنا عن هذا الفقيه شيء إلا ما قيل عن محنته التي توفي بسببها بل محنة بنى عبد الحكم التي لم يقم لهم قائمة بعدها .

بدأت محنة بنى عبد الحكم بمسألة خلق القرآن فقد طلب إليهم القاضي محمد بن أبي الليث أن يعترفوا بخلق القرآن فامتنعوا فخذبهم القاضي وحمل عبد الحكم إلى العراق للإقرار هناك فامتنع أيضاً فضرب بالسياط وقيل إنه سجن ودخن عليه بالسكبريت حتى مات في سجنه بسبب خلق القرآن ولكن موت عبد الحكم لم يكن لهذا السبب بل كانت بسبب أموال الجروى الثائر بمصر والذي انتهت ثورته حوالى سنة ٢١٢ هـ وفى سنة ٢١٥ هـ أتى الأفشين مصر وطالب على بن عبد العزيز الجروى بالأموال التي عنده فلم يدفع إليه شيئاً فقتله الأفشين واستمر الولاة يبعثون عن أموال الجروى حتى سنة ٢٢٧ فقدم مصر يزيد التركي أحد قواد المتوكل العباسى فى طلب هذه الأموال بعد أن علم الخليفة فى بغداد أن بعضها عند بنى عبد الحكم . وحكم القاضي ابن أبي الليث على بنى عبد الحكم بألف ألف دينار وأربعائة ألف وأربعة آلاف دينار كما حكم على غيرهم أيضاً ونادى منادى الوالى بأن من كتم الأموال ضرب خمسمائة سوط وهدمت داره ، فأقر عبد الحكم بمال عنده فبعث به إلى منزله فلم يخرج شيئاً

ورد إلى يزيد التركي فعذبه حتى توفي لأربع بقين من جمادى الأولى سنة ٢٣٧ هـ .

أما سعد بن عبد الله بن عبد الحكم فلم يصل إلينا شيء عنه إلا ما رواه صاحب نفح الطيب أنه كان أستاذا لعدد من فقهاء الأندلس الذين رحلوا في طلب العلم إلى مصر وذكر منهم أبا عبد الله محمد ابن عبد الله الباجي الإشبيلي ومحمد بن عيسى ومحمد بن عمر بن لبابة وغيرهم كما كان أحد الذين روى عنهم أخوه عبد الرحمن بن عبد الله في كتابه فتوح مصر

تتحدث بعد ذلك عن أشهر أولاد عبد الله بن عبد الحكم وهو محمد بن عبد الله عبد الحكم ولد بمحمد سنة اثنين وثمانين ومائة وأخذ فقه مالك عن أبيه وأشهب وروى عن عبد الله بن وهب ولما وفد الشافعي على مصر ونزل ضيفاً على بني عبد الحكم أخى محمد أهدا وكثيراً ما سمع الشافعي يقول «ما يقيمى بمصر غيره» ، وعد محمد بن عبد الله من أشد تلاميذ الشافعي صلة به وروى المزني : كنا نأتى الشافعي نسمع منه فنجلس على باب داره ويأتى محمد بن عبد الحكم فيصعد ويطلب المسكث وربما تغدى مع الشافعي ثم ينزل الشافعي فيقرأ علينا فإذا فرغ من قراءته قرب إلى محمد دابته فركبها واتبعه الشافعي بصره فإذا غاب شخصه قال الشافعي لمن معه وودت أن لى ولداً مثله وعلى ألف دينار لأجد لها قضاء . وروى محمد بن عبد الحكم أنه كان يتردد إلى الشافعي فاجتمع قوم من أصحاب مذهب مالك إلى عبد الله بن عبد الحكم وقالوا يا أبا محمد إن محمداً ينقطع إلى هذا الرجل ويتردد إليه فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه ،

يجعل عبد الله يلاطفهم ويقول هو صغير ويجب النظر في اختلاف
أقوال الناس ومعركة ذلك ويقول لابنه محمد في السر يا بني الزم هذا
الرجل . وكان الشافعي معجباً بمحمد لفرط ذكائه وحرصه على
الدرس والتحصيل حتى ظن الناس من صدق مودتهم أن الشافعي
يفوض أمر حلقة بعد وفاته إلى محمد بن عبد الحكم وكان محمد نفسه
يتطلع لرياسة مذهب الشافعية بعد الإمام الشافعي ولكن الشافعي
في مرض موته رشع البويطي لرياسة مذهب فغضب محمد بن عبد الحكم
وترك الشافعية وتحول إلى مذهب المالكية وجعل لنفسه حلقة يدرس
فيها مذهب مالك وبعد موت أبيه اختاره المصريون لرياسة مذهب
مالك وذاعت شهرته في الأقطار الإسلامية حتى صارت إليه الرحلة
لأخذ مذهب مالك وروى السبكي عن الصدفي أنه قال : رأيت أهل
مصر لا يعدلون به أحداً ويصفونه بالعلم والفضل والتواضع ،
وروى عن ابن خزيمة أن محمد بن عبد الحكم أعلم من رأيت على أديم
الأرض بمذهب مالك ، وذكر صاحب نفح الطيب عدداً كبيراً من
علماء الأندلس الذين أخذوا عن محمد بن عبد الحكم .

ولما أصيبت مصر بمحنة خلق القرآن سنة سبع وعشرين ومائتين
منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد
واضطهد الفقهاء والعلماء وهرب أكثرهم من القاضي ابن أبي الليث
أما محمد بن عبد الله فقد أهين وعذب وأطافه القاضي ينادي بخلق
القرآن حتى مر بحلقة ابن صبيح المعتزلي بمصر فقال له ابن صبيح :
الحمد لله الذي هدانا لهذا يا أبا عبد الله ، يشير إلى أن محمد بن عبد الحكم

أقر بخلق القرآن وفي ذلك يقول الشاعر الحسين بن عبد السلام المعروف بالجلل الأكبر يمدح القاضي بن أبي الليث :

ومحمد الحكيم أنت أطفته وأخوه ينطق بالصياح الأجر
كل ينادى بالقران وخلقته فشهرتهم بمقالة لم تشهر
ويقول أبو المحاسن إنه حمل إلى بغداد وأنه ثبت على السنة ،
فأعيد إلى مصر (١) . ظل محمد بن عبد الحكم رئيساً لمذهب
المالكية بمصر ولكن بعض القضاة كانوا يضطهدونه ولا أدرى
سبب ذلك فشلا الحارث بن مسكين الذي ولي قضاء مصر
سنة ٢٣٧ هـ كان يجرح محمد بن عبد الحكم دائماً ولم يقبل شهادته حتى
قال لرجل طلب أن يستشهد بمحمد بن عبد الحكم : قل له إن كان
رجلاً فليأت فليشهد .

وفي أيام أحمد بن طولون كان محمد بن عبد الحكم من جلسائه
ومن أجرى عليه ابن طولون الأرزاق . ويروى المقرئ قصة
ملخصها أن ابن طولون لما حفر بئر بـحـطة معافر (عند القرافة)
بلغه أن جماعة من الفقهاء لا يستحون شرب مائها فبينما محمد ابن
عبد الحكم في داره ليلاً إذ أتاه أحد خدام ابن طولون وقال له إن
الأمير يدعوك فركب ابن عبد الحكم مرعوباً مذعوراً وعدل الغلام
به عن الطريق فسأله ابن عبد الحكم فقال إلى الصحراء والأمير فيها
فأيقن ابن عبد الحكم بالهلاك فقال للخدام الله الله في فإني شيخ كبير
ضعيف مسن فتدري ما يراد مني فارحمني فقال له الغلام : احذر أن
يكون لك في السقايه قول . قال ابن عبد الحكم فسرت معه وإذا

بالمشاعل في الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية
فنزلت وسلمت عليه فلم يرد على فقلت أيها الأمير إن الرسول أعنتني
وكدني وقد عطشت فيأذن لي الأمير في الشرب فأراد الغلمان أن
يسقوني فقلت أنا آخذ لنفسى فاستقيت وهو يراني وشربت وازددت
في الشرب حتى كدت أنشق ثم قلت : أيها الأمير أسقاك الله من
أنهار الجنة فلقد أرويت وأغنيت ولا أدري ما أصف أطيب الماء
في حلاوته وبرده وصفائه أم طيب ريح السقاية فنظر ابن طولون
إليه وقال أريدك لأمر وليس هذا وقته فاصرفه .

ويروى السيوطي أن كنيز خادم الخليفة المنتصر خرج إلى مصر
وتفقه على مذهب الشافعي وكان يأتي حلقة محمد بن عبد الحكم
وينظره فسعى به إلى أحمد بن طولون بأنه جاسوس فحبسه ابن طولون
سبع سنين . وظل ابن عبد الحكم في رئاسة مذهب مالك حتى توفي
سنة ٣٦٨ هـ

أما عبد الرحمن بن عبد الله صاحب كتاب « فتوح مصر » فكان
من أهل الحديث والرواية وشغف بالقصص والأخبار وكلف
بالتاريخ وكان من أثر ذلك أنه وضع كتابه « فتوح مصر » . وقد
أصاب عبد الرحمن ما أصاب إخوته في محنة خالق القرآن وأموال
الجرى وتوفي عبد الرحمن سنة ٢٥٧ هـ

يعد عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم من أقدم مؤرخي
الاسلام في مصر الذين وصلت إلينا كتبهم كل كتاب رواية الأخبار
من ثقات المصريين أمثال والده عبد الله ، ويحيى بن بكير ، وعثمان

ابن صالح كاتب الليث بن سعد ، وغيرهم ، وعنه أخذ القاسم بن حيدش وأبو سلية التجيبي ، وابن قديد وغيرهم ، وإذا عرفنا أن ابن قديد أحد رواة ابن عبد الحكم كان من أهم المصادر الذين استقى عنهم السكندى كتابيه «الولاة» و«القضاة» أدركنا بسهولة السبب الذى من أجله نرى فى كتاب السكندى بعض أخبار مذكورة فى «فتوح مصر» مع أننا نعلم أن السكندى كان يحاول أخذ الأخبار من نفس المصادر التى استقى منها عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، ومع ذلك فالسكندى اتخذ كتاب فتوح مصر أساساً لكتابه ، ولا سيما فى الفصل الذى عقده ابن عبد الحكم عن القضاة فى مصر .

كان عبد الرحمن معاصراً لمؤرخين من أشهر وأقدم مؤرخى الاسلام ، ولسكنا نرى ابن عبد الحكم يمتاز عن معاصريه بأنه أوجد فناً جديداً فى التاريخ الإسلامى هو فن «الخطط والأخاذه» وهذا النوع من التاريخ لم يكتب فيه أحد قبل المصريين ، ولا نعرف أحداً كتب فيه قبل ابن عبد الحكم ، ولم يوفق المقرئى فى قوله «إن أول من رتب خطط مصر وآثارها ، وذكر أسبابها فى ديوان جمعه هو أبو عمر محمد بن يوسف السكندى ، ثم كتب بعده القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى كتابه المنعوت «بالمختار فى ذكر الخطط والآثار ومات فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سنَى الشدة فندر أكثر ما ذكر»^(١) لم يوفق المقرئى فى هذا القول لأن ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر سبق السكندى فى الحديث عن الخطط

(١) الخطط ، ج ١ ، ص ٦

ولعل أول ما يلفت النظر إلى كتاب ابن عبد الحكم أنه مقسم حسب الموضوعات ، فقد جعله المؤلف سبعة أبواب ، وأدرج تحت كل باب ما قيل في الموضوع الذى خص له ، فاختلف بذلك عن الطبرى والمبرد والجاحظ وغيرهم من الأدباء والمؤرخين . فهو لاء لم يحاولوا أن يقسموا كتبهم إلى فصول أو أبواب بل خلطوا كتبهم ، وجمعوا فيها كل شاردة وواردة ، زعماً منهم أن الأديب عليه أن يأخذ من كل شئ ، بطرف ، فأودعوا كتبهم كل شئ بدون أن يحاولوا ترتيب هذه الموضوعات ، وقد غلب هذا النوع من التأليف على علماء العراق ، حتى كان ابن قتيبة فابتدأ بترتيب كتبه ، أما فى مصر فكان المؤلفون يقسمون كتبهم ، ويرتبون موضوعاتها ، حتى أن الفارابى عند ما دخل مصر ومعه كتابه « المدينة الفاضلة » سأل به بعض الناس أن يجعل له فصولاً تدل على قسمة معانيه ، فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة (١) . ليس لنا أن نتحدث عما فى كتاب « فتوح مصر » من أخطاء تاريخية كان مصدرها جهل العرب والمصريين بتاريخ مصر القديم ، ورغبة بعض الرواة فى وضع أخبار عن مصر من المحقق أنها بعيدة عن الصواب ، وقد يطول بنا الأمر لو ناقشنا هذا كله ، ويكفى أن أقول إن أكثر هذه الخرافات فى القسم الأول من الكتاب ، وهو القسم الذى ذكر فيه فضائل مصر وتاريخها من أول أمرها إلى أن فتحها العرب وأقول خرافات لأن علم الدراسات المصرية القديمة أثبت ما يخالف ما جاء فى هذا الكتاب ، ثم لهذه

المبالغات التي لا يكاد يتصورها عقل . كوجود أشعار عربية قالها
قدماء المصريين وحفروها على آثارهم ١١١

أما القسم الثاني من الكتاب . فهو يتحدث عن فتح العرب لمصر
فذكر المؤلف شيئا عن علاقة مصر ببعض أفراد من العرب قبل
الاسلام وعن كتاب النبي إلى المقوقس ، وجواب هذا إلى النبي
عليه السلام ، ثم ذكر الفتح العربي ، وتحدث عن مسألة اختلف فيها
المسلمون منذ القرن الأول الهجري . وهي هل فتحت مصر عنوة
أم صلحا ، فبسط روايات الطرفين ، دون أن يذكر رأيه ، فقد كان
راويا كثيره من المحدثين والمؤرخين ، وفي الباب الثالث يذكر
الخطط والأخاند والقطائع وهو الفن الذي لم يسبقه غيره إليه ،
وفي الرابع يتحدث عن الإدارة في عهد عمرو وابن أبي سرح وعن
الفيوم وبرقة وطرابلس ، وفي الخامس يذكر غزو شمال أفريقيا
والأندلس ، وفي السادس يسرد أسماء قضاة مصر حتى سنة ٢٤٦ هـ
أي قبل وفاة المؤلف بعشر سنين ، وفي السابع يروى الأحاديث التي
حفظها الصحابة الذين جاءوا مصر ، وقد بلغ عددهم اثنين وخمسين
فيروى لكل منهم أحاديثه التي سمعها من النبي وكان ابن عبد الحكم
يعتمد على طريقة الرواية فإن تعاليمه كانت دينية كباقي أسرته ،
ولكنه اتجه إلى التاريخ والحديث مخالفا في ذلك باقي أسرته الذين
مالوا إلى الفقه .

وما يحسن الإشارة إليه أن قبر بني عبد الحكم ، الذي دفنت فيه
هذه الأسرة العلمية بجوار قبر الإمام الشافعي ، فقبة ضريح الشافعي

تجمع قبر الشافعى وقبر بنى عبد الحكم ، وهكذا كان الشافعى صديقا لهم فى حياته ، فأصبح جارهم فى مماته .

ابن الداية وكتاب المكافاة

كنت أود أن أعرض لغير ابن عبد الحكم من المؤرخين المصريين أمثال عمار بن وسيمة المصرى المتوفى سنة تسع وثمانين ومائتين صاحب التاريخ على السنين ، وأحد تلاميذ مدرسة الليث ابن سعد^(١) وابن يونس صاحب تاريخ مصر^(٢) والسكندى المؤرخ المعروف وغيرهم كالذين ذكرهم المسعودى فى مقدمة كتابه « مروج الذهب » ، والذين روى عنهم ابن جرير الطبرى فى تاريخه وتفسيره ، ولكنى أترك ذلك كله لمن يتوسع فى دراسة الحياة العقلية فى هذا العصر .

ولكن أرى أن أتحدث عن مؤرخ مصرى آخر ، عاش فى هذا العصر واتصل ببعض الأمراء المصريين ، وبمختلف طبقات الشعب ، ووضع كتابا عن هؤلاء الأمراء ، ثم تحدث فى كتب أخرى عن هذا الشعب وحاله ، ذلك هو الكاتب المعروف بابن الداية . وإذا تحدثنا عن ابن الداية فسنحدث عن كتابه « المكافاة » ، لأنه مصدر من مصادر التاريخ والأدب ، ونستطيع منه أن نعرف حالة سكان مصر فى هذا العصر واتجاه عقولهم .

جمع الكتاب عدة قصص خرافية ، ولكنها لم تكن خيالية ، بل

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ ، ومروج الذهب ، ج ١ ، ص ٤

(٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ ، وغيرها وتاريخ الطبرى فى مواضع متعددة

هى حوادث واقعية حدثت، للؤلف، أو لوالده، أو لغيرهما من المعاصرين، ويتحدث في كل واقعة من هذه على مكافأة قدمت نظير عمل أو معروف، فالكتاب من هذه الناحية يستحق التقدير والبحث ومؤلف الكتاب هو أحمد بن أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم المعروف « بابن الداية »، فإن والده يوسف بن إبراهيم كان ولد نظير إبراهيم بن المهدي، وأخا للخليفة العباسي المعتصم^(١) بالرضاعة فهو لم يكن مصرى الأصل ولا أدري تماماً إذا كان عربى الأصل أم أعجمياً.

نشأ يوسف بن إبراهيم في دار الخلافة ببغداد، وصار مع إبراهيم ابن المهدي طول حياته وتولى كتابة إقطاعاته، توفي إبراهيم في أواخر سنة ٢٢٤ هـ في خلافة المعتصم، وأخذ قواد الخليفة من الأتراك يضيقون الخناق على العرب ومواليهم، لم يستطع يوسف البقاء في سر من رأى، فتركها إلى دمشق سنة خمس وعشرين ومائتين، وهناك نزل على عيسى بن حكم الطبيب النسطوري^(٢). ولاكنه لم يشأ أن يبقى في الشام طويلاً، بل وفد على مصر، ولما علم المصريون بوجوده أقبلوا عليه، لأنهم سمعوا عن علمه وأدبه، وصادقوه فعاش بينهم ولقب بيوسف بن إبراهيم المصرى وكان بينه وبين أحمد بن المدبر في العراق عهد صداقة ومودة ولكن لما تولى بن المدبر أمر خراج مصر، ورأى حسن ظاهر يوسف ظن أن ذلك عن أموال جملة لديه، فطالبه ببعض بقايا عقود انكسرت

(١) المكافأة، ص ١١٠

(٢) ميون الأنباء، ج ١، ص ١٢١

عليه ، فحبسه طويلا حتى انقذه ابو الفوارس مزاحم بن خاقان
وكانت ام زوج يوسف قد تولت تربية مزاحم (١) .

كان يوسف فيما يروى عنه يحب العلم والعلماء ، ويحرص على
اقتناء المؤلفات المختلفة ، كما انه وضع عدة كتب منها : كتاب اخبار
إبراهيم بن المهدي و « كتاب الطيخ » (٢) . ويحدثنا ابنه احمد ان
الأمير أحمد بن طولون حبس يوسف بن إبراهيم ، ولا نندى
سبباً لذلك ، ثم يقول إن بعض وجوه المصريين كلوا الأمير في أمر
يوسف فأفرج عنه (٣) . ولعل هذه القصة تدلنا على ما كان ليوسف
من المكانة في نفوس المصريين ، كذلك كان يوسف على سعة من
الرزق فقد كان يجري بعض المال على بعض الأشراف المقيمين
في مصر (٤) .

أما مؤلف الكتاب أحمد بن يوسف ، فقد عرف عنه شغفه
بالعلم ، وكلفه بالأدب ، ويروى ياقوت عن ابن زولاق « كان أبو
جعفر رحمه الله في غاية الافتنان ، أحد وجوه الكتاب الفصحاء ،
والحساب ، والمنجمين ، مجسطى ، اقليدسى ، حسن المجالسة ، حسن
للشعر » (٥) ، لذلك كان أحد خواص بني طولون ، حتى عرف بكانتهم
وقد ألف هذا الرجل جملة كتب في التاريخ والأدب نذكر منها كتاب
« سيرة أحمد بن طولون » و « سيرة ابنه » « أبي الجيش » ، ويقول ابن
زولاق « وكان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب قد

(١) المكافاة ، ص ١٠٧ (٢) المكافاة ، ص ١١٥

(٣) شرحه ، ص ٢٥ (٤) شرحه ، ص ٤٨

(٥) معجم الادباء ج ٢ ، ص ١٥٧

عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر ، وسيرة ابنه أبي الجيش ،
وأنشدا في الناس ، وقرأتهما عليه ، وحدثت بهما عنه ، مع غيرهما
من مصنفاته ، ثم عملت أنا ما فاتته من سيرتهما ، ^(١) وله كتاب أخبار
غلبان بن طولون وكتاب « حسن العقي » وكتاب « أخبار الأطباء
و » كتاب المكافأة ، ، ولعلك تدرك من أسماء هذه الكتب أن جلها
كتب تاريخ وأخبار ، ولم تكن ككتاب ابن عبد الحكم ، بل هي
بمجموعة أخبار وقصص تمثل الحياة التي يتحدث عنها أصدق تمثيل .

لم يكن ابن الداية كاتباً فحسب ، بل كان شاعراً أيضاً ، وروى
عن نفسه فقال « كان أبو الفياض سوار بن شراة الشاعر صديقاً
لي ، ومائلاً إلي ، فلما اعتزم على الرجوع إلى العراق سألتني أن
أكتب له شيئاً من شعري ، فكتبت له مقدار خمسين ورقة . وكان
يستحسنه ويعجب به ، فصار إلى بغداد ، وعرضه على جماعة
الأحرار ، وأحسن وصني لهم بسلامة مذهبه وطهارة نيته . ودخل
محمد بن سليمان مصر وقدرد البريد بها إلى أبي عبيد الله أحمد
ابن صالح ، فسأل عند دخوله إياها عن أحمد بن يوسف ، فأحضر
أحمد بن يوسف — وكان كاتباً لأحمد بن وصيف ثم لابن الجصاص
التاجر — فقال له : تعرف أبا الفياض ؟ قال : لا . فقال لهم :
ليس هذا الرجل الذي طلبت ، فأحضرت ، فلما رأيته استشرف
إلي وقال : تعرف أبا الفياض ؟ فقلت ذكرك الله وإياه بكل صالحة
نعم أعرفه ، وكان خلالي . فقال : هل أنشدك من شعره .

ظللنا بها نستزل الدن صفوه فيزل أقياسا بغير لميب
قلت : لا ياسيدى ، ولمكنى أنشدته إياه من شعرى ، فضحك
وقال : « والله لقد ائسقت إلى الدخول إلى مصر من أجلك » ثم
يقول ابن الداية « وكان والله أفضل عون لى على أمورى » (١) .
كذلك كان شعر ابن الداية سببا فى قيام بعض القيسية على
خدمته وخفزه دون مقابل (٢) .

نستطيع - كما قدمت - أن نقول إن كتاب المكافأة هذا
كتاب أدبى لما فيه من طرائف ومكائبات وأشعار ، ونستطيع أن
نتخذ كتاب قصص لما فيه من حوادث واقعية ، وأن نتخذ
كتابا فى الأخلاق لما فيه من موعظة حسنة ، ومكافأة قدمت نظير
عمل الخير . وزى مؤلفه يقسمه إلى أبواب وفصول . لجعل قسما
للمكافأة على الحسن أو مكافأة على معروف صنعه ، وختم هذا القسم
ببند عن أفلاطون ، أما القسم الثانى فهو الجزء على ما يدر من
الإساءة ، ثم أردف ذلك بفصل عن ابتلى فصبر ، فكان ثمرة صبره
حسن العقبي . وختم هذا الفصل بطائفة من كلمات مأثورة لبعض
الحكماء من الفرس واليونان ، بما يدل على أن ابن الداية كان يلم ببعض
الآداب الفارسية واليونانية ، ويحفظ كثيرا من كلمات الفرس واليونان
ويستعمل ألفاظا غير عربية فى كتاباته كقوله « ان ديوانيان خالدا ،
بمعنى كتاب الديوان ، ولفظ « تليس » بمعنى الحقيقة ، وهو فى هذا
يشارك غيره من الكتاب والأدباء فقد نقلت الكتب اليونانية

والفارسية إلى العربية ، واستطاع المسلمون أن يعرفوا شيئاً من الآداب والعلوم الأجنبية ، ويمزجوا بين هذه الآداب والعلوم الدخيلة والآداب والعلوم العربية ، فكان كتاب المسلمين يزينون كتاباتهم باقتباس حكم الفرس واليونان ، وهذا ما نراه واضحاً في الكتب العربية أمثال كتب الجاحظ وابن قتيبة وابن الداية وغيرهم .

نرى ابن الداية يبدأ كتابه بالدعاء فيقول « سدد الله فمرك ، وأحسن أمرك ، وكفأك مهمك ، وإذا رجعنا قليلاً إلى كتب الجاحظ في « البيان والتبيين » و « الحيوان » وغيرهما وجدناه يتبع هذه الطريقة في ابتداء الكتب ، وهي أيضاً الطريقة الشائعة عند كتاب العراق في ذلك العصر ، ولعلها نقلت إلى مصر فعرّفها المصريون كغيرها من الفنون التي أخذها المصريون عن العراقيين ، ولكن كان ابن الداية يختلف عن معاصريه من الكتاب . فإنه لم يعتمد السجع ، ومع ذلك فقد كان يتفنن في الكتابة ، حتى جاءت بعض جملة مثالا للاسلوب العربي كقوله « إني سر من أسرار والدي كتمته عن سائر الناس ، أفضي به إليك ، وراك أهلاً لستره عليه فلا تخفر ظنه فيك ^(١) » . وبجانب هذه الجمل المتينة التركيب نجد جملاً ضعيفة غامضة لا تستقيم كتابتها مع قواعد النحو مثل قوله « وكانت أشفق النساء وأضبطهن وأحسنهن تدبيراً فيما تولاه ، ^(٢) بدلاً من « واضبطهن وأحسنهن » ، وقوله « جزاء ما قدمته ما تسمعيه

منى ، (١) بدلاً من « جزاء ما قدمته ما تسمعيه منى » ، على أننا لا نقطع بأن هذا الخطأ وقع من الكاتب نفسه ، وقد يكون من خطأ النساخ ومع هذا فالكتاب هو البقية الباقية من الكتب الأدبية التي ألقت في هذا العصر إذ لم نعر على كتاب كامل غير هذا الكتاب .

* * *

نستطيع أن نقول إن الحياة العلمية بمصر نقلت إليها من العراق وعاشت مصر على ما أنتجه العراقيون أو ما أخرجه المصريون تلاميذ العراقيين ، كما كان للكتب التي تنقل من العراق إلى مصر قيمة خاصة يحدثننا ابن الداية أنه عقب وفاة والده يوسف بن إبراهيم أرسل أحمد بن طولون من يهاجم داره ، ويحضر كل صناديقه عساه يجد شيئاً من كتب العراق (٢) .

ومع أن مصر كانت موطن العلم والعلماء قبل الإسلام ، وفيها اجتمعت ثقافات البلاد المختلفة ، فإننا نجد مصر في هذا العصر الذي تؤرخه لا تعنى بشيء سوى هذه العلوم الدينية الإسلامية . ثم هذه العلوم العربية الخالصة ، من نحو وصرف ورواية الأشعار ، ولم تساهم مصر في العلوم الدخيلة بالقدر الذى ساهم به العراقيون مثلاً ، ولم تنشط في مصر حركة الترجمة كما نشطت في الأقطار الأخرى ، وربما كان للمصريين نصيب في حركة الترجمة وعلى الأخص كتب الطب والكيمياء وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فيما قبل ، كما ترجم في

(١) الكفاة ، ص ٢٠

(٢) الكفاة لابن الداية ، ص ٤٨

مصر التوراة إلى اللغة العبرية ، فقد روى المرحوم جورجى زيدان أن نزاعا نشب في مصر بين طائفتين من طوائف الدين الإسرائيلي هما طائفة الربانية وطائفة القرائين ، فأفادت هذه المجادلات اللغة العبرية ، إذ نرى رجلا من كبار رجال الدين والعلم اليهودى هو سعيد الفيومى الإسرائيلى ينقل من العبرية إلى العبرية كتب موسى الخمس وسفرى أشعيا وأيوب (١) . أما الكتب الفلسفية والمنطقية وغيرها وعلوم الفرس والهند فلم ينشط لها المصريون في هذا العصر بالقدر الذى وجد في العراق ، ولكنها وصلت اليهم بعد أن نقلت إلى العبرية في الأقطار الشرقية ، فتقبلها المصريون بعد ذلك وساعدتهم في العصور التى تلى عصرنا هذا على أن ينبغ بينهم عدد كبير من الكتاب والمفكرين .

الباب الثالث

كتاب الرسائل والانشاء

الفصل الأول

قبل الطولونيين

ظلت مصر - من الفتح الإسلامى إلى أن وليها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ - تحت إمرة وال يعينه الخليفة ، ويساعد هذا الوالى فى تنظيم شئون البلاد عدد غير قليل من الموظفين ، وطبعى أن تكون هناك مكاتبات بين الوالى فى مصر والخليفة فى عاصمة الخلافة ، ولا بد أن تكون هناك مراسلات بين الوالى والموظفين الآخرين فى مصر ، وهذه المكاتبات لم يصلنا شىء منها ، وإن كنا نقول إنها كانت أشبه شىء بأوامر ولوائح يصدرها الخليفة أو الوالى ، وكان يكتب هذه الرسائل فى مصر كتاب الولاية . يقول المقرئى لما كانت مصر إمارة ، كان بهادىوان البريد ، ويقال لمتوليه صاحب البريد ، وإليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدي أصحاب البريد من الكتب ، وهو الذى يطالع بأخبار مصر ، كما كان لبعض أمراء كتاب ينشون عنهم الكتب والرسائل^(١) ولم ينشأ فى مصر بعد ديوان الإنشاء ، ولم يكن ديوان الإنشاء بالديار المصرية فى مدة

الخلفاء ، إذ كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ، ورفعة السلطان ،
ونياحة مصر بل سائر النيابات مضمحلة في جانبها ، والولايات الصادرة
عن النواب في نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من
أبواب الخلافة من الولايات ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر
البراعى على نقله ، ولا تنصرف المهم لتدوينه ، مع تطاول الأيام
وتوالى الليالى ، (١) .

إذن نحن مضطرون إلى أن نمر بهذا العصر الطويل الذى يقدر
بنحو قرنين دون أن نطيل الحديث عن هذه الرسائل التى كتبت إبانها ،
فإن هذه الرسائل فقدت ، ولم يبق منها إلا شيء يسير جداً كذه
المكاتبات التى كانت بين عمرو بن العاص وبين الخليفة عمر بن الخطاب ،
ولكننا مضطرون إلى أن نتحدث عن هذه الرسالة التى يزعم بعض
المؤرخين أن عمرو بن العاص كتبها إلى عمر بن الخطاب ، فقد قيل إن
الخليفة أرسل إلى الوالى يسأله أن يصف مصر بعد أن أتم فتحها ،
فأجاب « ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، يسألنى عن
مصر ، أعلم يا أمير المؤمنين ، أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ،
طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها جبل أعبر ، ورمل أعفر ، يخط
وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة
والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه
ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا ما أصلختم عجاجه ،
وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى

بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق
كأنهن في الخايل ورق الأصائل ، فاذا تكامل في زيادته ، ونكص
على عقبيه ، كأول ما بدأ في جريته ، وطأ في درته ، فعند ذلك تخرج
أهل ملة محفورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون بطون الأرض ، ويبدرون
بها الحب ، ويرجون بذلك النباء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ،
فنالهم منهم بغير جدهم ، فاذا أصدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى ،
وغذاه من تحته الثرى ، فينما مصر — يا أمير المؤمنين — لؤلؤة
بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فاذا هي زمردة خضراء ، فاذا هي ديباجة
رقشاء ، فبارك الله الخلاق لما يشاء ؛ والذي يصلح هذه البلاد وينمها ،
ويقر قاطنيها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يستأدى
خراج ثمرة إلا في أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها
وترعها ، فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال ، تضاعف
لارتفاع المال ، واهه تعالى يوفق في المبدأ والمآل ، ^(١) .

ثم نجد المؤرخين يقولون إنه لما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب
قال : « الله درك يا ابن العاص ! لقد وصفت لي خبراً كأنني أشاهده ، ^(٢)
هذا ما يقوله المؤرخون والأدباء . ولكننا نشك في نسبة هذا
الخطاب إلى عمرو بن العاص ، لأننا إذا قارنا بين هذه الرسالة وبين
مارواه الأدباء والمؤرخون من أحاديث عمرو ، يتبين لنا أنها لم تصدر
عنه ، ثم هناك ناحية فنية خالصة ، ذلك أن كتاب هذا العصر اعتادوا

أن يبدأوا رسائلهم بحمد الله ، أما في هذه الرسالة فشد الكاتب عن هذه القاعدة ، ولم يحمد الله . ثم نرى كاتب الرسالة يبدؤها بالدعاء لأمير المؤمنين ، وهذا لم نره في رسائل هذا العصر أيضا ، بل جاء الدعاء للخليفة في الرسائل متأخرا جدا ، وقد رأينا هذه الرسالة تشتمل على فقرات قصيرة مسجوعة ، يظهر فيها أثر الصنعة الفنية ، التي لم يعرفها العرب في صدر الإسلام أو أيام الأمويين ، بل جاءت نتيجة لتطور الحياة العسكرية عند العرب ، وامتزاجهم بغيرهم من الشعوب الأخرى فاختلقت الكتابة العربية بدخول الثقافات الأجنبية في العربية .

حقيقة عرف عمرو بن العاص بالفصاحة والذكاء ، حتى أن عمر ابن الخطاب كان إذا رأى رجلا يتلجلج في كلامه يقول « خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد » (١) ولكن هذا كله لا يجعلنا نقول إن عمرا هو الذي كتب هذه الرسالة ، ولعل أسطح دليل نستطيع أن نقدمه لتدعيم حجتنا ، هو أن نورد صورة خطاب يقول ابن عبدربه في العقد الفريد (٢) إن عمرا أرسله إلى الخليفة عمر بن الخطاب وهذا نصه :

« من عمرو بن العاص إلى عبد الله ، أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا ، وأنه يعرفني قبل ذلك لا مال ، وأني أعلم أمير المؤمنين أني بأرض السعر فيه رخيص ، وإني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله وفي رزق أمير المؤمنين سعة ، والله لو رأيت خياتك حلالا ما خنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحسابا هي خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها . ولعمري إن

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٦٤ (٢) ج ١ ، ص ٢٦

عندك من تنم معيشته ، ولا تنم له ، فأنى كان ذلك ولم يفتح قفلك
ولم تشركك في عملك .

من هذا الخطاب نستطيع أن نلص الفرق بين كتابته وكتابة
الخطاب الأول ، مما يجعلنا نرجح أن الخطاب الوصفى لم يكتبه عمرو
ابن العاص .

ويزعم بعض المؤرخين أن ديوان الإنشاء والرسائل وجد في
مصر منذ أن أنشئ بها الديوان أى منذ الفتح العربى ، وأن هذا الديوان
كان يكتب بالقبطية ثم نقل إلى العربية ، ومن يدعى ذلك لم يدرك تماماً
ماهية هذا الديوان الذى أنشئ في مصر منذ الفتح ، كما أنشئ في غير
مصر من الأقطار الإسلامية . هناك فرق بين كتابة الدواوين وكتابة
الرسائل ، فالدواوين ماهى إلا ضرب من ضروب الحساب ، وثبت يكتب
فيه أسماء القبائل والعشائر والبطون ، وما يخص كل فرد من الفئ ، لهذا
لا نستطيع أن نتخذ هذه السجلات كتابة فنية يتعمدها الكاتب ويزينها ،
ويظهر فيها صنعة الفنية ، فإن كتابة الديوان لا تحتاج إلى شيء من ذلك
وقل عن كتاب الخراج وكتاب المقياس ما قلناه عن كتاب
ديوان الجند .

الفصل الثاني

ديوان الانشاء في العصر الطولوني والاشيدي

كان للطولونيين مطامع سياسية واسعة ، عملوا على تحقيقها ، حتى أدركوا شطرا منها فاتسعت بذلك دائرة أعمالهم ، واضطروا إلى أن يصطنعوا عددا كبيرا من الكتاب يساعدونهم في القيام بهذا العبء الثقيل ، لهذا اضطروا الطولونيون إلى أن يؤسسوا ديوان الانشاء بمصر « فأحمد (يعني أحمد بن طولون) أول من أخذ في ترتيب الملك ، وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ولما شمع سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ في ترتيب ديوان الانشاء ، لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات » (١) .

وأول من تولى ديوان الانشاء بمصر هو أبو جعفر محمد بن أحمد ابن مودود المعروف بابن عبدكان ، لم يصلنا عن حياة هذا الرجل شيء ، وكل الذين ذكروه اكتفوا بمدحه وذكر كفايته ، فابن النديم يقول « كان بليغا مترسلا فصيحاً » (٢) ويقول القلقشندي « كان ممن شتهر من كتابهم (أي كتاب الطولونيين) بالبلاغة وحسن الكتابة أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود ابن عبدكان كاتب أحمد بن طولون

(١) صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٢٨ (٢) القهرست ، ص ١٩٧

وكان مبدأ الكتاب المشهورين بها ، ^(١) وفي مكان آخر يقول « واستكتب ابن عبدكان ، فأقام منار ديوان الانشاء ، ورفع مقداره ، ^(٢) .

إذن تكاد تجمع النصوص التي وصلتنا عن ابن عبدكان أنه كان ماهرا في صناعته ، بليغا في كتابته ، حتى أن القلقشندی روى أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبدكان ، يعنى كاتب الانشاء لابن طولون ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما ، ^(٣) .

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة ، فانه يدل على أن رئيس ديوان الانشاء بمصر في العصر الطولوني كانت له شهرته في فن الانشاء . ولا ندرى من أين استقى ابن عبدكان علومه التي ساعدته على أن يكون زعيم الكتاب في مصر ، ولا ندرى تماما أين نشأ ، ولكننا نستطيع أن نتروك أن رجلا يشغل هذا المنصب الرفيع الذي شغله ابن عبدكان لا بد أن يكون ملبا بثقافة واسعة ، تؤهله لهذا المنصب ، لاسيما وأن الأمير أحمد بن طولون كان على جانب عظيم من العلم ، ولعل ابن عبدكان كان أحد الذين يصدق فيهم قول ابن خلدون « إن صاحب هذه الخطوة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم . وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فإنه معرض للنظر في أصول العلم ، لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب ، والتخلق بالفضائل مع

(١) صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٩٥ (٢) صبح الاعشى ، ج ١٠ ، ص ٢٨

(٣) صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ١٧

ما يضطر إليه في الترسل . وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها،^(١)

ولا أشك أن عدداً كبيراً من الكتاب اطلعوا على رسالة عبد الحميد الكاتب التي وضعها نصيحة للكتاب تعيينهم في مهمتهم فهو يقول عن العلوم التي يجب أن يحيط بها الكاتب «فتنافسوا بامعشر الكتاب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجدوا الخط ، فإنه حلية كتابكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسموا إليه هممكم»^(٢)

لكن هذه العلوم التي تحدث عنها عبد الحميد هي العلوم العربية التي كانت في عصره ، إذ لم توجد بعد العلوم الإسلامية التي سميت بالعلوم الدخيلة التي كانت سبباً في تطور الحياة الأدبية العربية . ففي العصور التي تلت عصر عبد الحميد نجد الكتاب يأخذون بمحفوظات مختلفة من العلوم الأجنبية . التي نقلها المترجمون إلى العربية . وأقبل المسلمون على تفهمها والأخذ منها . فقل أن نجد كاتباً لم يلم بالثقافة الفارسية أو الثقافة اليونانية وظهر أثر هذه الثقافات في الكتابة . ويقول الأستاذ الدكتور طه حسين بك : فالكتابة في العراق وفي الحجاز نشأت عربية خالصة دعت إليها الحاجة . وكان تطورها نتيجة طبيعية لتطور العرب ولتأثر العرب بالفرس واليونان .

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢١٥ (٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢١٦

ولوجود هؤلاء الموالى الذين أخذوا يحظ من علوم بلادهم ولكنهم تعلموا العربية وكتبوا بها فاضطروا إلى أن يدخلوا على العربية كثيراً مما ورثوه عن قوميتهم، ومن تأمل كتاب الدولة العباسية وجدهم جلهم من الموالى،^(١)

أما مصر فكان لها شأن آخر فقد كانت يونانية العلم قبل الإسلام وانتشر بها الأدب اليونانى ، والفلسفة اليونانية ، ولا أشك أن هذه الدراسات تركت أثراً قوياً فى العقلية المصرية ظل عدة قرون ، فاستقر بمصر ولا يمكن أن يمحى إلا مع الزمن الطويل قد لا نجد بين المصريين من نقل من كتب اليونان الفلسفية ما نقله غيرهم ، ولم تلق كتب الفلسفة فى مصر الإسلامية الإقبال الذى كان فى غير مصر ، ولكن المصريين منذ عهد البطالسة كانوا يذكرون الأدب اليونانى بما فيه من شعر ونثر وقصص ، والفلسفة اليونانية بما فيها من طبيعيات وإلهيات ، وعن اليونان أخذ المصريون نظم الكتابة ، وعن المصريين أخذ العرب الذين استقروا بمصر ، فإذا كان بعض كتاب العراق تأثر بالفارسية وبعضهم تأثر باليونانية ، فكذلك مصر لم يتزودوا من الثقافة الفارسية إلا من كان منهم من العراق أو فارسى النشأة ووفد على مصر بعد تمام تكوينه .

وكانت مصر الإسلامية تسير نحو الأخذ بحظ وافر من العلوم فازداد عدد المشتغلين بها يوماً بعد يوم ، فكان ذلك من الأسباب التى وجهت الكتابة ربة فى مصر إلى ناحية خاصة ، هى الناحية الفنية التى يتكلفها الكاتب ، ويعتمد تجميلها وزخرفتها ، وهذا ما نراه

(١) محاضرات الأستاذ الدكتور طه حسين بك سنة ١٩٣١ فى النثر العربى

عند الكتاب الذين نراهم في العصر الطولوني وما بعده ، كما كان ذلك سبباً في أن كتاب مصر في هذا العصر كانوا يشبهون في كثير من الأحوال كتاب العراق الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، فرسائل ابن عبدكان مثلاً كانت تشبه رسائل العراقيين ، لهذا تستطيع أن تلبس التغير الواضح في هذه الرسائل التي كتبها ابن عبدكان عن هذه الرسائل القديمة التي كتبت في صدر الإسلام ، فإنك تجد في كتابة ابن عبدكان شيئاً من الفن الذي يحدث لذة عند القراء وعند السامعين لن تجدهما في كتابة المتقدمين التي لم تكتب إلا لتؤدي معنى خاصاً دون مراعاة تنسيق اللفظ .

قسم ابن عبدكان رسائله إلى أجزاء أو فصول ، مثله في ذلك مثل تلاميذ مدرسة الجاحظ من كتاب العراق الذين تأثروا بالثقافة اليونانية . كذلك يتفق الجاحظ وابن عبدكان في أن كتابتهما تميل دائماً إلى الإطناب والتطويل ، ولكنه ليس إطناباً عملاً ثقيلاً ، بل هو فن وقدره على الكتابة ، كما كان ابن عبدكان يدخل الدعاء حشواً معترضاً في كلامه ، ويتوجه إلى المخاطب بصيغة المفرد دائماً أما جملة فقصيرة يزينها بالسجع غالباً ، فهو يطنب في اللفظ ويكرر المعنى ويقتبس من القرآن الكريم ويكثر من التشبيهات والمحسنات اللفظية . ففي الخطاب الذي كتبه ابن عبدكان عن أحمد بن طولون إلى العباس بن أحمد بن طولون — حين ثار على أبيه — تتجلى صورة الكتابة العربية السليمة ، التي تأثرت بما كان في مصر من آثار الثقافة اليونانية وآثار الثقافة الأجنبية التي نقلت إلى العربية وهذا نص الخطاب :

من احمد بن طولون مولى أمير المؤمنين ، إلى الظالم لنفسه ،
العاصى لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسبه العادى لطوره ، الجاهل
لقبره ، الناكس على عقبه ، المركوس^(١) فى فتنه ، المنجوس من
حظ دنياه وآخرته . سلام على كل منيب مستجيب ، تائب من
قريب ، قبل الأخذ بالكظم ، وحلول القوت والندم ، وأحمد الله
الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء بالجميل ، والطول بالجليل ،
وأسأله مسألة مخلص فى رجائه ، مجتهد فى دعائه ، أن يصلى على محمد
المصطفى ، وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبي ، صلى الله عليه وسلم
(أما بعد) فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقربها ، والنحلة
يكون حثفها فى جناحها ، وستعلم هيلتك^(٢) الهوايل ، أيها اللاحق
الجاهل ، الذى ثنى على النى عطفه ، واغتر بضجاج المواكب خلفه ،
أى مودة هلكة ياذن الله توردت ، إذ على الله عز وجل ، تمرت
وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلاً قرية كانت
آمنة مطمئنة ، يأتيا رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله
فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وإنا كنا نقربك
إلينا ، وننسبك إلى بيوتنا ، طمعاً فى إنايتك ، وتأميلاً لفيتنتك فلما
طال فى النى إنيهماكك ، وفى غمرة الجهل ارتبأكك ، ولم نر الموعظة
تلين كيدك ، ولا التذكير يقيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلاً ، ولا
لإضافتك إلينا موضعاً ومحللاً ، بل لا نكنى بأبى العباس إلا تكرهاً
وطمعاً بأن يهب الله عنك خلفاً نقلبه اسمك ، ونكنى به دونك ،
ونعندك كنت نسياً منسياً ، ولم تك شيئاً مقضياً ، فانظر — ولا نظر

(١) الركن هو رد النى . مقلوبا وقلب أوله على آخره . (٢) هيلته نكلكته

بك - الى غار نسبته تقلدت ، وسخط من قبلنا تعرضت ، واعلم
أن البلاء ياذن الله قد أظلك ، والمكروه إن شاء الله قد أحاط بك ،
والعسا كر بحمد الله قد أتتك كالسيل في الليل ، تؤذن بحرب وبويل ،
فإننا نقسم - ونرجو أن لا نجور ونظلم - أن لا نثني عنك عناناً ،
ولا نؤثر على شأنك شأنأ ، ولا تتوكل ذروة جبل ، ولا تلج بطن
واد إلا جعلناك بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أمتت منهما
منفقين فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسبيك كل خطب جليل ،
حتى تستمر من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما
استدعيت حين لا دافع بحول الله عنك ، ولا مزحزح لنا عن
ساحتك ، وتعرف من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هبلت ،
ولم تكن بالمعصية عجلت ولا رأى من أضلك من غواتك قبلت
خيتئذ يتفسرئ بك الليل عن صبحه ، ويسفر لك الحق عن محضه ،
فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما ، وتسمع بأذنين لا وقر فيهما ، وتعلم
أنك كنت متمسكاً بجبال غرور ، متبادياً في مقابح أمور ، من عقوق
لا ينال طالبه ، وبغى لا ينجو هاربه ، وعذر لا ينتعش صريعه ،
وكفران لا يودى قتيله ، وتقف على سوء رويتك ، وعظم
جريرتك في تركك قبول الأمان ، إذ هو لك مبذول وأنت عليه
محمول ، وإذ السيف عنك مغمود ، وباب التوبة اليك مفتوح ،
وتتلف والتلف غير نافعك ، إلا أن تكون أجبت اليه مسرعاً ،
وأفقدت اليه منتصحاً .

وإن عما زاد في ذنوبك عندي ، ما ورد به كتابك على بعد
نفوذى على الفسطاط من التوبيهات والآعليل ، والعدا بالآباطيل ،
من مصيرك بزعمك الى إصلاح ما ذكرت أنه فسد على ، حتى ملت

الى الاسكندرية ، فأقمت بها طول هذه المدة ، واستظهاراً عليك بالحجة ، وقطعاً لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الأناة غير صادة ، ولا أنه خالجنى شك ، ولا عارضنى ريب ، فى أنك أردت النزوح والاحتياى للهرب ، والنزوح الى بعض المواضع التى لعل قصدك إياها يوديك ، ولعل مصيرك اليها يكفينيك ، ويبلغ إلى أكثر من الإرادة فيك ، لأنك إن شاء الله لا تقصد موضعاً إلا تلوتك ، ولا تأتى بلداً إلا قفوتك ، ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله عز وجل فى جد حباها ، وفهم عروتها ، فإن أحداً لا يؤوى مثلك ، ولا ينصره إلا لأحد أمرين من دين أو دنيا ، فأما الدين : فأنت خارج من جملة لمقامك على العقوق ، ومخالفة ربك وإسقاطه . وأما الدنيا فما أراه بقى معك من الحطام الذى سرقته وحملت نفسك على الإيثابه ، ما يتبأ لك مكائرتنا بمثله ، مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التى نستودعه تبارك وتعالى إياها ، وزغب اليه فى إنمائها ، الى ما أنت مقيم عليه من البغى الذى هو صارعك ، والعقوق الذى هو طالبك .

وأما ما منيتناه من مصيرك إلنا فى حشودك وجموعك ، ومن دخل فى طاعتك لإصلاح عملنا ومكافأة أعدائنا بأمر أظهروا فيه الشماتة بنا ، فما كان إلا بسبيك ، فأصلح أيها الصبي الآخرق أمر نفسك قبل إصلاحك عملنا ، واحزم فى أمرك قبل استعمالك الحزم لنا ، فما أحوجننا الله وله الحمد الى نصرتك ومؤازرتك ، ولا اضطررنا الى التكثر بك على شقاقك ومعصيتك ، وما كنت متخذ المضلين عضداً ،

وليت شعري على من تهول بالجنود ، وتمخرق بذكر الجيوش ،
ومن هؤلاء المستخرون لك ، الباذلون "دعائهم وأموالهم وأديانهم
دونك بدون رزق ترزقهم إياه ، ولا عطاء تدره عليهم ، فقد
علمت - إن كان لك تمييز ، أو عندك تحصيل - كيف كانت حالك
في الواقعة التي كانت بناحية أطرابلس ، وكيف خذلك أولياؤك
والمرتزقة معك حتى هزمت ، فكيف تغتر بمن معك من الجنود الذين
لا اسم لهم معك ، ولا رزق لهم على يديك ؟ فإن كان يدعوهم إلى
نصرتك هيبتك والمداراة لك والخوف من سلطانك ، فانهم ليجذبهم
أضعاف ذلك منا ، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل
عندنا ما لا يجدونه عندك ، وإنهم لأحرى بخذلك ، والميل إلينا
نونك ، ولو كانوا جميعا معك ، ومقيمين على نصرتك لرجونا أن
مكننا الله منك ومنهم ، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم ، ويجرينا
من عادته في النصر وإعزاز الأمر على ما لم يزل يتفضل علينا بأمثاله ،
يتطول بأشباهه . فما دعاني إلى الإرجاء لك ، والتسهيل من خناقك ،
الإطالة من عنانك ، طول هذه المدة إلا أمران : أغلبهما كان على
حقنار أمرك واستصغاره ، وقلة الاحتفال والاكتراث به ، وإنني
قتصرت من عقوبتك على ما أخلقته بنفسك من الأباقي إلى أقاصي
بلاد المغرب شريداً عن منزلك وبلدك ، فريداً من أهلك وولدك .
الآخر : أني علمت أن الوحشة دعيتك إلى الانحياز إلى حيث انحزت
يه ، فاردت التسكين من نفارك ، والطمأنينة من جأشك ، وعملت
بلى أنك تحن إلينا حنين الولد ، وتتوق إلى قربنا توقان ذى الرحم
النسب ، فإن في رفقتنا بك ما يعطفك إلينا ، وفي تأخينا إياك ما يردك

علينا ، ولم يسمع منا سامع في خلاء ولا ملاء انتقاصاً بك ، ولا
غضاً منك ، ولا قدحاً فيك ، رقة عليك واستهماً أليد عندك ، وتأميلاً
لأن تكون الراجع من تلقاء نفسك ، والموفق بذلك لرشدك
وحظك ، فأما الآن مع اضطرارك إياي الى ما اضطررتي اليه من
الانزعاج نحوك ، وحبسك رسلي النافذين بعهد كثير الى ما قبلك ،
واستعمالك المواربة والخداع فيما يجرى عليه تديرك ، فما أنت
بموضع للصيانة ، ولا أهل للابقاء والمحافظة ، بل اللعنة عليك حالة
والذمة منك بريئة ، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق
والقطيعة ، والإضاعة لرحم الأبوة ، فعليك من ولد عاق شاق
لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ، ولا قبل الله لك
صرفاً ولا عدلاً ، ولا ترك لك منقلباً ترجع اليه ، وخذلك خذلان
من لا يؤبه له ، وأثكلك ولا أمهلك ، ولا حاطك ولا حفظك ،
فوالله لأستعملن لعنك في دبر كل صلاة ، والدعاء عليك في آناه
الليل والنهار ، والغدو والآصال ، ولأكتبن الى مصر وأجناد
الشامات والثغور ، وقنسرين والعواصم والجزيرة والحجاز ومكة
والمدينة كتباً تقرأ على منابرنا فيك باللعن لك ، والبراءة منك ،
والدلالة على عقوقك وقطيعتك يتناقلها آخر عن أول ، ويأثرها
غابر عن ماض ، ويخلد في بطون الصحائف ، ويحملها الركبان ،
ويتحدث بها الآفاق ، وتلحق بك وبأعقابك عاراً ما اطرده الليل
والنهار ، واختلف الظلام والأنوار . فحيث تعلم — أيها المخالف
أمر أيه ، القاطع رحمه ، العاصي ربه — ، أى جناية على نفسك
جنيت ، وأى كبيرة اقترفت واجتيت ، وتمنيت لو كان فيك مسكة

أوفيك فضل إنسانية ، إنك لم تكن ولدت ، ولا في الخلق عرفت
إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع إلى ماقبلنا ، غاضعاً ذليلاً كما
يلزمك فنقيم الاستغفار مقام اللعنة ، والرقعة مقام الغلظة والسلام من
سمع الموعظة فوعاها ، وذكر الله فاتقاه ، إن شاء الله تعالى (١) .

* * *

ونجد في رسائل المصريين شيئاً جديداً لم نعهده عند القدماء وكان
له نظير عند كتاب العراق منذ القرن الثالث الهجري ، ذلك أن
المصريين كانوا يفتتحون رسائلهم بالدعاء غالباً ، فدعاء بصلاح الدنيا
وغبطة الآخرة ، أو الدعاء بكبت العدو ، أو بطيب الحياة إلى غير ذلك
من الأمور التي تتنوع بتنوع حال المرسل إليه ، كقول أحد الكتاب
المصريين داعياً : « أطال الله بقاءك في إطالته حياة الأنام ، وأنس
الأيام والليالي ، وأدام عزك ، في إدامته دوام الشرف ونمو المعالي ،
وأتم نعمته عليك ، فانها نعمة حلت محل الاستحقاق ، ونزلت منزلة
الاستيجاب ، ووقفت على من لا تكون الآلاء مكانه ولا تنسرك
الفواضل محله . . . الخ » (٢)

وقد نجد بعض الكتاب يكتب مطر حال الدعاء بدوام النعمة لتقديدها
بموجباتها ، كقول أحد الكتاب : « قد كفى الله عز وجل مؤنة الدعاء
لنعمته بالثناء ، لأنها توخت لديك محلها ، خلّت بفنائك سارة ، مطمئنة
قارة ، تستوثر مهادها قبلك ، وتستثنى مواردها عندك ، ولم تزل
تائقة إليك ، متطلعة نحوك ، بما استجمع لها من لطيف السيامة ،
وحسن الاحتمال لأعباء المغارم ، فهناكها الله متصلة البقاء ، بطول

(١) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٥ وما بعدها

(٢) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١٦٠

مدة بقاءك ، ومتحلية بحسن فنائك ، فلا زلت لعوارف النعم مستدعياً ،
وللشكر بالزيادة فيها ممترياً ، وبدوام الحمد لردفها مستمراً ،^(١)
وقد لا نجد هذا ولا ذاك ، إذ يهجم بعض الكتاب على موضوعه
دفعاً واحدة ، ويكتب رسائله مفتحاً بقوله « كتابي إليك » أو
« كتبت إليك » .

أما في إجابة هذه الخطابات فقرأهم يتدثرون بقولهم « وصل كتابك »
ويحتسمون بقولهم « إن رأيت أن تفعل كذا وكذا » أو « فأريك في
كذا وكذا » وقد أفرد القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » باباً عن
هذه المكاتبات التي كانت بين الأصدقاء أيام الطولونيين أو ما قاربها
وقد أتى بصور كثير من الفنون المختلفة التي ذكرنا بعضها^(٢)

ومن المكاتبات التي هي من خصائص مصر ، المكاتبة بالبشارة
بوفاء النيل ، والبشارة في الركوب بفتح الخليج . ولا يشارك مصري
ذلك غيرها من الممالك ولا يزال القائمون بالأمر في مصر من قديم
الزمان يكتبون بذلك إلى ولاية الأعمال^(٣) ، ولكن لم يصلنا شيء
من المكاتبات التي صدرت في العصر الذي نؤرخه عن ذلك .

ظهر عدد كبير من الكتاب أيام الطولونيين أمثال الحسن بن رافع
ويعقوب بن اسحق كاتب موسى بن طولون ، وكان هذا الكاتب
فيما يقال يعرف زيج السندهند ، وعنده علم بالنجوم^(٤) ، وجعفر بن
عبد الغفار المصري ، وأحمد بن أيمن وكان كاتباً للعباس بن خاله
البرمكي في حياته^(٥) وكثير غيرهم ، وقد ذكر ابن الداية بعضهم في

(١) صبح الأعشى ، ج ٨ ص ١٦١ (٢) صبح الأعشى ، ج ٨ ص ١٦٠ — ١٦٦

(٣) صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٣٢٨ (٤) سيرة ابن طولون لابن الداية ، ص ١٤

(٥) المكافأة ص ١٤

كتابه المكافأة . لم يكن هؤلاء الكتاب جميعهم من مصر بل كان أغلبهم من العراق فأبو يوسف يعقوب بن اسحق كان من سر من رأى ، وابن الداية أصله من بغداد ، والحسين بن مهاجر كان من الرقة (١) ولكن كان ابن طولون يفضل أن يتخذ كتابه من المصريين مع قصورهم عن العراقيين ، فقد قيل إن ابن طولون استكتب جعفر بن عبد الغفار المصرى ، ولكن هذا الكاتب لم يستطع أن يؤدي عمله كما يجب ، ومع ذلك احتمله ابن طولون ، وقد سأله صديقه أحمد بن خاقان عن السر في ذلك فقال له الأمير « أنا أحتمله لأنه مصرى ؟ » فقال ابن خاقان « أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادي ؟ » قال « لا والله ، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع له في ذلك البلد أمور صالحة ، منها أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته في ذلك البلد ، فيعود مرفقه على فريق من أهله ، ومنها رغبته في اعتقاد المستغلات به ، فيكون صفافا لجناياته ، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون في خدمتي ، والكاتب العراقي ليس كذلك ، لأنه يعتقد المستغلات في بلده النائي عنه وعنى ، وهو في كل وقت متطاع إلى بلده ، فهذا السبب زهدت في كتاب سر من رأى ، مع على بتقدمهم في الكتابة والرجاحة (٢) .

وكان للكتاب في مصر في هذا العصر شأن كبير فيما جرى من حوادث ، وقد رأينا الكتاب الذين كانوا حول العباس بن أحمد

(١) المغرب في حلى المغرب ، ص ٣٠ ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية

(٢) سيرة ابن طولون ص ١٠

ابن طولون من أمثال جعفر بن جدار، وأحمد بن المؤمل، ومحمد بن سهل المتوفى، كانوا سبياً في قيام العباس ضد أبيه، كما كانوا سبياً في هزيمة، لأنهم لم يكونوا من رجال السيف ولا من رجال السياسة (١).
أما الذي تولى ديوان الانشاء في عهد خماروية، فهو علي بن أحمد المادرائي (٢) ولكن هذا الكاتب لم يوفق إلى إرضاء خماروية، فتولاها إسحق بن نصير العبادي (٣)، ومحدثا ياقوت أن «إسحق بن نصير الكاتب البغدادى كان كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عبدكان» (٤) ثم يروى عن ابن زولاق «وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله ابن عبدكان على المكاتبات والرسائل منذ أيام أحمد بن طولون، ومكاتباته وأجوبته موجودة إلى أن قدم عليه أبو يعقوب إسحق بن نصير البغدادى من العراق، والتبس التصرف، فقال له ابن عبدكان فيم تتصرف؟ فقال: في المكاتبات والأجوبة والترسل؛ وكان بين يدي أبي جعفر كتب قد وردت، فقال له: خذ هذه وأجب عليها. فأخذها ومضى إلى ناحية من الدار، فأجاب عنها، ثم وضع خفه تحت رأسه ونام، وقام أبو جعفر إلى الحجر التي له فاجتاز به، والكتب بين يديه، فأخذها وقرأها، فلما تأملها جعل يروح إسحق بن نصير حتى اتقه، فقال له: عمن أخذت الكتبة؟ وأجرى عليه أربعين ديناراً في كل شهر، فلم يزل مع أبي جعفر، إلى أن توفي أبو جعفر وانفرد بالأمور على بن أحمد المادرائي، فقال لإسحق: إلزم منزلك وانصرف فوردت

(١) سيرة ابن طولون ص ٥٨ (٢) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٣٧

(٣) المغرب في حلى المغرب ج ٣ طوطا بدار الكتب، ج ٤ ص ١٤ طبعة ليدن

(٤) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٣٧

سب فأجاب عنها على بن أحمد ودخل على أبي الجيش خمارويه ،
فرضها عليه ، فقال له : ما هذه الألفاظ التي تخرج عنى . فضى على
ابن أحمد وعاد إليه فما أراد أبو الجيش الجواب والاستزادة ، فخرج
على بن أحمد وقال : هاتوا إسحق بن نصير فجىء به ، فقال : أجب عن
هذه . فأجاب ، ودخل على بن أحمد على أبي الجيش فقراً الأجوبة ،
فقال : نعم هذا الذى أعرف إيش الخبر؟ فقال له : كاتب كان مع أبى
جعفر فاعتل وأحضرته الساعة . فقال هاته ؟ فأحضره ، فقال : كم
رزقك ؟ قال : أربعون ديناراً ، فقال لعلى بن أحمد : اجعلها له أبعائة
فى الشهر ، وقال لإسحق لا تفارق حضرتى . فكث إسحق حتى صار
رزقه ألف دينار فى الشهر ، فكان يهود بذلك ، ويفضل به على الناس
وأرسل إلى بغداد إلى ثلاثة أنفس ، إلى أبى العباس المبرد ، وأبى العباس
ثعلب ، وإلى وراق كان يجلس عنده ، دفعة واحدة ثلاثة آلاف دينار لكل
واحد منهم ألف دينار وتوفى هذا السكاتب سنة ٢٩٧ هـ (١) .

وإذا نظرنا إلى كتاب الرسائل فى العصر الفاطمى نراهم يسرون
نهج ابن عبدكان ويتبعون أثره فى الكتابة ، فابن عبدكان هو
مؤسس مدرسة الرسائل فى مصر وهى المدرسة التى تنسب خطأ إلى
القاضى الفاضل ، وسنتحدث عن ذلك بشئ من الإسهاب فى
كتابنا . . فى أدب مصر الفاطمية .

وكان إبراهيم بن عبدالله بن محمد النجيرمى زعيم كتاب الاخشيدىين
وكان هذا السكاتب نحوياً كلفاً بالعلوم العربية الخالصة ، أخذ النحو

عن الزواج (١) وأخذ عنه بعض المصريين أمثال أبي الحسين المهلبى وجنادة اللغوى وغيرهما (٢) فكان لدراسته هذه أثر فى كتاباته ، ومن إنشائه الخطاب الذى أرسله الاخشيذ إلى المانوس ملك الروم ، وكان قد ورد على الاخشيذ كتاب منه ، يفخر فيه ، ويزعم أن له المنة عليه فلما قرىء هذا الخطاب على الاخشيذ ، طلب من كتابه أن يجيبوه ، فأجاب عنه جماعة فلم يختار إلا جواب إبراهيم النجيرى ، وكان عالماً بوجوه الكتابة (٣)

وبما جاء فى هذا الخطاب « من محمد بن طنج مولى أمير المؤمنين ، إلى المانوس (٤) عظيم الروم ومن يليه : سلام بقدر ما أتم له مستحقون فانا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، (أما بعد) فقد ترجم لنا كتابك ، الوارد مع نقولا وإسحق رسوليك ، فوجدناه مفتحاً بذكر فضيلة الرحمة ، وما نما عنا إليك ، وعن شبننا فيها إليك ، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء ، والتوصل إلى تخلص الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فمن سيدد القول الذى يليق بذوى الفضل والتبلى ، ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون ،

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .

(٢) بقية الوعاة للسيوطى ص ١٨١ ، معجم الأدباء ج ١ ص ٢٧٨ .

(٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٤ ص ١٨ طبع ليدن

(٤) هكذا فى المغرب وفى صبح الأعشى ج ٧ ص ١١ جاء إلى (ارمانىوس)

وهو الأبراطور رومانوس لوكاينوس Romanus Lucapenus الذى ولى عام

٩١٩ م إلى عام ٩٤٤ م

ولإيه راغبون وعليه باعثون وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون ، وبه متواصلون وعاملون ، وإياه نسأل التوفيق لمرشد الأمور ، وجوامع المصالح بمنه وقدرته .

وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة . فانا نرغب إلى الله جل وعلا الذى تفرد بكمال هذه الفضيلة ، ووهبها لأوليائه ، ثم أثابهم عليها ، أن يوفقنا لها ، ويجعلنا من أهلها ، ويسرنا للاجتهاد فيها والاعتصام من زيغ الهوى عنها ، وعرة القسوة بها ، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته ، وموجبات مرضاته حتى نكون أهلاً لما وصفتنا به ، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه ، وبمن يستحق الزلفى من الله تعالى فانا فقراء إلى رحمته ، وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا ، وحمله من جسيم الأمر ما حملنا ، وجمع له من سعة المال ما جمع لنا ، بمولانا أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يبتهل إلى الله تعالى فى معونته لذلك ، وتوفيقه وإرشاده ، فان ذلك إليه ويده ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . وأما ما وصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هودون الخليفة فى المكاتبه لما يقتضيه عظم ملككم ، وأنه الملك القديم الموهوب من الله الباقي على الدهر وإنك إنما خصصتنا بالمكاتبه لما تحققت من حالنا عندك ، فان ذلك لو كان حقاً كانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تسكته ، وكان لك فى ترك مكاتبتنا غم ورشد ، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ولا يراه وصمة ، ولا نقیصة ، ولا عيباً ، ولا يقع فى معاناة صغيرة من

الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار ، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته
والذى تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته فهو أمر سهل يسير ،
لأمر عظيم خطير ، وجل نفعه وصلاحه وعائده تخصكم ، لأن مذهبتنا
انتظار إحدى الحسينين ، فمن كان منا فى أيديكم فهو على بينة من ربه
وعزيمة صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسيله . وإن فى الأسارى
من يؤثر مكانه من ضنك الأسر رشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها
لحسن منقلبه ، وحמיד عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن
يفتنه ، ولم يعذه من أن يبتليه . هذا إلى أوامر الانجيل الذى هو
إمامكم ، وما توجه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل إلى استنقاذ
أسرائكم ، ولولا أن إيضاح القول فى الصواب ، أولى بنا من المساحة
فى الجواب ، لأضربنا عن ذلك صفحا ، إذ رأينا أن نفس السبب
الذى من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم ، أو
عدا عنهم إلى من حل محلنا فى دولتهم ، بل إلى من نزل عن مرتبتنا ،
هو أنه لم يثق من منعه ، ورد ملتصقه بمن جاوره ، فرأى أن يقصد
به الخلفاء الذين الشرف كله فى إجابتهم ، ولا عار على أحد وإن
جل قدره فى ردهم ، ومن وثق فى نفسه بمن جاوره ، وجد قصده أسهل
السييلين عليه ، وأدناها إلى إرادته ، حسب ما تقدم لها من تقدم ، وكذلك
كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ، ولم يقرب من منزلتنا فما لكتنا
عدة ، كان يتقلد فى سالف الدهر كل ملكة منها ملك عظيم الشأن .
فنها ملك مصر الذى أظفى فرعون على خطر أمره ، حتى ادعى الألوهية ،
وافتخر على نبي الله موسى بذلك . ومنها مالك اليمن التى كانت للتبابعة ،

والاقيال العباهاة : ملوك حمير ، على عظم شأنهم وكثرة عددهم . ومنها
أجناد الشام : التي منها جند حمص ، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم
ومن قبله من عظمائها ، ومنها جند دمشق على جلالته في القديم والحديث ،
واختيار الملوك المتقدمين له ، ومنها جند الأردن على جلالة قدره ، وأنه
دار المسيح صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والخواريين . ومنها
جند فلسطين وهي الأرض المقدسة ، وبها المسجد الأقصى ، وكرمي
النصرانية ، ومعتمد غيرها ، ومحج النصارى واليهود طرا ، ومقدادود
وسليمان ومسجدهما ، وبها مسجد إبراهيم وقبره وقبر إسحق ويعقوب
ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام ، وبها مولد المسيح وأمه
وقبرها . هذا إلى ما تنقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة
والدلالات الظاهرة ، فإننا لو لم تنقلد غيرها لسكانت بشرها وعظم
قدرها وما حوت من الفضل توفى على كل ملكة لأنها محج آدم ومحج
إبراهيم وارثه ومهاجرة ، ومحج سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقتلهم عليهم
السلام ، وداره ^(١) وقبره . ومنبت ولده ، ومحج العرب على مر الحقب ،
ومحل أشرافها . وذوى أخطارها على عظم شأنهم ، ونفامة أمرهم ،
وهو البيت العتيق المحرم ، المحجوج إليه من كل فج عميق ، الذي يعرف
بفضله وقدمه أهل الشرف من مضي ومن خلف ، وهو البيت المعمور ،
وله الفضل المشهور .

ومنها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم المقدسة بترته ، وأنها مبط
الوحي ، ويضمنة هذا الدين المستقيم الذي امتد ظله على البر والبحر ،

(١) ملاحظ هنا أن الضائر لا تستقيم مع ما قبلها مما يدل على أن بعض الجمل
قد سقطت ولم تثبت في نسخ الأعشى ولا في المغرب .

والسهل والوعر ، والشرق والغرب ، وصحارى العرب على بعد أطرافها
وتنازع أقطارها ، وكثرة سكانها فى حاضرتها وباديتها ، وعظمتها فى
وفودها وشدتها ، وصدق بأسها ونجلتها ، وكبر أحلامها ، وبعد
مرامها ، وانقاذ النصر من عند الله براياتها ، وأن الله تعالى أباد خضراء
كسرى ، وشرّد قيصر عن داره وحلّ عزه ومجده بطائفة منها .

هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا ، وتحت أمرنا ونهينا ثلاثة كراسى من
أعظم كراسيكم : بيت المقدس ، وأنطاكية ، والأسكندرية . مع ما إلينا
من البحر وجزائره ، واستظهارنا بآتم العتاد . وإذا وفيت النظر حقه
عليت أن الله تعالى قد أصفانا بجمل الممالك التى يتفتح الأنام بها ،
وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دنيا وآخرة ، وتحقق أن
منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوق كل منزلة ، والحمد لله ولى
كل نعمة .

وسياستنا لهذه الممالك قريبا وبعيدها على عظمها وسعتها بفضل الله
علينا ، وإحسانه إلينا ، ومعوته لنا ، وتوفيقه إيانا ، كما كتبت إلينا ،
وصح عندك من حسن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات
من الأولياء والرعية ، ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها
الأمن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة .

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرأ على نعمه التى تقوت عندنا عدد
العادين ، وإحصاء المجتهدين ونشر النافرين ، وقول القائلين ، وشكر
الشاكرين . ونسأله أن يجعلنا ممن تحدث بنعمته عليه شكراً لها ،
ونشرأ لما منحه الله منها ومن رضى اجتهاده فى شكرها ، ومن أراد
الآخرة وسعى لها سعيها ، وكان سعيه مشكورا إنه حميد مجيد .

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كرمه وأظهره ووعدهنا فى عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقدرة القاهرة ، ثم الفوز الأكبر يوم الدين ، لسكنك سلكك مسلما لم يحز لنا أن نعدل عنه ، وقلت قولاً لم يسعنا التقصير فى جوابه ، ومع هذا فإننا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكائرتك ، ولا اعتمادنا تعيين فضل لنا نعوذ به ، إذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نكرمك عند محلك ومنزلتك ، وما يتصل بهما من حسن سياسك ومذهبك فى الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانك لمن فى يدك من أسرى المسلمين ، وتطفق عليهم ، وتجاوزك فى الإحسان إليهم جميع من تقدمك من سلفك ، ومن كان محموداً فى أمره ، رغب فى محبته ، لأن الخير أهل أن يحب حيث كان . فان كنت إنما تؤهل لمكاتبتك ومماثلتك من اتسعت مملكتك ، وعظمت دولته ، وحسنت سيرته ، فهذه ممالك عظيمة واسعة جمة ، وهى أجل الممالك التى ينتفع بها الأنام ، وسر الأرض المخصوصة بالشرف ، فان الله قد جمع لنا الشرف كله ، والولاء الذى جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مخصوصين بذلك إلى ما لنا بقدينا وحديثنا وموقعنا ، والحمد لله رب العالمين الذى جمع لنا ذلك بمنه وإحسانه ، ومنه نرجو حسن السعى فيما يرضيه بلطفه ، ولم ينظر عنك أمرنا فيما اعتمدناه

وإن كنت تجرى فى المكاتبه على رسم من تقدمك فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك ، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يحمل حملنا ، ولا أغنى غناءنا ، ولا أساس فى الأمور سياستنا ، ولا قلده مولانا

أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلنا ، ولا فوض إليه ما فوض إلينا ،
وقد كتب أبو الجيش خاروية بن أحمد بن طولون ، وآخر من كتب
تكوين مولى أمير المؤمنين ولم يكن تقلد سوى مصر وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيرا أولا وآخر ا على نعمه التي يفوت عندنا عددها
عد العادين ، ونشر الناشرين ، ولم نزد بما ذكرناه المفاخرة ، ولسنا
قصدا بما عددنا من ذلك حالات : أولها ، التحدث بنعمة الله علينا ،
ثم الجواب عما تضمنه كتابك من ذكر المحل والمنزلة في المكاتب ، ولتعلم
قدر ما بسطه الله لنا في هذه المسالك ، وعندنا قوة تامة على المكافأة
على جميل فعلك بالأسارى ، وشكر واف لما توليهم وتوخاه من مسرتهم
إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وفقك الله لمواهب خيرات الدنيا والآخرة
والتوفيق للسداد في الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل
الذي يحبه ويرضاه ويثيب عليه ، ويرفع في الدنيا والآخرة أهله
بمنه ورحمته .

وأما الملك الذي ذكرت أنه باق على الدهر لأنه موهوب لكم من
الله خاصة ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين
وإن الملك كله لله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من
يشاء وينزل من يشاء بيده الخير وإليه المصير ، وهو على كل شيء قدير
وأن الله عز وجل نسخ ملك الملوك وجبرية الجبارين بنبوة محمد صلى الله
عليه وسلم وعلى آله أجمعين ، وشفع نبوته بالإمامة ، وحازها إلى
العترة الطاهرة من العنصر الذي منه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه .
والشجرة التي منها غصنه ، وجعلها خالدة فيهم يتوارثها منهم كابر عن

كابر ، ويلقيها ماض إلى غابر ، حتى أنجز أمر الله وعده ، وبهر نصره
وكلبته ، وأظهر حجبته ، وأضاء عمود الدين بالآئمة المهتدين ، وقطع
دابر الكافرين ليحق الحق ، ويطل الباطل ولو كره المشركون ، حتى
يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ... الخ

ولعلك تلاحظ في هذا الخطاب هذه الصنعة الفنية التي امتاز بها
كتاب الرسائل ، فكثيراً ما كان الكاتب يستعمل التكرار ،
والإسراف في الإطناب ، والإسهاب في المعنى الواحد ، كما نرى هذى
الجلل القصيرة المسجوعة التي تدل على أن الكاتب أجهد نفسه في
الكتابة ، وفي الملاءمة بين المعاني والألفاظ .

وقد أعجب النجيري نفسه بهذا الكتاب ، فنسخ منه نسخاً
وأنفذه إلى البصرة وأعمالها يفتخر به^(١) .

ظل النجيري النحوي يعمل في خدمة الإخشيديين حتى اتصل
بكافور ومدحه ، قيل إن الفضل بن العباس دخل يوماً على كافور
الإخشيدى وأبو إسحق النجيري عنده فقال الفضل : أدام الله أيام
سيدنا الأستاذ . ولحن في كلامه بأن كسر الأيام ، فتبسم كافور ، فأنشد
أبو إسحق على البديهة :

لاغرو أن لحن الداعي لسيدنا	وغص من هيبه بالريق والبحر
فإن يكن خفض الأيام عن دهش	من شدة الخوف لامن قلة البصر
فقد تفاعلت في هذا لسيدنا	والفأل نأثره عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نمب	وأن دولته صفو بلا كدر ^(٢)

وقد أورد له ياقوت في معجم الأدباء بعض الأشعار ، كما نقل
الحصري في زهر الآداب كثيراً من كتاباته وأشعاره .

ونجد الكاتب محمد بن كلا يكتب للإخشيدين أيضاً ^(١) ، ويسفر
بين الإخشييد وبين ابن رائق ، وقد كان هذا الكاتب ثقة الإخشييد
ورسوله إلى العراق ، ومع ذلك كان ممن نكبهم الإخشييد والإخشييد
أول من أقام الراتب ونكب عماله وكتابه ^(٢) ، ، قبض الإخشييد على
ابن كلا آخر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة من الهجرة ، وصادره على
ثلاثمائة ألف دينار وقبض على أهله وصادرهم ، وقبض على جماعة كانوا
في داره وصادرهم أيضاً ، ، ولكن ابن كلا أقسم أن لا يدفع مال المصادرة
أو يلقي الإخشييد ويراه ، فامتنع الإخشييد أولاً ، وأغلظ ابن كلا في
القسم حتى أمر الإخشييد بدخوله عليه ، فمروا به عليلاً يتوكأ على
رجلين - وكان به عرج - فنظر إلى الإخشييد ، وقال : أما أنا فقد
استحييت ، فأطرق الإخشييد ، وتم قبض المصادرة وأطلقه ^(٣) ، ولم
يصلنا عن هذا الكاتب شيء نستطيع أن نعرف قيمة كتابته .

ومهما يكن من شيء فأنت ترى من ذلك كله أن النثر سهل ،
واستطاع الكاتب أن يتصرف كيفاً أحب ، دون أن يجد مشقة
وجهداً ، كما أنا لانجد مشقة في فهم جملة ، بل نجد استقامة في المعنى ،
وخصوبة في هذه المعاني ، مما زاد في جمال الكتابة كما أن الكتاب
استطاعوا أن يعبروا عما في نفوسهم ، وما تجيش به خواطرهم
بسهولة في أسلوب قتي جميل يظهر فيه أثر صنعة الكاتب الفنية ،
وقدرته على الكتابة في ألوان الفنون المختلفة

الباب الرابع

في الشعر

الفصل الأول

من الفتح الاسلامي الى سقوط الدولة الاموية

وجد الشعر العربي بمصر كما وجد في غير هامن الولايات الإسلامية، ولكن الذي وصلنا منه قدر يسير ، لا يكفي لأن نعرف منه خصائص الشعر المصري ، ولا أن نفرق بينه وبين الشعر في الأقطار الأخرى، قد نجد في هذه الآيات القليلة التي وصلتنا بعض المعاني المصرية ، وبعض الحواث المصرية ، التي تفرق الشعر المصري عن الشعر في البلاد الأخرى ويعطيه الصبغة الإقليمية المصرية ، ولكن هذه الآيات أو المقطوعات لا تكشف لأن تدلنا على مدى تأثير الشعر العربي بالبيئة المصرية ، وإن كانت تدلنا على أنه كان بمصر شعر تأثر بالحياة المصرية ، وأن هذا الشعر فقد ، ولم يبق منه إلا مقطوعات قليلة متناثرة في كتب الأدب والتاريخ .

وأرجح أن أسباب ضياع الشعر المصري في هذا العصر هي نفس الأسباب التي جعلت الكتابة الفنية — أي كتابة الرسائل والإنشاء — متأخر في مصر حتى قدوم أحمد بن طولون — ففي عصر الخلفاء

الراشدين وعصر الأمويين والعباسيين كانت مصر ولاية ليس لها شأن
مقر الخلافة ، وإذا نبغ شاعر أو كاتب كان يحمل إلى الخليفة أو يرسل
هو إلى دار الخلافة لينال من العطاء والهبات ما كان يأخذه شعراء
الخليفة ، أضف إلى ذلك عدم اكتراث المصريين في أول الأمر بدراسة
الأدب والعلوم الأدبية ، بل كان جل اهتمامهم يكاد ينصرف إلى
الدراسة الدينية الخاصة ، مما أضعف رواية الشعر ودراسته في مصر ،
وسبب ضياع أكثر شعر المصريين

وإذا أردنا درس تاريخ الشعر في مصر الإسلامية في العصر الذي
تورخه في هذا الكتاب ، فسرى ثلاثة أدوار تطور فيها الشعر المصري
تطوراً يينا .

ففي الدور الأول الذي يتبدى بالفتح إلى سقوط الدولة الأموية
لم يصلنا في هذا العصر الذي ينوف على مائة عام إلا عدة أبيات قليلة
جدا ، لانستطيع أن نتحدث بها عن الشعر كله ، ولم تصلنا قصيدة كاملة ،
إلا إذا استثنينا شعر الشعراء الوافدين على مصر ، والذين كان لهم أثر
كبير في ازدهار الحياة الأدبية في مصر ، ومع ذلك فهذه الأبيات القليلة
التي وصلتنا إنما تدلنا على أنه كان في مصر شعر ، وأنه لم يكن أحد
بروايته وحفظه فقطد .

ولعل أول قصيدة رويت في مصر هي قصيدة أبي المصعب البلوى
التي هجا بها أثراف مصر ، وقد أعجب بها الخليفة معاوية بن أبي سفيان
فكان إذا قدم عليه أحد من أهل مصر سأل أن ينشده هذه القصيدة (١)
فالشاعر في هذه القصيدة يعيب عرب مصر أنهم حضرميون ، ليس لهم

شرف ولا مجد وأنهم متكبرون ، ولست أدرى سبب هذا الهجاء لكن
يخيل إلى أنه طلب نوالهم فرفضوا عطاءه .

وظلت أناذى السكعاء قيسا ليدخلنى وقد حضر الغذاء
وليس بماجد الجدات قيس ولكن حضرميات قواء
وأعرض نفحه اليربوع عني يزيد بعد ما رفع اللواء
أشار بكفه البني وكانت شمالا لا يجوز لها عطاء
أكلم عائذا ويصد عني ويمنعه السلام الكبرياء
وجرف قد تهلم جانبا كريب ذاكم البرم العياء
وأما القحزى فذاك بغل أضرب به مع الدبر الحفاء
وهذا القصير من تجيب ولو يستطيع ما نفى الخلاء (١)

يريد يزيد بن شرحبيل وقيس بن كليب الحاجب وعائذ بن ثعلبة
البلوى الذى قتل بالبرلس سنة ٣٥ ، والقحزى هو عمرو بن قحزم
وكريب بن أبرهة ، وأشار بالقصير إلى زياد بن حناطة التجيبى صاحب
القصر المعروف باسمه .

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى مدح بها عبد الرحمن بن قيسية بن
كاثوم التجيبى الذى وهب أبوه داره ليكون مسجدا بالفسطاط وقد
ضاعت هذه القصيدة ولم يبق منها سوى بيت واحد .

وأبوك سلم داره وأباحها لجباه قوم ركع وسجود (٢)
وهذا الشعر صدر من رجل لا تعرف إلا اسمه وهو قيس بن سلمة
المسكنى بأبي مصعب البلوى ، ولا ندرى أكان يقطن مصر كغيره من

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٢٣

(٢) مخطوط القرزى ج ٤ ص ٥

بطون « بلى » أم وقد عليها كباقي الشعراء الذين أكثروا من الوفود على مصر لمدح ولائها .

ومن الأشعار التي وصلتنا أيضاً في تصديق عبد الرحمن بن قيسية على المسلمين بداره لبناء مسجد القسطنطين ماقاله أبو قبان بن نعيم بدر النجيبى .

وبابليون قد سعدنا بفتحها وحزنا لعمر الله فيئاً ومغنا
وقيسية الخير بن كلثوم داره أباح حماها للصلاة وسلبها^(١)
وفى ولاية مسلمة بن مخلد ، سنة ثلاث وخمسين من الهجرة هدم
ما كان بناء عمرو بن العاص من مسجد القسطنطين وأمر بالزيادة في المسجد
الجامع وبناء منار المساجد كلها فقال عابد بن هشام الأزدي .

لقد مدت لمسلمة الليالى على رغم العداوات مع الأمانى
وساعده الزمان بكل سعد وبلغه البعيد من الأمانى
أمسلم فارتق لازلت تعلو على الأيام مسلم والزمان
لقد أحكمت مسجدنا فأضحى كأحسن ما يكون من المباني
فتاه به البلاد وساكنوها كما تاهت بزينتها الغواني
كأن تجاوب الأصوات فيها إذا ما الليل التى بالحران
كصوت الرعد خالطه دوى وارعب كل محتطف الجنان^(٢)

وكان بين الولاة من يحب الشعر ويرويه ، ومنهم من كان شاعرا
كالوالى عقبة بن عامر الذى كان شاعرا ولكن منعه شدة حرصه على

(١) خطط القرينى ج ٤ ص ٥

(٢) شرحه ج ٤ ص ٧

دينه من أن يكثر من إنشاد الشعر^(١).

ولعل أكثر ولاية مصر في هذا الدور حباً للشعر والشعراء هو الأمير عبدالعزيز بن مروان الذي ولى من سنة خمس وستين، إلى أن توفي بمصر سنة ست وثمانين هجرية، فقد اتصل به كثير من الشعراء النابغين ومدحوه هو وآل بيته، ولاغرو في ذلك فعبد العزيز كان إليه أمر الخلافة بعد أخيه عبد الملك، فكان الشعراء يقصدونه وهو على مصر حتى يكون لهم شأن بعد أن تصير إليه الخلافة، وكان عبدالعزيز جواداً يبذل العطاء لكل من يقصده فوفد عليه الشعراء، وهؤلاء الذين جاءوا مصر لم يقيموا بها إلا لأيام معدودة، على أن يعودوا إلى موطنهم فمن جاء لمدح عبدالعزيز بن مروان الشاعر أيمن بن خريم الأسدي أقام هذا الشاعر عند الوالى وأكثر من مدحه حتى قدم الشاعر نصيب بن رباح فأعجب الأمير بشعره، وبينما نصيب ينشد مدحه جاء الحاجب يقول إن أيمن بن خريم بالباب فأذن له عبدالعزيز فلما دخل قال له الأمير: يا أيمن كم ترى ثمن هذا العبد؟ وأشار إلى نصيب فنظر أيمن إليه وقال: نعم الغادى في إثر الخاض هذا أيها الأمير أرى ثمنه مائة دينار. قال: فإن له شعراً وفصاحة، فسأل أيمن نصيباً: أتقول الشعر؟ فأجابه نصيب نعم فقال: قيمته ثلاثون ديناراً، فقال الأمير يا أيمن أرفعه وتخفضه أنت ا قال: لسكونه أحق أيها الأمير ما لهذا وللشعر أمثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعراً فأمر عبد العزيز نصيباً أن ينشده فأنشده فقال عبد العزيز كيف تسمع يا أيمن، قال: شاعر أسود هو أشعر أهل جلدته

قال الأمير : هو والله أشعر منك ، وكرر ذلك فغضب أيمن وقال : والله أيها الأمير إنك للملول ظرف . ، قال الأمير : كذبت والله ما أنا كذلك ولو كنت كذلك ما صبرت عنك تنازعني التحية توأكلني الطعام وتكبي على وسادتي وفرشي وبك مابك (١) . فاغتاظ أيمن واستأذن الأمير في الخروج إلى العراق فأذن له وسار أيمن إلى بشر بن مروان وإلى العراق ومدحه بقوله :

ركبت من المقطم في جمادى إلى بشر بن مروان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف رأى حقاً عليه أن يزيدا
أمير المؤمنين أقم ببشر عمود الحق إن له عموداً
ودع بشراً يقومهم ويحدث لأهل الزيف إسلاماً جديداً
كان الساج تاج بني هرقل جلوه لأعظم الأيام عيداً
على ديباج خدى وجه بشر إذا ألوان خالفت الخدودا (٢)

فأنت ترى أن الشاعر هنا عرض بعبد العزيز في قوله : إذا ألوان خالفت الخدودا ، فإن عبد العزيز كان بوجهه نمش .

أما نصيب بن رباح فيقول الرواة إنه كان لبعض العرب من بنى كنانة فاشتراه عبد العزيز بن مروان منهم ، وقيل بل باعه عنه بعد أن مات أبوه إلى عبد العزيز ، وقيل إن نصيباً رأى في نفسه مقدرة على الشعر ، فحدث أمه أو أخته في الرحيل إلى عبد العزيز بمصر عساه يعتق أهل بيته ، فضحكت هذه ساخرة منه ، ولكنه أنشدها شعراً أعجبت به ، واطمأنت إلى قدومه مصر فحضر باب عبد العزيز ولكنه

(١) يقصد بذلك أن أيمن بن خريم كان به وضع (٢) الألفاظ ١٢٧ من

لم يستطع الدخول ، حتى رأى رجلاً حسن البزة ، فحادثه نصيب في
الوسط له بالدخول على الأمير ، وعرفه أنه شاعر فاستنشد الرجل
فلما أنشده نصيب شيئاً من شعره استملحه الرجل ، ولكنه شك أن
يكون مثل هذا الشعر لمثل هذا الأشود ، فطلب إليه أن ينشد شعراً
يذكر فيه جوف مصر وبعض فضائلها ، ووعد أنه يستمع إليه في
الغد ، فلما جاء الغد أنشد نصيب الرجل

سرى لهم ثنيتي إليك طلائعهم بمصر وبالجوف اعترقتي روائعهم
وبات وسادى ساعد قل لجمه عن العظم حتى كاد تبدو أشاجعهم
إلى أن قال :

وكم دون ذاك العارض البارق الذي له اشتقت من وجه أسيل مدا معه
تمشى به أفناء بكر ومذحج وأفناء عمرو وهو خصب مرا به
إذا اكتحلت عينا محب بضوته تجافت به حتى الصباح مضاجعه
وما زلت حتى قلت إني الخالع ولائي من مولى نمتي قوارعه
وما نكح قوم أنت منهم مودتي ومتخذ مولاك مولى فتابعه (١)

فأيقن الرجل صدق شاعرية نصيب ، وقدمه إلى الوالي ، فخرى
له مع أبيهم ما ذكرناه سابقاً . على أن هناك رواية أخرى تقول إن
نصيباً كان يرعى إبلاً لمواليه ، فأضل منها بعيراً ، فخرج يبحث عنه
حتى أتى القسطنطين وبه عبد العزيز ، فرغب في الاتصال به ، فاستأذن
في الدخول ففتح ، وبعد لآلى طلبه الأمير واستنشد فأنشده :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم نعم غامرة

فبابك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنس بالمعتفين من الأم بالإبنة الزائرة
وكفك حين ترى السائلين أندى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومنى الثناء بكل بحيرة سائرة (١)

فسر به الوالى وأعطاه واشترى ولأهه ، ولسكنهم مع هذا كله
فال مؤرخون يروون روايات كثيرة عن خروج نصيب إلى عبدالعزيز ،
ومهما يكن من شيء فإن الشاعر اتصل بعبد العزيز حتى لقب بمولى
عبد العزيز بن مروان ، ولـكنه لم يـقم عند الأمير عبدالعزيز بمصر ،
بل كان كثير التنقل متكسباً بشعره كغيره من شعراء العرب ، ولم
يزل نصيب يتردد على مصر بين الفينة والفينة ، ويمدح عبد العزيز حتى
توفى الأمير متأثراً بالطاعون ، وكان قد هرب إلى قرية في الصعيد
تسمى «سكر» خوفاً على نفسه من المرض ولـكنه توفى بها (٢) ،
فلما أتى نصيب نعى الأمير أنشد :

أصبت يوم الصعيد فى سكر مصيبة ليس لى بها قبل (٣)
تالله أنسى مصيبتى أبداً ما أسمعتنى حنينها الأبل
لم يعلم النعش ما عليه من العرف ولا الحاملون ما حملوا
حتى أجسوه فى ضريحهم حين انتهى من خليلك الأمل (٤)
وقد رثاه بقصيدة رائية أخرى منها :

(١) الأغاني ج ١ ص ١٢٩

(٢) مكنا فى الأغاني ج ١ ص ١٣٩ ولكن السكندى يقول إنه توفى بـجلوان

(٣) يروى هذا البيت فى كتاب الولاية للسكندى ص ٦٦ .نسوبا إلى كثير

فى رثاء عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وأبى بكر بن عبد العزيز بن مروان

(٤) الأغاني ج ١ ص ١٣٩

عرفت وجربت الأمور فما أرى
كأض تملأه الغابر المتأخر
ولكن أهل الفضل من أهل نعمتي
يمرون أسلافاً أمامي وأخبر
فإن أبك أعذر، وإن أغلب الأسى
بصبر، فشلى عندما اشتد يصبر
وكانت ركابي كلما شئت تنحني
جماحا فتقضى نحبها وهي تضر
قد عريت بعد ابن ليلي فأنما
ذراها لمن لاقت من الناس منظر
ولو كان حيا لم يزل بدفوفها
مراداً لغربان الطريق ومنقر
فإن كن قد نلن ابن ليلي فإنه
هو المصطفى من أهله المتخير
وقد أعجب بهذه القصيدة الخليفة عبد الملك بن مروان وكان
يطلب من نصيب أن ينشدها أمامه (١).

ووفد الشاعر عبد الله بن الججاج (٢) على عبد العزيز بن
مروان بمصر ومدحه، فأجزله عطاءه، وأمر أن يقيم عنده، ولكن
طال مقامه واشتاق إلى ذويه بالكوفة، فاستأذن الأمير في السفر
فلم يأذن له، فاضطر الشاعر إلى أن يعصى أمر الأمير، فقد غلبه

الشوق ، فرحل بدون إذن ، فاضطر الأمير عبد العزيز إلى أن يكتب إلى أخيه بشر وإلى العراق أن يمنع عطاء بن الحجاج ، واضطر الشاعر إلى أن يعود إلى مصر مادحا عبد العزيز معتذراً ، فصفح عبد العزيز عنه بعد أن استمع لقصائده التي منها :

تركت ابن ليلى ضلة وجريمة وعند ابن ليلى (١) معقل ومغول
سأحكم أمرى إذ بدا لي رشده وأختار أهل الخير إن كنت أعقل
وأترك أوطارى وألحق بأمري تحلب كفاه الندى حين يسال (٢)
ثم أمر عبد العزيز أن يطلق عطاء الشاعر وأن يوصل وسمح له أن يقيم أنى شاء .

وجاء مصر الشاعر كثير عزة وتردد عليها مراراً يمدح الأمير عبد العزيز بن مروان ويقال إنه دخل على عبد العزيز يعود في مرضه وأهله يتمنون أن يضحك فلما وقف عليه قال ولو أن سرورك لا يتم إلا بأن تسلم وأسلم ، لدعوت ربى أن يصرف ما بك إلى ، ولكنى أسأل الله تعالى لك العافية ولى فى كنفك النعمة ، فضحك عبد العزيز وسر أهله (٣) وبينما كثير يتأهب للرجيل من مصر لقيته عزة فى طريقها هى وقومها إلى مصر ، قيل : فحادثها طويلاً ثم افترقا فقدمت هى مصر وسافر هو إلى الحجاز على أن يلحق بها بمصر ويحدثنا الحصرى قال : وروى المدائى ، خرج كثير من الحجاز

(١) كان الأمير عبد العزيز يفتبط إذا ذكر أحد الشعراء اسم والدته (ابلى) فى شعره حتى روى أنه قال « لا أعطى شاعراً شيئاً حتى يذكرها فى مدحى لشرافها » (الأغانى ج ١ ص ١٢١) وكانت من بنى كلب .

(٢) الأغانى ج ١٢ ص ٣٠ (٣) ابن خلدون ج ١ ص ٤٣٣ .

يريد مصر فلما قرب منها نزل بمنزل فاذا هو بغراب على شجرة بان
ينتف ريشه وينعب ، فأسرع الرحيل ومضى لوجهه ، فلقى رجل من
بنى نهد ، فقال : يا أخا الحجاز مالى أراك كاسف اللون . قال :
ما علمت إلا خيراً . قال : فهل رأيت فى طريقك شيئاً أنكرته .
قال : لا والله إلا فى منزلى هذا فأتى رأيت غراباً ينتف ريشه على بانه
ينعب قال : أما أنك تطلب حاجة لا تدركها . فقدم كثير مصر
والناس منصرفون من جنازة عزة فقال :

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانه ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقلت ولو أتى أشاء زجرته بنفسى للنهدى هل أنت زجرته
فقال غراب لا غراب من النوى وفى البان بين من حبيب تجاوره
فما أعيف النهدى لا در دره وأزجره للطير لا عزناصره^(١)
ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل وهو يقول :

أقول ونضوى واقف عند رأسها
عليك سلام الله والعين تسفح
فهذا فراق الحق لا أن تزيروني
بلادك فتلأ الذراعين صيدح
وقد كنت أبكى من فراقك حبة

وأنت لعمرى اليوم أنأى وأنزح^(٢)
وهكذا شاء القدر أن تدفن عزة بمصر ، وأن يبكيها كثير بها ،
والرواة يقولون إن شعره تغير بعد موتها ، وسأله أحدهم : ما بال

(١) زعم الأداب ج ٢ ص ١٦٩

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣٢٢

شعرك قد قصرت فيه ؟ فقال : ماتت عزة فلا أطرب وذهب
الشباب فلا أعجب ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب ، وإنما
الشعر عن هذه الحلال (١) .

وقدم جميل بن معمر إلى عبد العزيز مادحاً ، فأذن له وسمع
قصائده وأحسن جائزته ، وسأله عن حبه لبثينة فذكر ولعه بها ،
وأمره الوالي أن يقيم معه في مصر وهياً له منزلاً وأجرى عليه رزقا
فما أقام إلا قليلا حتى وافته منيته بمصر سنة اثنتين وثمانين من الهجرة
ويقال إنه أنشد وهو يحتضر .

بكر النعي وما كان بجميل مشوى بمصر ثواء غير قفول
قوى بئنة فاندب بعويل وابكى خليلك قبل كل خليل (٢)
وكذلك وفد عبيد الله بن قيس الرقيات على مصر ومدح عبد العزيز
وشاد بذكر مدينة خلوان التي بناها الأمير واتخذها مسكناً له .

سقى الخلوان ذى السكروم وما صنف من تينه ومن عنبه
نخل مواقير بالفناء من البر في غلب تهتز في شربه
أسود سكانه الحمام فما تنفك غربانه على رطبه (٣)
ومدح عبد العزيز بأشعار كثيرة جداً نجدها في ديوانه ، من
ذلك ما قاله لما خرج عبد العزيز خرجته الثالثة إلى الإسكندرية سنة
إحدى وثمانين من الهجرة .

غدا ومن مَدْرَج الكَرِيْمُو ن حيث سفينهمُ حَزَقُ
قلبا أن علون النيل والرايات تتحقق

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣٧٢ (٢) شرحه

(٣) خطط القرظي ج ١ ص ٢٠٩ وديوان قيس الرقيات والسكندي ص ٥٠

رأيت الجوهر الحكيم والديساج يأثلق
سفائن غير مثقفة إلى حلوان تستبق
يحل من يحل به لذيثه عيشه غدق
يحل به ابن ليلي والندي والحلم والصدق^(١)
ونلاحظ أن الفرزدق لم يكن يحب الوفود على الأمراء ولكنه
كان يود أن يفد على مصر وعمل شعراً في مدح عبد العزيز بن
مروان، وهم الفرزدق أن يزور مصر ولكنه جاءه نعي عبد العزيز
فبقى مكانه ولم يأت مصر.

وقد رثى الأمير عبد العزيز بن مروان كثير من الشعراء من ذلك
ما قاله ذو الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط يرثي
عبد العزيز وابنه الأصمغ الذي توفي سنة ست وثمانين من الهجرة قبل
وفاة أبيه بنحو شهرين :

نقول غداة قطعنا الجفرا ر والعين بالدمع مغرورة
مقال امرئ كاره للفرا ق تاع البلاد وباع الرقة
أبعد الخليفة عبد العزيز وبعد الأمير كذا وأبقه
فما مصر لي بعد عبد العزيز والأصمغ الخبير بالموتة
سقى الله قبريهما والصدى وما جاورا ديمة مخدقة
فإن تلك مصر أشارت بها إلى الشر يوماً يد موبقة
فقدماً تقر بمصر العيون في لذة العيش محدودة^(٢)
فأنت ترى كيف استطاع الأمير عبد العزيز بن مروان أن يجمع

(١) ديوان ابن الرقيات ص ٢٣٩

(٢) السكندى ص ٥٦

حوله عددا من الشعراء البارزين ، وأن يجعلهم يتجشمون صعاب الطريق من بلادهم إلى مصر .

وكذلك نقول عن الوالى عبد الله بن عبد الملك بن مروان الذى ولى مصر سنة ست وثمانين ، فقد وفد عليه الحزین الكنانی ، ويكنى سليمان أبا الشعثاء ومدح الوالى بقوله :

الله يعلم أن قد جبت ذا يمن ثم العراقين لا يثنيني السأم
ثم الجزيرة أعلاها وأسفلها كذاك تسرى على الأهوال في القدم
ثم المواسم قد أوطأتها زمنا وحيث تحلق عند الهجرة اللهم
قالوا دمشق ينيك الخبير بها ثم انت مصر قم التائل العمم
لما وقفت عليها في الجموع ضحى وقد تعرضت الحجاب والخدم
حيثه بسلام غدير مرتفق وضجة القوم عند الباب تؤدحم
في كفه خيزران ريحها عبق من كف أروع في عرينه شمم (١)
لم تعدم القبائل التي قطنت مصر أن يظهر بينهم شعراء وقد

هيئت الأسباب التي تدعو إلى وجود الشعراء ، تلك هي الفتن التي كانت في مصر إذ ذاك ، كما كان الحال في جميع البلاد الإسلامية .
من ذلك أن عبد الرحمن بن جحدم ولى مصر من قبل ابن الزبير فلما أن بويع مروان بن الحكم سنة أربع وستين من الهجرة أراد أن ينتزع مصر من الزبيريين فسير ابنه عبد العزيز إليها خفر ابن جحدم خندقا حول القسطنطين سنة خمس وستين من الهجرة ، وأرسل جيشا

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٧٦ وقبل إن هذه القصيدة للحزین في رثاء عبد العزيز بن مروان . ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فقد قلت هذه القصيدة في مصر وكان الحزین بها .

عليه زهير من قيس البلوى إلى إبله لينع عبدالعزيز من المسير ، و سار مروان أيضا إلى مصر ولكن هزم الجيش المصرى وتقدمت جيوش الروانيين (١) ففى هذه الحروب قال بعض عرب مصر شعرا ، ولكن هذا الشعر لم يصلنا منه إلا النزر اليسير من ذلك ما قاله زروعة بن

سعد بن أبى زمزومة الحشنى يمدح ابن جحدم

وما الجدد إلا مثل جد ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق ثلاثون ألفاً هم أثاروا ترابه وخدوه فى شهر حديث مصلىق (٢)

وما زال هذا الشاعر يتقم على الأمويين ، حتى كانت ولاية عبد الله ابن عبد الملك بن مروان ، وشاء الظروف أن ترتفع الأسعار بمصر فتشام المصريون بالوالى الجديد ، وخرج الوالى سنة ثمان وثمانين إلى أخيه الوليد فهجاه ابن أبى زمزومة بقوله :

إذا صار عبد الله من مصر غار جأ فلا رجعت تلك البغال الخوارج
أنى مصر والمسكيال واف مغربل فما سار حتى سار والمد فالج (٣)
فغضب عليه الوالى وأهدر دمه فاضطر الشاعر أمام هذا الوعيد

إلى أن يهرب من مصر إلى بلاد المغرب حيث كتب إلى الخليفة :

ألا لا تنه عبد الله عنى كما قد قال يجعلنى نكالا

ولم أستم لعبد الله عرضاً ولم آكل لعبد الله مالا (٤)

وقيل إن عبد الله طلب الشاعر ابن أبى زمزومة فهرب منه فبلغ الوالى أن عمران بن عبد الرحمن قاضى مصر أوى الشاعر وأن القاضى هجا الوالى بأبيات له منها :

(٢) الكندى ص ٤١-٤٢

(١) الكندى ص ٤١-٤٢

(٤) شرحه

(٣) شرحه ص ٥٩

أنا ابن أبي بدر بهجرة يثرب وهجرة أرض للنجاشي أخضر
أمثلي على سني وفضل أبوقي نسيت وهذا نجل مروان يذكر^(١)
فعله عبد الله عن القضاء والشرطة سنة تسع وثمانين فقال عمران
يهجو عبد الله ويعرض بالقاضي الجديد عبد الواحد بن عبد الرحمن
ابن معاوية وكان حدثاً غير أنه كان فقيهاً .

لحي الله قوماً أمروك ألم يروا بأعطافك التخنيث كيف يريب
أنصرفي جهلاً عن الحكم ظالماً ووليتك عجزاً فتاة تجيب^(٢)
ثكلتك من وال وأيضاً ثكلته ألم يك في الناس الكثير نصيب^(٣)
واستمرت الحروب التي كانت بين الزبيريين والأمويين في مصر
طويلاً وكانت تعرف هذه الحروب بأيام الخندق أو التراويح^(٤) ،
لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوباً ، يخرج هؤلاء ثم يرجعون
ويخرج غيرهم ، وقتل من المصريين عدد كثير لا سيما من المعافر ،
وفي هذه الحروب قال عبد الرحمن بن الحكم وكان مروانيا :

ألا هل أناها على نأياها بناء التراويح والخندق
بلغنا بفياق يغشى الظراب بعيد السمو لمن يرتقى
وسدت معافر أفق البلاد بمرد جيش لها مبرق
ونادى الكفاة ألا فابرزوا فختام حتى ولا نلتقى^(٥)

وقام بعض المصريين بالصلح بين المروانيين والمصريين ولكن

(١) الكندي ص ٣٢٨

(٢) أراد فتاة تجيب القاضي عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن
حديج التجيبي

(٣) الكندي ص ٣٢٨ (٤) الكندي ص ٤٤ (٥) شرحه

المعافر لم يقبلوا أن يبايعوه ، فقتل من المعافر نحو ثمانين رجلا بينهم
الأكدر بن حمام سيد لحم وشيخها فلما علم المصريون ذلك ، لم يبق
أحد حتى لبس سلاحه ، واجتمع على باب مروان أكثر من ثلاثين
ألفاً يخاف مروان وأعلق بابه ، وكاد المصريون يفتكون به لو لم يحره
كريب بن أبرهة . وفي رثاء الأكدر قال زياد بن قائد اللخمي :

كما لقيت لحم ما ساءها بأكدر ، لا يبعدن أكدر
هو السيف جرد من غمده فلاقى المنايا وما يشعر
فلمني عليك غداة الردى وقد ضاق وردك والمصدر
وأنت الأسير بلا منعة وما كان مثلك يستأثر (١)

ونرى شاعراً آخر لا نعرف اسمه يخاطب الخليفة الوليد بن
عبد الملك لما عزل أخاه عبد الله بن عبد الملك عن مصر وولى عليها
قرة بن شريك سنة ٩٠ هـ .

عجبا ما عجبت حين أتانا أن قد أمرت قرة بن شريك
وعزلت الفتى المبارك عنا ثم فلت فيه رأى أيك (٢)

كذلك لم يصلنا شعر الشاعر المسور الخولاني وقد كان في أواخر
أيام الأمويين ووصلنا من شعره بيتان من قصيدة يخاطب ابن عمه
يحذره من الخليفة مروان بن محمد الذي قتل بعض أشراف مصر
لأنهم خلعوه وأرادوا غيره .

فيايك لا تبجني من الشر غلظة فتؤدى كفص أورجان الأشيم (٣)

(١) الكندي ص ٤٦ (٢) الكندي ص ٩٣

(٣) هكذا في الكندي ص ٩١ ولكن عجز هذا البيت مكسور ولعل الصحيح
«أورجان بن أشيم» وكفص المذكور هو كفص بن الوليد الذي ولى على مصر
مراراً وكان رجاء تامله على الصعيد قتلها حوثة الباهلي سنة ١٢٨ هـ

فلاخير في الدنيا ولا العيش بعدهم فكيف وقد أضحو ابسفع المقطم
وقال الشاعر مرسل بن حمير ييكي حفصاً وأصحابه :

يا عين لا تبقي من العبرات جردى على الأحياء والأموات
يا حفص يا كهف العشيرة كلها يأخا النوال وسائر العورات
إما قتلت فأنت كنت عبيدهم والكهف للآيتام والجارات
أودى رجاء لا كئيل رجائنا رجل ، وعقبة فارج السكرات
وشبابنا عمرو ، وفهد ذو الندى وابن السليط وعامر الغارات
قتلوا ولم أسمع بمثل مصابهم سروات أقوام بنو سروات
ظلت دماؤهم فلم يعرج لهم بين ولم يطلب لهم بجنة^(١)

ولما قدم مروان بن محمد مصر في شوال سنة اثنتين وثلاثين
رمائة من الهجرة وجدأ كثر أهل مصر قد سودوا ، فعزم على تعدية
النيل فأمر بالدار المذهبة أن تحرق ، وكانت تسمى بالدار البيضاء ،
وهي التي بناها مروان بن الحكم حين دخل مصر سنة خمس وستين
هجرية ، فبكي شعراء مصر هذه الدار فمن ذلك ما قاله عيسى بن شافع

يا طلالاً أقوى وحل البلى منه لدى العلو وفي السفلى
قد كنت مغنى لعيون المها وكنت مأوى لظبي الرمل
وكان أربابك ما إن لهم في الناس من نوع ولا شكل^(٢)

وكان لبعض الولاة ولع باللهو والمجون وشرب الخمر ، كالوالى
قرة بن شريك الذى هدم الجامع العتيق بالقسطاط وأعاد بناءه ،
فكان الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا قرة بالخنور والزموور والطبول

فيشرب الخمر في المسجد طول الليل ، وهو يقول لنا ، الليل ولهم
النهار ، ^(١) وعن هذا الوالى قال السيوطى ، كان قرّة ظلوماً عسوفاً
قيل كان يدعو بالخمر والملاهى في جامع عمر ، ^(٢) ولقد أغضب هذا
الوالى جماعة العرب بمصر ، فقال أحدهم فيه الشعر الذى ذكرناه ^(٣)
ويحدثنا صاحب الأغاني أن الأبحر المغنى كان متصلاً بالخليفة الوليد
ابن يزيد ، فلما قتل الوليد خرج الأبحر إلى مصر وما زال بها حتى
مات ^(٤) ، وليكننا لانعلم أنه كان في خدمة أحد من ولاة مصر وربما
اضطره فنه إلى أن يطرب المصريين ويشجيهم .
وقد فقد كل الشعر الغزلى وكل ما أنشد في وصف حيات اللهب
والمجون في مصر كما فقد غيره من الشعر في هذا العصر .

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧

(٣) ص ١٢٣

(٤) الأغاني ج ٣ ص ١١٢

الفصل الثاني

من قيام العباسيين إلى دخول ابن طولون

في دراسة العصر الأموي رأينا أننا لانكاد نجد في مصر شعراً اللهم إلا هذه الآيات القليلة المتناثرة في كتب الأدب والتاريخ ، وشعر الشعراء الوافدين الذين كانوا يقيمون في مصر أياماً معدودات على أن يعودوا إلى بلادهم مزودين بمطايا وهبات أمراء مصر أما في العصر العباسي فالأمر يختلف باختلاف تطور الحياة في مصر وتطور الثقافة التي كانت بها ، ولذلك قبل أن أتحدث عن حياة الشعر بمصر يجب أن نلم إلاما يسيرا بعدة أمور أرى أن لها أثراً بعيداً في توجيه الحياة الأدبية في مصر في العصر العباسي بل في اتعاش هذه الحياة الأدبية .

نلاحظ أولاً أن العرب الذين وفدوا على مصر في العصر السابق قد استقروا بها وعاشوا فيها مع المصريين واختلطوا مع المصريين اختلاطاً أدى إلى نوع من المزج بين المصريين والعرب الوافدين فنجد في مصر في العصر العباسي عنصراً جديداً من السكان هم نتيجة اختلاط العرب بالمصريين أولاً وزواج العرب من نساء مصريات ثانياً ودخول كثير من المصريين في الدين الإسلامي رغبة أو رهبة ثالثاً حتى هؤلاء الذين احتفظوا بدينهم من المصريين تأثروا بالعرب كما تأثر العرب بهم وكان نتيجة ذلك كله أن انتشرت اللغة العربية في مصر انتشاراً عظيماً حتى إذا كان القرن الرابع لم يجد البطريق سورس بن المقفع من يعرف اللغة القبطية أو اليونانية

واضطر الى أن يكتب كتابه « سير الآباء البطارقة » باللغة العربية ،
نتيجة ثانية هي أننا نجد في العصر العباسي كثيرا من العلماء
المسلمين من أصل قبلي أمثال ابن القطاس سعيد بن زياد وكان من
أهل الديانة والفضل وكانت له حلقة في المسجد يلقى فيها دروس
الفقه ، وسعيد بن تليد كاتب القضاء في عهد طهية بن عيسى ، ويحيى بن
بكير الفقيه المؤرخ وأحمد تلاميذ الليث بن سعد ومن أساتذة
عبد الرحمن بن عبد الحكم هؤلاء وغيرهم كانوا من أصل غير عربي
ولكن حسن بلاؤهم للعربية والإسلام .

ونتيجة ثالثة لهذا المزج أن الآثار الأدبية التي تركها الشعراء
والأدباء ظهر فيها روح الشعب المصري مثل روح الدعاة والفكاهة
بما يدل على أن أثر البيئة المصرية كان قويا شديداً على الأدباء
والشعراء في هذا العصر

(٢) نلاحظ ثانياً أننا لانكاد نجد في هذا العصر العباسي هجرة
قبائل أو بطون عربية إلى مصر كالهجرات التي كانت في العصور
السابقة ، والهجرة الوحيدة التي كانت في العصر العباسي هي تلك التي
كانت سنة ٢٠٠ هـ ، وهي هجرة طائفة كبيرة من الأندلسيين إلى
الأسكندرية وضواحيها ، وسبب هذه الهجرة هو أن أهالي قرطبة
ثاروا على الحكم بن هشام فأمر الخليفة ، بتخريب قرطبة ثم نادى
في الناس بالأمان على أن يهاجروا من المدينة فرحل منهم خمسة
عشر ألفاً إلى إفريقية أقام منهم ثمانية آلاف في المغرب وذهب
الباقون إلى مصر ، وقال دوزي إن الذين رحلوا إلى مصر كانوا خمسة

عشر الفا خلا النساء والأطفال فلما وصلوا الأسكندرية اعترضهم أهلها ومنعهم من دخول المدينة فسكنوا في سفنهم حتى أتيت لهم الفرصة فغلبوا الوالى ودخلوا المدينة وظلوا بها حتى قدم عبد الله بن طاهر حوالى سنة ٢١١ فلما رأى شرهم جارهم ثم اتفق معهم على الجلاء عن الأسكندرية فرحلوا عنها الى جزيرة كريت وظلوا يحكمونها حتى سنة ٣١٥ هـ (٩٦١ م) إذ انتزعها منهم الإمبراطور ارمانوس هذه هى الهجرة الوحيدة التى ذكرها لنا المؤرخون وقد كان لهؤلاء الأندلسيين تأثير كبير فى الثورات التى حدثت فى هذه السنوات القليلة التى مكثوها بالأسكندرية ولا سيما فى ثورة الجروى التى سنتحدث عنها بعد ذلك ، وفى هذه الثورات أثنى شعراء مصر أشعاراً كثيرة ذكروا فيها وقائعهم وحوادثهم .

(٣) ومن ناحية ثالثة : كانت مصر طوال العصر العباسى مرجلاً يغلب بالفتن والثورات وكان الحكم فى مصر مضطرباً اضطراباً شديداً فالولاة كانوا يعزلون بعد عام أو بعد بضع عام وجرى خلفاء العباسيين على سنة تغيير الولاة فى مصر فلم يتمكن الولاة من إصلاح البلاد الداخلية ، وانتهر بعض الولاة فرصة ولايته فارتشى فى أحكامه وشدد الحكم على المصريين ، فثار المصريون جميعاً سواء أكانوا من العرب أو من الأقباط ، وكان لهذه الثورات أثر قوى فى إيقاف روح الشعر فى مصر فجرى الشعر على السن الشعراء متحدثين بما كان فى البلاد من حوادث حتى أن أكثر ما حفظ لنا من شعر هذا العصر إنما كان يتحدث عن هذه الثورات .

(٤) نلاحظ بعد ذلك تطوراً عظيماً فى الدراسات التى كانت

بمصر في العصر العباسي . فقد عرفنا أن أكثر الدراسات التي كانت في العصر الأموي كانت دراسات دينية من قراءات وتفسير ورواية الحديث أو دراسات تتصل بالدين كالتاريخ الذي كان يقصد منه أولا تفسير الآيات التاريخية في القرآن . ولم نعرف طوال العصر الأموي اهتمام المصريين بالعلوم العربية الخالصة كرواية الشعر وعلوم اللغة والنحو الى غير ذلك ولما كان في العصر العباسي نجد أكثر العلماء يهتمون بالعلوم العربية الخالصة اهتماما كبيرا بجانب اهتمامهم بالعلوم الدينية فالليث بن سعد فقيه مصر كان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث ، الشعر . وابن الوزير التجيني كان محدثا فقيها وكان عالما بالشعر والأدب ، وعبد الحميد بن الوليد المصري المتوفى سنة ٢٢١هـ كان عالما بالأخبار والنحو ، والشاعر المصري الحسين بن عبد السلام المعروف بالجل الأكبر عرف عنه شدة اتصاله بالإمام الشافعي وكان أحد رواة ، والشاعر سعيد بن عفير كان مؤرخا ومحدثا وشاعرا وأديبا واماما في اللغة والنحو حتى قيل إن مصر لم تخرج أبجع من للعلوم منه وكان الوالي عبد الله بن طاهر يقول عنه « رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء النيل والهرمين وابن عفير » . ولما وفد على مصر عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وكان إماما في اللغة والنحو اجتمع بالإمام الشافعي وتناشدا كثيرا من أشعار العرب وروى عنهما المصريون الشعر ، ووفد أبو نواس على مصر فسا علم المصريون بوجوده هرعوا إليه واجتمعوا حوله فأملأهم أشعاره . من هذه الأمثلة نستطيع أن ندرك هذا التطور الذي حدث في الثقافة في مصر

وكيف اهتم المصريون في هذا العصر بالدراسات الادبية اهتماماً كبيراً
كان له أثر واضح في رقي الحياة الادبية في مصر .

وكما وفد الشعراء على أمراء مصر في العصر الاموي كذلك نجد
كثيراً من الشعراء العباسيين المعروفين يقدون على مصر فأبو نواس
وفد على الخليفة ، ودعبل الخزاعي وابراهيم بن العباس بن الاخنف
وفدا على المطلب الخزاعي ، والبطين الحماي دخل مصر مع عبد الله بن
طاهر ، وقال ابن منظور إن ذلك الجن جاء مصر ووجد لأبي نواس
أشعاراً تروى في مصر لا يعرفها أهل العراق ، وفد ابن المولى
وربيعة الرقي على يزيد بن حاتم ، وجاء أبو تمام الى مصر وهو
صغير وتلقى كثيراً من الدراسات الادبية فيها وفي مصر أنشد الشعر
بل ذهب بعض المؤرخين إلى ان أبا تمام أنشد أول شعره بمصر
حتى ذهب الكندي وابن زولاق والسيوطي الى أن أبا تمام مصري
وقالوا إنه شاعر مصر الأكبر .

من هذه العجالة نستطيع أن ندرك أن الحياة الادبية في
مصر في العصر العباسي كانت مزدهرة وأن الدراسات الادبية
كانت منتشرة ومع ذلك كله لا نجد بين شعراء مصر شاعراً
بلغ الى درجة فحول الشعراء الذين عرفتهم الأقطار الاسلامية
الأخرى وتعايل ذلك عندى أن الرواة ومؤرخي الآداب لم يهتموا
بمصر فلم يحفظوا شعر المصريين ولهذا السبب لم تصلنا قصائد كاملة من
شعراء مصر في هذا العصر العباسي وأخشى أن أقول إن المصريين
تقصهم العصبية ، فقد رأيناهم لا يهتمون بإمام مصر الليث بن

سعد وفضلوا مذهب مالك والشافعى وهما من الغرباء ، فالغريب عند المصريين أكرم لديهم من اخوانهم ، ومن ناحية أخرى من الطبيعى أن يتأخر الإنتاج الأدبى فى مصر عن نظيره فى العراق والشام ، فنذ الجاهلية كانت العراق والشام تعدان من بلاد العرب وما الفساسة والمناخنة إلا من العرب ومنذ الجاهلية كانت القبائل العربية تسكن بلاد الشام والعراق ، أمامصر فلم تكن علاقتها بالعرب بهذه القوة ، ولم تفد عليها قبائل عربية كثيرة إلا بعد الفتح ، فضعف الإنتاج الأدبى بمصر بينما قوى الإنتاج الدينى والتاريخى لأن النبوغ فى الثقافة الدينية أسهل من النبوغ فى الأدب ، ولأن الذين أسلبوا من المصريين ليس من السهل عليهم أن ينبغوا فى الأدب بينما من السهل أن ينبغوا فى العلم ، وأكثر من هذا أن التحمس الدينى فى هذا العصر كان أقوى من التحمس للأدب ، لذلك كله لانيجد شاعرا مصريا بلغ مرتبة الفحول .

ومهما يكن من شىء فإن الشعر الذى وصلنا فى هذا العصر يعطينا صورة لما كانت عليه الحالة فى مصر السياسية والاجتماعية والأدبية ، ثم تدلنا على أن الشعر المصرى ابتداء ينمو ويقوى ويتأثر بالبيئة المصرية الخالصة ، ويعبر عما كان بمصر من اتجاهات وخواطر مختلفة وألوان الثقافات المتعددة ، وضروب الحركات السياسية وغير السياسية ، وليس أدل على ذلك من هذه الأشعار التى قيلت فى الاضطرابات العديدة التى كانت فى مصر فى ذلك العصر .

أثر الفن فى الشعر

نستطيع أن نقسم الفن التى كانت بمصر فى هذا العصر إلى :

١ - ثورات سياسية - إن صح هذا التعبير - كان يقوم بها

قبائل العرب ضد الولاة والأمراء لجور أحكامهم ، وسوء سياستهم من ذلك ما كان في ولاية موسى بن معصم الخثعمي الذي ولي في أواخر سنة سبع وستين ومائة من الهجرة ، فقد تشدد الوالي في جمع الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولا ، وجعل خراجا على أهل الأسواق وعلى الدواب ، وعاد إلى الرشوة في الأحكام ، فأظهر الجند كراهته ، ولم يستطع عماله أن يدخلوا الخوف وتحالف القيسية واليمية على قتاله ، واتفق أهل الخوف أيضا مع جند الفسطاط على الثورة ضد هذا الوالي ، فخرج موسى مع جنده لقتال الثائرين فانهزم جند الفسطاط عنه وقتل الوالي سنة ثمان وستين ومائة من الهجرة بعد عشرة أشهر من ولايته ، هذا الحادث كان له أثر في الشعر ، إذ أنشد الشعراء في ذلك مترنين بانتصار أهل الخوف من ذلك ما قاله سعيد بن عفير :

ألم ترهم ألوت بموسى سيوفهم وكانت سيوفا لا تدين لمترف
فما برحت به تعود وتبتدى إلى أن تروى من حمام مدنف
فأصبح من مصر وما كان قد حوى بمصر من الدنيا سليبا بنفنف
ولكن أهل الخوف لله فيهم ذخائر إن لا ينفد الدهر تعرف (١)
وفي ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الخوف من أداء الخراج سنة إحدى وتسعين ومائة من الهجرة ، وخرج أبو الندى مولى « بلى » في نحو ألف رجل يقطع الطريق وأغار على بعض قرى الشام وساعده في ذلك رجل من جذام يقال له المنذر بن عابس وآخر يدعى سلام النوى ، فكثير فسادهم ، وأوقعوا الرعب في نفوس

المصريين جميعاً ، فبعث هارون الرشيد بقائده يحيى بن معاذ لقمع هذه الحركة وإخضاع أهل الخوف ، فتم ليحيى ذلك وقدم الفسطاط ومعه أبو الندى وابن عابس فدح الشعراء القائد يحيى فن ذلك ما قاله أبو عثمان السكري :

ياقيس عيلان إني ناصح لكم أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا
إني أحذركم يحيى وصولته فإ رأيت له تقياً إذا غضبا
وقال أيضاً :

قد جئنا قيساً ولم تك تجي فقتلنا أبا الندى وابن عابس
وتركنا الخناً وحى جذام لا يطيقون رفع كف تلامس
آمن الله بالمبارك يحيى خوف مصر إلى دمشق فبالس
وأباد الخنلاع من كل أرض بعدما حاد عنهم كل فارس (١)

وقد يطول بنا الحديث عن هذه الثورات الكثيرة التي كان يقوم بها عرب مصر ضد الولاة والحكام ، ولكن أرى أن ألم بثورة الجروى التي شغلت ولاية مصر والخلافة العباسية مدة طويلة (٢) ، فقد كان عبد العزيز بن الوزير الجروى صاحب الشرطة بمصر في ولاية المطلب الخزاعي سنة ثمان وتسعين ومائة من الهجرة وعزل بعد قليل ، وبعث على رأس الجيش لمحاربة أهل الخوف ، ثم أعيد إلى الشرطة سنة تسع وتسعين ومائة في ولاية العباس بن موسى ، ولكن الجند ثاروا ، وأجمعوا على تولية المطلب الخزاعي مرة أخرى

(١) الكندي ص ١٤٥

(٢) نجد ثورة الجروى في الكندي ص ١٥٥ يوماً بعداً .

فاضطر الجروى إلى الهروب إلى تنيس ، فلما تم الأمر للمطلب وأطاعه وجوه أهل الخوف ، أرسل إلى الجروى بعقده على تنيس وأمره بالحضور إلى القسطنطينية ، فامتنع الجروى فبعث المطلب بوال آخر على تنيس ، فلم يستطع دخولها ، وسار الجروى لمحاربة السرى ابن الحكم الذى أرسله الوالى لحرب الجروى ، فأسر السرى وسجن وتوالت جيوش الوالى لحرب الجروى فكانت تهزم الواحدة تلو الأخرى ، وجد الوالى فى أمر الجروى فاخرج الجروى السرى بن الحكم من السجن بعد أن تعاهدا على أن يخلعا الوالى ويخلفه السرى وبعد حروب طويلة ، أرسل الوالى فى طلب الأمان من السرى على أن يسلم إليه الأمر ويخرج عن مصر ، وقد تم ذلك وخرج المطلب الخزاى إلى مكة وفى هذا أشار دعبل الخزاى بقوله :

فكيف رأيت سيوف الجريش ووقعة مولى بنى ضبة (١)

أحجبتك أسياهم كآرها وما لك فى الحج من رغبة

وتم أمر مصر إلى السرى فى رمضان سنة مائتين من الهجرة ، فطلب الوالى إلى الجروى أن يذهب لتأديب لحم بالإسكندرية ، وكاد الجروى يفتح حصنها فخشى السرى أن يملكها الجروى ، فأوعز إلى أحد رجاله أن يخالف الجروى ، فاضطر الجروى إلى أن يرجع إلى تنيس سنة إحدى ومائتين وفسد ما بينه وبين السرى وفى ذلك قال سعيد بن عفير :

ألا من مبلغ الجروى عنى مغلظة يعاتب أو يام

(١) مولى بنى ضبة هو السرى بن الحكم

أقت تنازل الأبطال حتى تميز ذو الحفيظة والسؤوم
وصلت بهم فاهنت قواهم وطير الموت دائرة تحوم
ولو هجمت جموعك حين حاوا عليهم باد جمعهم المقيم
وكيف رأيت دائرة التواني أتك بصحو نحس لا يقيم
أناك وقد أمنت ونمت كيداً لعل لا ينسام ولا ينيم

ثم ولي سليمان بن غالب مصر في ربيع الأول سنة إحدى ومائتين
فخاربه السرى بن الحكم ، ولكن هزم السرى وأسر هو وابنه ميمون
وسجنا في إخميم واستقام الأمر لسليمان فقال المعلى الطائي في ذلك :
إذا شن في أرض سليمان غارة أثار بها نقعاً كثير المصائب
ألم تر مصرا كيف داوى سقيمها على حين دانت للعدو المناصب
جهاها ولولا ما تقلد أصبحت حبيساً على حكم القنا والمقانب
ولكن أعيد السرى مرة أخرى للولاية ، وهرب سليمان إلى
الجروى ، وانتقم السرى من كل أعدائه فأخذ يقتلهم ويصلبهم ، حتى
قامت فتنة إبراهيم بن المهدي ببغداد ، واتصل إبراهيم بالجند في مصر
وأمرهم بخلع المأمون ، والوثوب بالسرى ، فلبى دعوته جمع من
المصريين منهم الحارث بن زرعة بالفسطاط والجروى بالوجه البحري
وسلامة الطحاوي بالصعيد وعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي ،
فخاربوا السرى ، وملك الجروى الاسكندرية ، وأخرج الطحاوي
عمال السرى من الصعيد ، وسار الجروى حتى التقى بجيش السرى
بشطونف فهزم السرى ستة ثلاث ومائتين وقتل ابنه ميمون بن السرى
فرثاه معلى الطائي بقوله :

لورد غرب منية بشجاعة أحد لدافع ركنها ميمون
لو كان تجريد السيوف يردّها لحماه منها منصل وثمين
مازلت أطمع في رجوعك سالماً ويروغني شفقا عليك ظنون
فليفجعن غدا بقتلك طاهر^(١) وليفجعن بقتلك المأمون
وقال أبو نجاد الحارثي في ذكر هذه الحروب :

جمع رعاك يا سرى فإنها حرب تحس سعيها قحطان
قتلوا أبا حسن وجروا شلوه كالكلب جر بشلوه الصبيان
ولت نجيب وأسلبته جيادها عيلان يوم توألت عيلان
فاستخرجوه ملياً فأقى به يجرى ويهرج حوله السودان
أبشر فإن أقول نجمك بعده عرض السماء ونجمك الدبران
لا تبك فالعقبى لآخوته غداً أو بعده فكما تدين تدان
وأشرف الجروى على الفسطاط وأراد أن يجرقها فخرج إليه
الفقهاء وسألوه السكف عن ذلك فانصرف عنها ، ثم علم أن أهل
الإسكندرية أخرجوا عامله ، ودعوا للسرى ، فسار إليهم في رمضان
سنة وثلاث مائتين ، وثار القبط بسخا فزهمهم الجروى فمدحه المعلى
الطائي يخاطب الخليفة المأمون .

قل لأمبر المؤمنين نصيحة وما حاضر شيتنا كأخر غائب
لقد حاطنا عبد العزيز بسيفه ولولاه كنا بين قتل وناهب
وسار الجروى إلى الإسكندرية فقتل في سنة خمس ومائتين واستطاع
السرى أن يهزم سلامة الطحاوى التائر بالصعيد ، وفي ذلك قال المعلى

(١) هو طاهر بن الحسين قائد المأمون

أراد الطحاوي التي لا شوى لها فأوقد نارا كان بالنار صاليا
 ودب لأقطار البلاد بفتنة فحاشت بسقم لا يجيب المداويا
 وراسله من كان يحق بفاقة وأصبح ذاميل إليه بماليا
 جنت ما استحق القتل يا صاح كفه وكل امرئ يحزى بما كان جانبا
 وتوفي السرى بالفسطاط بعد قتل الجروى بثلاثة أشهر وولى بعده
 ابنه أبو النصر بن السرى ، وكان على بن عبد العزيز الجروى قد خلف
 أباه ، فأرسل ابن السرى جيشا لمحاربة ابن الجروى ولكن هزم
 هذا الجيش ، واكتفى ابن الجروى بذلك فلم يتبع الجيش المنهزم ،
 وحق بعض المصريين عليه لذلك وظهر هذا في قول سعيد بن عفير
 يخاطب ابن الجروى .

ألا من مبلغ عني عليا رسالة من يلوك على الركوك
 علام حبست جمعك مستكفا وبشطينوف ، في ضحك ضحك
 وقد سنحت لك الغفران ممن رماك بجيشه الوهن الركيك
 أمر بقيا فلا بقيا لمن لا يراها عند فرصته عليك

وفي سنة سبع ومائتين أرسل المأمون خالد بن يزيد بن مزيد
 الشيباني واليا على مصر فامتنع ابن السرى من تسليمها وحاربه ، فانضم
 ابن الجروى إلى جيش خالد ، واستمر القتال مدة طويلة ، فل
 الجيشان الحرب ، وحدث أن ارتفع النيل في هذا الوقت فسار خالد
 إلى الحوف ، فلما رأى ابن الجروى ذلك أراد أن يخرج خالد بن
 يزيد عن ملكه ، ففكر به حتى أنزله «نهما» وهناك تركه ابن الجروى
 في جهد وصفه المعل بقوله :

سلا خالدا لما انجلي عنه شكه وأسليه في عدوة البحر خاذله
فوالت أمانيه غداة سما لنا بعارض جيش يطر الموت وابله
فلما انكشف النيل سار ابن السرى إلى خالد وحاربه فأسر
خالد وفي ذلك قال المعلی :

ألا لأرى خيلاً أضرم له الوغى وأجبن في الهيجاء من خيل خالد
وقواده أشرار كل قبيصة تمالوا على إسلامه في الشدائد
فما أسروا منه جباناً معضداً ولكن أباشلين عبل السواعد
فان يقتلوه يقتلوا منه سيداً شجاعاً جواداً ماجداً وابن ماجد
وإن كففوا عن قتله فهيمنة لآل سري في مناطق القلائد
ولما رأى المأمون هذه الثورات والفتن قسم مصر بين ابن السرى
وابن الجروى فولى كل واحد منهما ما في يديه ، فأقبل ابن الجروى
على جمع الخراج فقاومه قوم من أهل الخوف وكتبوا إلى ابن السرى
يستعدونه على ابن الجروى ، فتقابل الجيشان في « بلقين » واستمر
القتال طويلاً حتى اضطر ابن الجروى إلى أن يفر إلى دمياط وفي
ذلك قال المعلی :

ألا هل أتى أهل العراق وقعة لنا بحمي بلقين شيت الولدا
وما كان منا قتلهم عن جهالة خطاء ولكننا قتلناهم عمدا
ولما تبينت المنية في القنا تكصت تنادحين ضل النداسعدا
فوليت على ربح المحلة هارباً على أبله ما يركب الجور والقصدا
فكيف رأيت الله أنزل نصره علينا وولاك المذلة والطرदा
سهندي إلى المأمون منا نصائحاً نضمها طي الصحائف والبردا

بفعل على والذي كان مجعاً عليه ياظهار الخلاف الذي أبدا
وسار ابن السرى إلى تنيس ودمياط واضطر ابن الجروى إلى
أن يهرب إلى الفرما والعريش فخطبته سعيد بن عفير بقوله .

ألا يا على بن العزيز إلى أين صرت تريد الفرارا
فلست بأول من كاده عدو فكر عليه اعتكرا
وأجر مصيرك أن يسحبوا إليك فتوحا عظاما كبارا
فتدرك ثارك من أهله وتلبس بعد الكبو الفسارا (١)

فلما سمع ذلك ابن الجروى أغار على الفرما سنة تسع ومائتين
وهرب أصحاب ابن السرى من تنيس ودمياط . وسار ابن الجروى
حتى قابل جيش ابن السرى بشطنوف فهزم ابن الجروى ولحق
بالعريش فدح المعل الطائى ابن السرى بقوله :

ألم تر خيله صبحت عليا تدف على مناسجها النساء
فولى عن عساكره وخلى على الأسل المدائن والرباعا
ولكن فات فوق أقب نهد كرجع الطرف لا يخشى اصطلاعا
فحسبك أن قومك من جذام وسعد لا ترى لهم اجتماعا
دعتهم طاعة لك فاستجابوا ومن عجب لمثلك أن يطاعا

وعاد ابن الجروى مرة أخرى سنة عشر ومائتين فملك تنيس
ودمياط وهزم جيش ابن السرى ، ولم تهدأ هذه الفتن حتى دخل
عبدالله بن طاهر مصر سنة إحدى عشرة ومائتين وأخذها من ابن
السرى ، كما خضع له ابن الجروى .

* * *

(١) الفسار . عرب كلمة فارسية (أفسر) بمعنى التاج

وقامت في مصر فتن أخرى من أجل السلطان بين الأمويين
والعباسيين ، ويحدثنا ياقوت أنه في أيام المهدي خرج دحية الأموي
بمصر ودعا لنفسه واستمر في دعوته إلى أيام الهادي وكانت الدولة
ترسل إليه الجيوش فلم تستطع قهره وكانت نعم أم ولد دحية تقاتل
في طليعة الجيش لاسيما في واقعة بويط وفي هذا قال شاعرهم :

فلا ترجعني يا نعم عن جيش ظالم يقود جيوش الظالمين ويحنب
وكرى بناطردأ على كل سانح إلينا منايا الكافرين تقرب
كيوم لنا لازلت أذكر يومنا بفاو ويوم في بويط عصبص
ويوم بأعلى الدير كانت نخوسه على فنة الفضل بن صالح تتعب^{١)}

فهذه أشعار قيلت في حروب بين جيش الثائرين وجيوش الخليفة
ولو لم تحفظ هذه الأشعار ما كنا نعلم شيئا عن هذه الوقائع فإن كتب
التاريخ التي وصلتنا لم تذكر تفاصيل هذه الحروب بل أغفلتها ولكن الشعراء
يفخرون دائما بما يحرزه أهلهم من نصر فيسجلون الوقائع في شعارهم .
ونلاحظ أن الشاعر استعمل في الآيات السابقة كلمة أيام التي
كان يستعملها العرب منذ الجاهلية .

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحوادث السياسية المصرية ،
والحروب الداخلية التي كانت في هذا العصر ، قد أثرت في الأدب أثرا
كبيرا ، فقد اضطرب الشعراء إلى أن يسجلوا هذه الحروب ، وأن يدافعوا
عن المتحاربين ، ولكن أكثر هذا الشعر فقد ولو قدر لهذا الشعر البقاء
لكان أصدق مرآة لهذه الحوادث الكثيرة المضطربة ، ولكن الذي
وصلنا منه قدر يسير ، يعطينا صورة مصغرة مشوهة لهذه الحوادث

ب - فتنة العصية العربية :

ولعل أصدق صورة لعصية القبائل في مصر هي هذه الحادثة التي ظهرت فيها العادات الجاهلية القديمة بأجلى مظاهرها . تلك هي حادثة « فرس مراد » المعروفة « بقضية جناح والزعفران » ، ذلك أن عشيرة « مراد » كان لهم فرس يفخرون بها ويسمونها الزعفران ، فأخرجت الفرس يوم الرهان ، كما أخرجت عشيرة « يحصب » فرسا لهم تسمى الجناح ، وجعل كل فريق لصاحبه الفرس المسبوق ، وجعلوا للسباق غاية ، فخرج الطائفتان ومعهم عامة أهل مصر ، فكان السابق فرس مراد في أول الأمر حتى كادت تدخل الغاية ، فخرج كين من يحصب وضرب وجه الزعفران فتحيرت الفرس ، فسبقها الجناح إلى دخول الغاية . ساء مرادا ذلك واستلوا سيوفهم واقتل الطائفتان قتالا عنيفا حتى اضطر الأمير ليث بن فضل إلى أن يخرج إليهم ويحجز بينهم وأحال أمرهم إلى القاضي عبدالرحمن العمرى الذى ولى سنة ١١٨٥ هـ وقد عرف هذا القاضى بحبه للبال وأخذه الرشوة ؛ فأنت يحصب بأموال عظيمة إلى القاضى ، فحكم لهم بالفرس ودفع إليهم الزعفران ولسكن استمر النزاع حتى ولى القضاء القاضى البكرى الذى ولى سنة ١١٩٤ هـ فرد الفرس إلى مراد . هذا الحادث يذكرنا بصورة لها في أيام الجاهليين هي قصة داحس والغبراء ، وكما كثر شعر الجاهليين في قصتهم أنشد المصريون شعرا في قصتهم ولا سيما أن القاضى العمرى كان مكروها من المصريين ، ونقم عليه الشعراء فأخذوا هذا الحادث وسيلة إلى هجائه ، فن ذلك قول يحيى الخولاني (١) .

(١) السكندى ص ٤٠٢ وما بعدها .

إن كان مهر أخى زوف أفات به ريب الزمان عليه جور زنديق
فكم يد لبني زوف وإخوتهم في آل فهر تغص الشيخ بالريق
إن حاكم عمرى جار فى فرس فسوف يرجعه عدل ابن صديق
ومن الطبعي أن نجد شعراء آخرين دافعوا عن القاضى العمرى
فى هذه القضية ، فمن ذلك قول عبد الله بن بجيرة من ولد معاوية بن
حديج يرد على الشاعر يحيى الخولاني :

طلبت فما نلت حسن الطلب ورمت عظيما ولما تصب
وعولت موتا على رميم بقوس الضلال ونبل الكذب
فإن كان فى فرس عتبكم فعندى لكم فرس من قصب
ولأفهر ككريم النجار قليل العظام كثير العصب
فأجابه يحيى :

ألا أيها الشاعر المتدب يحامى عن العمرى العطب
ورامى مراد وخولانها بنبل الجهل غير الصيب
لعمرك ما أنقص العمرى من الناس إلا كريم الحسب
ملا الأرض جوراً بأحكامه وأظهر فيها جميع الريب

ومن العصية القبلية أيضا غر الحضارمة إذا ولى أحدهم فى سنة
تسع وتسعين ومائة ولى القضاء لميعة بن عيسى الحضرمى فقال شاعرهم
لقد ولى القضاء بكل أرض من الغر الحضارمة الكرام
رجال ليس مثلهم رجال من الصيد الجاحجة الضخام^(١)

وقال يزيد بن مقسم الصدقي

يا حضرموت هنيئاً ما خصصت به من الحكومة بين العجم والعرب
في الجاهلية والإسلام بعرفه أهل الرواية والتفتيش والطلب

ح - فتن بين العرب والمصريين :

ولون آخر من ألوان العصية العربية هو سمو العرب بأنفسهم وتعاليمهم
على غيرهم من الشعوب ، حتى على من أسلم من هذه الشعوب ، فقد كون
العرب في مصر طبقة أرستقراطية - إن صح هذا التعبير - لم تقبل أن
يسمو إليها المصريون ، ولذا كانت العلاقات بين العرب والمصريين سيئة
في العصر العباسي وقام القبط بثورات عنيفة ابتغاء طلب المساواة بالعرب
ولكن هؤلاء استطاعوا أن يخمّدوا الثورات المتوالية ، ونلمح من
الاشعار التي وصلتنا عن هذه الاضطرابات كيف كان العرب يترفعون
على المصريين ، حتى اضطر من أسلم منهم إلى أن يتخذ لنفسه نسباً عربياً
حتى يتساوى بالعرب ، ولكن عرب مصر رفضوا أن ينتسب غير
عربي إليهم ، ولعل قضية أهل الحرس تبين علاقة العرب بالمصريين
ذلك أن جماعة من القبط أسلموا وعرفوا بأهل الحرس ، تحرش
العرب بهؤلاء القوم وآذوهم فجمع أهل الحرس من بينهم نقوداً
دفعوها إلى القاضي العمري ليثبت لهم نسباً عربياً ، وخرج بعضهم
إلى الرشيد ببغداد يدعون له نسباً ، كما أتوا بجمع من أعراب
الخوف الشرقي وبعض أعراب الشام ورشوهم بالمال فشهدوا أمام
القاضي أن أهل الحرس من العرب وأن نسبهم إلى بني حوتكة
(من قضاة) فقبل القاضي شهادتهم إلا شهادة حوى بن حوى بن

معاذ العنرى ، وسجل لهم نسباً بذلك قثار عرب مصر ، وقام
الشعراء يهجون القاضى وأهل الحرس ، من ذلك قول يحيى الخولانى
فى هجاء حوى :

يأليت أم حوى لم تلد ذكراً أوليت أن حوياً كان ذا خرس
كما قضاة عاراً فى شهادته لله در حوى شاهد الحرس
شهادة رجعت لونها قبلت لألحق الزور منها العير بالفرس
وقول يحيى الخولانى أيضاً :

ومن أعجب الأشياء أن عصابة من القبط فىنا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا أبونا حوتك ، وأبوهم من القبط علج حبله يتذبذب
وجاموا بأجلاف من الخوف فادعوا
بأنهم منهم سفاهاً وأجلبوا
ألا لعن الرحمن من كان راضياً

بهم رغماً ما دامت الشمس تغرب (١)

وقال معلى بن المعلى الطائى فى هجاء القاضى العمرى :

كم كم تطول فى قسرانك والجور يضحك من صلاتك
تقضى نهارك بالهوى وتبيت بين مغنياتك
فاشرب على صرف الزمان بما ارتشيت من الحوائك
إن كنت قد ألحقهم عرباً فزوجهم بناتك
وليكشفن بما أتيت صدور قوم عن مساتك
وكأنتى بمنيسة تسعى إليك بكف فاتك

أفقرته من ماله بقضية أو لم يؤاتك
لا تعجلن أبا الندى حتى تصير إلى وفاتك
إن المقامع تطلقن من الجحيم إلى ممالك
بل لو ملكك لسان أكرم ما وصلت إلى صفاتك ^(١)

ونلاحظ أن الشاعر هنا كنى القاضى بأبي الندى وهى كنية اللص
الذى ظهر سنة إحدى وتسعين ومائة ، وثم تراه قسّمكم بالقاضى إذ دعاه
أن يزوج أهل الحرس من بناته ، وهو حكم وضعى سار عليه المسلمون
حتى أصبح من الأحكام الفقهية ذلك أن المولى لا يزوج عرية ، وبعد
أن عزل القاضى العمرى أرسل عرب مصر وفداً الى الخليفة الأمين
فذكروا له ما فعل العمرى بأهل الحرس فكتب الأمين الى القاضى
البكرى يأمره أن لا يمنح أحداً من غير العرب اللحاق بالعرب ، وأن
يرد أهل الحرس إلى ما كانوا عليه من أنسابهم ، فأمر البكرى أهل
الحرس بإقامة البيعة ، وجمع بعض أهل القناعة والعدالة من مصر
فشهدوا أن أهل الحرس من القبط الذين أسلموا ، فردم القاضى
إلى أصلهم ومزق سجلهم ، ففرح عرب مصر بذلك وقال معلى الطائى :

يا بنى البظراء موتوا كسداً واستخواناً بآبئ خريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم من بنى العباس طرا لفعل
لكن الرحمن قد صيركم قبط مصر من القبط سفلى
كيف يا قبط تكونوا عرباً ومريس أصلكم شر الجليل
وقال أبو رجب العلاء بن عاصم الخولانى

ولقد قمت بنى الحباث عندما راموا العلا وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطا إلى آباثهم ونسبت أصلهم الذى قد غيبوا
وتركتهم مثلا لكل ملصق نسباً إذا التقت المحافل يضرب
وقال يحيى الخولاني .

اشكروا الله على إحسانه فله الحمد كثيراً والرجب
رجع القبط إلى أصلهم بعد خزي طوقه وتعب
ودنانير رشوها قاضيا جائرا قد كان فينا يقتصب
أخذ الأموال منهم خدعة وتولى عنهم ثم هرب
أبلغ البكرى عنى أنه عادل في الحكم فراج الكرب^(١)

كانت روح العصية العربية ظاهرة واضحة أيام الامويين
والعباسيين مما جعل القبط يشورتون ، وكان أشد هذه الثورات أيام
المأمون ، إذ اضطر الخليفة نفسه إلى أن يحضر إلى مصر ، وأن يجمع
هذه الفتن بشدة وحزم فلم يبق بعدها للبصريين قائمة ، ثم أن العرب
وجدوا أنفسهم في عهد المعتصم محرومين مما كان لهم من مزايا
فخدمت روح العصية وصار العرب كالمصريين سواء بسواء ،
وبالرغم من أن بعض العلماء عطفوا على من أسلم من المصريين
وعاملوهم كالعرب فولوا بعضهم الأعمال الهامة في الدولة ، ولكن
هذا لم يرض جمهور العرب فسخطوا ، من ذلك ما روى أن بعض من
أسلم من القبط وجد عطفًا من القاضي طهية بن عيسى ، الذى ولى

(١) راجع قضية أهل الحرس بكتاب الولاية والنفاذ للسكندى من ٣٩٧ - ٣٩٩

قضاء مصر مرتين في عهد المأمون ، فقد فسخ هذا القاضي مجلسه
للمصريين ، وألان جانبه لهم وألحق طائفة منهم في أعمال الدولة ، فأُسند
كتابة القضاء إلى سعيد بن تليد — وكانت كتابة القضاء في ذلك العهد
من أسمى ما يصبو إليه الفقهاء — كما اتخذ شهوداً جعلهم بطائفة منهم
معاوية الأسواني وسليمان بن برد وغيرهما في نحو من ثلاثين رجلاً
فتقول العرب في القاضي مع علمهم بعلمه ودينه وسمو منزلته ، وقد ظهر
أقوال المصريين في أشعارهم من ذلك ما قاله الشاعر أبو شبيب
أنيس بن دارم .

قبح الله زماناً راس فيه ابن تليد
بعد مقرض وخيط وأبيرات حديد
وأبو الزنباع خناق غراميل العبيد
بعد سيف خشبي وسهام من حديد
وابن تدراق الأفانين البليد بن البليد
وابن بكار كرا كبير وغطاس الثريد
وأبو الروس المريسى بن دباغ الجلود
واللقيط ابن بكير نطقة القدم الطريد
وابن سهم حارس الجيزة حلوان البريد
عصبة من طينة النيل ميامين الحدود
لبسوا بعد التباين نفيسات البرود
لازموا المسجد ضلاً لا من الأمر الرشيد
لحوانيت بنوها بفنا كل عمود

وتسوموا وتكنوا بعد جرح وشنود
والأحوا بجباه من نطاح الحصر سود
تحت أميال طوال كبراطيل اليهود
نصبوها كالمقاعيد على روس القروء
وترام للوصايا وعدالات الشهود
في مرأ وجدال وقيام وقعود
وخشوع وإتهال وركوع وسجود
على القسمة أضرى من تماسيح الصعيد
وأشاروا للهدايا بأبي عبد الحميد (١)

ومن ذلك أيضاً ما روى في قضية « ابن القطاس » فقد كان سعيد
ابن زياد الملقب بابن القطاس من عرف بين المصريين بالعلم والفضل
وكان أحد الشهود الذين قبل بعض القضاة أمثال طيعة بن عيسى
وابن المنكدر وغيرهما شهادته، كما كان أحد الذين يتولون التدريس
في المسجد، فلما ولي محمد بن أبي الليث قضاء مصر رماه ابن القطاس
بالبدعة، ودعا عليه، فنقل ذلك إلى القاضي، وأتى إلى القاضي من
ذكر له أن ابن القطاس مولى لم يجر عليه عتق، وشهد آخرون بأنه
مولى رجل من الأزد يقال له ابن الأبرش، وادعى ابن الأبرش
رقبته، فأمر القاضي بحبس ابن القطاس خمسة أيام ونودي عليه في
سوق الرقيق فاشتراه القاضي بدينار وأعتقه، وفي ذلك قال الجمل
في مدح القاضي .

وبطشت بالقطوس بطشة قائم بالحق غير مقصر ومبذر
مازلت تفحص عن أمور شهوده في السر والعلن المبين الأظهر
فربطته في رقة ومنعته وطأ الحرائر وهو غير محر
هذا النداء ، وهذه هاد لهم إن جاء فيه بغير فلس أقشر
يفق وينظر في المكاتب دائبا والعبد غير مكاتب ومدير^(١)
ومما لاشك فيه أن المصريين أنشدوا شعراً كثيراً جداً في
علاقة عرب مصر بالمصريين ولكن هذا الشعر فقد ولم يبق منه إلا
قدر يسير قد ذكرنا أكثره .

أثر محنة خلق القرآن

أصاب مصر من فتنة خلق القرآن ما أصاب الأقطار الإسلامية
الأخرى ، فقد روى السكندی أن المأمون طلب إلى أخيه أبي إسحق
المعتصم أن يكتب إلى نصر بن عبدالله كيدر نائبه على مصر أن يمتحن
القضاة والشهود فن أقر منهم أن القرآن مخلوق وكان عدلا قبلت
شهادته وأقر بموضعه ، وكان القاضي بمصر إذ ذاك هرون بن عبدالله
فامتحن وأقر بأن القرآن مخلوق ، وتبعه عامة الشهود وبعض الفقهاء
وهرب منهم من لم يوافق ، وورد كتاب المعتصم على القاضي هرون
بحمل الفقهاء في المحنة فاستعفى هرون من ذلك ، فكتب ابن أبي
دؤاد إلى محمد بن أبي الليث بالقيام في المحنة ، وذلك قبل ولايته
القضاء ، فحمل البويطي وخشنام المحدث في جمع كثير غيرهما ، ولما

ولى الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين أمر أن يأخذ الناس بالحنة
 وورد كتابه على ابن أبي الليث الذى ولى القضاء سنة ست وعشرين
 ومائتين ، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا معلم حتى أخذ بالحنة
 وهرب كثير من الناس وملئت السجون بمن أنكر الحنة ، كان «مطر»
 غلام ابن أبي الليث يأخذ قلائس العلماء أمثال هرون بن سعيد
 الأبلى ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم وغيرهما ويسوقهم بعمائمهم ،
 وفى هذا كله أنشد شعراء مصر ، فمن ذلك ما قاله الحسين بن
 عبد السلام المعروف بالجلل الأكبر وكان منقطعاً إلى مدح القاضى
 ابن أبي الليث فى ذلك العصر .

خميت قول أبى حنيفة بالهدى ومحمد واليوسفى الاذكر
 وفى أبى ليلى وقول فريقهم زفر القياس أخى الحجاج الأنظر
 وحطمت قول الشافعى وصحبه ومقالة ابن علية لم تضجر
 والمالكية بعد ذكر شائع أخملتها فكأنها لم تذكر
 أعطتك السنة أتاك ضميرها وأتاك السنة بما لم تذكر
 فأطفت بالأبلى (١) ينق صائحا فى كل مجمع مشهد أو محضر
 ومحمد الحكيم (٢) أنت أطفته وأخوه ينق بالصباح الأجر
 كل ينادى بالقران وخلقه فشهرتهم بمقالة لم تشهر
 لم ترض أن نطق بها أفواههم حتى المساجد خلقة لم تنكر (٣)
 لما أريتهم الردى متصوراً زعموا بأن الله غير مصور (٤)

(١) هو هرون بن سعيد الأبلى (٢) هو محمد بن عبدالله بن عبد الحكم

(٣) أمر القاضي ابن أبى الليث أن يكتب على المساجد بالفسطاط لا إله الا الله رب القرآن
 المخلوق فالشاعر أشار فى هذا البيت إلى ذلك .

(٤) الكندى ص ٥٤٧ - ٥٥٣

وكان أحمد بن صالح قد هرب إلى اليمن في هذه المحنة ، ولزم يوسف ابن أبي طيبة منزله ولم يظهر ، وحاول محمد بن سالم القطان الحرب ولكن ظفربه فحمل إلى العراق ، وهرب ذو النون المصري ثم رأى أن يرجع فأقر بالمحنة وإلى هذا كله أشار الجمل بقوله :

أحجرت يوسف في خزانة بيته فطوته عنك وطالم لم يحجر
كفرت بك الأرضون حين سألتها خبر ابن صالح الحيث الأكر
جحدته أقطار البلاد فما على حركاته وسكونه من مظهر
وثوى ابن سالم خفية في بيته ثم امتطى غلس الظلام الأستر
فأق به كهرجج أو كأبي الندى والناس بن مهال ومكبر (١)

وأخذ القاضي في اضطهاد الفقهاء من ذلك أن الفقهاء ، وشيوخ مصر إذ ذاك كانوا يرتدون القلائس الطوال ويبالغون فيها ، فأمرهم ابن أبي الليث بتركها ، ومنعهم من لباسها وأمرهم أن يتشبهوا بزي القاضي فلم يأبهوا بأمره ، فانتظر حتى أتى إليه عدد منهم وهو في مجلس حكمه فأمر غلاميه عبد الغني ومطرا أن يضربا رؤوس الشيوخ حتى ألقوا قلائسهم على الأرض ، وأخذها الصبيان والرعاع يلعبون بها وفي ذلك قال الجمل :

وأخفت أيام الطوال وأهلها فرموا بكل طويلة لم تقصر
ما زلت تأخذهم بطرح طوالهم والمشى نحوك بالرؤوس الحسبر
حتى تركتهم يرون لباسهم بعد الجمال خطيئة لم تغفر
يتفزعون بكل قطعة خرقة يحدونها من أعين ومخبر

فاذا خلاهم المكان مشوا بها وتأبطوها في المكان الأعمر
فلئن ذعرت طوالهم فلطالما ذعرت ومن مروا بها لم يذعر
لبسوا الطوال لكل يوم شهادة ولقوا القضاء بمشية وتبخر
مالى أراهم مطرقين كأنما دمغت رؤوسهم نجمى خبير^(١)
هذا بعض ما وصلنا عن محنة الفقهاء في مصر ومن يدرى لعل
المصريين أنشدوا في ذلك شعرا كثيرا يخالفون به المعتزلة لاسيما في
مسألة خلق القرآن ، إذ كان للمعتزلة في مصر حلقة زعيمها ابن صبيح^(٢)
كانت تدافع عن خلق القرآن ، ولكن يميل إلى أن مذهب المعتزلة
لم يجد له مكانا في نفوس المصريين حتى أن سيويه المصرى كان
يقف في جمع كثير ، وفي الحاضرين أبو عمران موسى بن رباح الفارسي
المتكلم وأحد شيوخ المعتزلة بمصر ، فكان سيويه يصيح ويقول :
الدار دار كفر ، حسبكم أنه ما بقى في هذا البلد العظيمة أحد يقول
القرآن مخلوق إلا أنا وهذا الشيخ أبو عمران ، فقام أبو عمران
يعدو حافيا خوفا على نفسه حتى لحقه رجل بنعله^(٣)

بعض أغراض الشعر

لم تكن هذه كل أغراض الشعر المصرى في هذا العصر بل نجد
بجانب ذلك شعرا قيل في المدح والهجاء والرثاء أى في الأغراض
التي لاتصل إلا بالشاعر وعواطفه وميوله ، وليس بعجيب أن نرى
هذه الأغراض في الشعر المصرى ، فكل الشعر العربى في جميع
عصوره لم يخل منها ، ففي الجاهلية نرى الشعراء يمدحون ولكن

(١) الكندى ص ٤٦١ (٢) النضاه للكندى ص ٤٥٢

(٣) أخبار سيويه المصرى لابن زولاق ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

مدحهم كان أقرب إلى الواقع ، وأبعد عن المبالغة ، ثم أخذ المدح يزداد مبالغة بازدياد الحضارة والركون إلى الرخاء واضطر الشعراء إلى التزلف والتلق حتى ينالوا حظوة عند الأمراء والخلفاء . وفي الشعر المصري نجد بعض الشعراء يقربون من شعراء الجاهليين في صدق مدحهم ولا يسرفون في وصف الممدوح بما ليس فيه ، فشر سعيد بن عفير كان قريب الشبه من شعر زهير بن أبي سلمى الجاهلي كلاهما لم يمدح بقصد النوال ، وكلاهما كان يمدح خصال الرجل وخلقه أكثر من أى شيء آخر ولا لشيء ، ففي مدح سعيد لهبيرة ابن هشام الذى عذب وكاد يقتل لأنه أجاز إبراهيم الطائي التأثير على الوالى المطلب الخزاعي ولم يقبل هبيرة أن يسلم إبراهيم للوالى ، نرى الشاعر قد شبه هبيرة بالسموأل بن عاديأ فى الوفاء . ومدحه بجلبده على تحمل العذاب فى سبيل ذلك الوفاء

لعمري لقد أوفى ، وفاق وفاؤه هبيرة فى الطائي وفاء السماأل
وقاه المنايا إذ أتاه بنفسه وقد برقت فى عارض متهلل
فما انفك محبوسا ومطلب له عليه قصيف بالوعيد المهول
فازاده الإبعاد إلا توقرا وصبرا ولم يخشع ولم يتفكل
إلى أن تجملت عنه أبيض ماجد كريم الثنا فى المشهد المتدخل (١)
فسعيد هنا يمدح رجلا كريما وفيا ، ليس له سلطان ولا إمرة ،
ولم يطمع فيما كانت تصبو إليه نفوس الشعراء الآخرين . ونجد من
ناحية أخرى بين الشعراء المصريين من تكسب بشعره كالشاعر المتلى
الطائي الذى اتصل بكثير من الولاة والأمراء ومدحهم ، بل كان

لا يتخرج من أن يمدح أحدهم ثم يمدح عدوه إذا صار الأمر بيد ذلك
العدو ، من ذلك ما قيل إنه اتصل بالسرى وابنه ومدحهما ، وكانا
ثائرين على الولاة ، ثم وقف بين يدي عبد الله بن طاهر تحت المنبر
وقال له : أصلح الله الأمير أنا المعلى الطائى ، وقد بلغ منى من جفاء
وغلظ فلا يغلظن على قلبك ، ولا يستخفنك الذى بلغك ، أنا
الذى أقول :

يا أعظم الناس عفواً عند مقدرة
وأظلم الناس عند الجود للمال
لو أصبح النيل يجرى ماؤه ذهباً
لما أشرت إلى خزن بمثقال
تغلى بما فيه رق الحمد تملكه
وليس شيء أعاض الحمد بالنال
تفك باليسر كف العسر من زمن
إذا استطال على قوم بإقلال
لم تخل كفك من جود لمحتبط
ومرهف قاتل فى رأس قتال
وما بثت رعيال الخيل فى بلد
إلا عصفن بأرزاق وآجال
إن كنت منك على بال مننت به
فإن شكرك من قلبى على بالى^(١)

فسر الوالى وأجزل عطاءه ، فالشاعر مدحه لجوده وطعمه فى صلاته . ولعل أكثر شعراء هذا العصر تكسبا بالشعر هو الحسين ابن عبد السلام الشهير « بالجل الأكر » ، إذ اتصل بالقاضى محمد ابن أبى الليث ومدحه ولم يأبه لصوت المصريين الذين سخطوا على القاضى لسوء معاملته — وقدما مثلاً من ذلك كله فى حديثنا عن محنة خلق القرآن — ثم نراه يتصل بأحمد بن المدبر والى خراج مصر ، ويطلب منه العطاء كما كان يفعل مروان بن أبى حفصة مع معن بن زائدة الشيبانى ، فقد قيل إن ابن المدبر كان من عادته أنه إذا مدحه شاعر ولم يرض بشعره ، أمر من يحمله إلى المسجد وأمره أن يصلى عدداً معلوماً يفرضه عليه ، فعرف الشعراء ذلك فدخل عليه الجمل الأكبر وأنشده :

قصداً فى أبى حسن مديحاً كما بالمدح تنتجع الولاية
فقلنا أكرم الثقلين طراً ومن كفيه دجلة والفرات
فقالوا يقبل المدحات لكن جوائزه عليهن الصلاة
فقلت لهم وما تغنى صلاتى عيالى إنما تغنى الزكاة
فأما إذ أبى إلا صلاتى وعاقبتى الهموم الشاغلان
فيأمر لى بكسر الصاد منها فتصبح لى الصلاة هى الصلات
فيصلح لى على هذا حياى ويصلح لى على هذا الممات (١)
وظل هذا الشاعر يتكسب بالمدح حتى ولى أحمد بن طولون
قآثره بمدحه وأخذ عطاءه ، فاعتبره كثير من المؤرخين شاعر ابن

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨١ (المطبعة الرحمانية) ونحفة المجالس السيولى

طولون ولكن المنية عاجلت الشاعر في أوائل حكم الطولونيين أى
في سنة ثمان وخمسين ومائتين .

لأنكاد نجد بين أيدينا من الشعر الذى بقى لنا من هذا العصر معانى
جديدة فى المصح بل اتخذ شعراء مصر نفس المعانى التى اتخذها غيرهم
من شعراء العرب من وصف الممدوح بالجلود والكرم والشجاعة ،
ولأنكاد نجد إلا أثرا قليلا لمصر فى هذا الشعر الذى رأيناه فى شعر
المعلى من ذكر ، النيل ولعل روح الفكاهة المصرية قد أثرت أيضاً فى
شعر الشعراء كالذى نراه فى الآيات التى رويناهما للجمل فى مدح ابن المدبر
كذلك نستطيع أن نقول عن الهجاء فقد رأينا كيف كان الشعراء
يهجون الولاة والقضاة فى مصر ، ويحسون مساوئهم وأكث شعراء
هذا العصر هجاء هو الشاعر يحيى الخولاني الذى وقف بالمرصاد
للقاضى العمرى فرماه بالرشوة ، وكناه أبا الندى . وهى كنية مصرية
خالصة لم يعرفها شعراء العرب ، ولم يذكرها إلا المصريون ، وهجاء
أيضا بأنه كان يجب سماع الغناء وفى ذلك يقول الشاعر يحيى .

مرينا راكب على فرس

يا من رأى هربذا^(١) على فرس

فقلت : من ذا اللعين ؟ قيل أبو

الندا غدا مسرعا إلى عرس

كما يرى قينة ذكرت بها

تشدو بصوت يخال كالجرس

أصبح فى المخزيات منغمسا

وليس فى غيرها بمنغمس^(٢)

(١) هربذا كزبرج مفرد هرابذة قومة بيت النار للهند وخدم نار الجوس .

(٢) الولاة والقضاة ص ٤٠٠

كذلك الشاعر يحيى بن الفضيل الذى هجا الوالى غنبة بن اسحق
الضبي ، ورماه بدين الخوارج وبالجنون « لأن الوالى كان يذهب
الى المسجد وهو ينادى فى شهر رمضان بالسحور ، فلم يعجب الشاعر
ذلك وأرسل إلى الخليفة يقول :

من فتى يبلغ الإمام كتابا عرييا ويقتضيه الجوابا
بئس والله ما صنعت النساء حين ولينا أميراً مصابا
خارجيا يدين بالسيف فينا ويرى قلنا جميعا صوابا
مر يمشى إلى الصلاة نهارا • وينادى السحور ضل وخابا^(١)
والشاعر اسحق بن معاذ بن مجاهد هجا القاضى المفضل بن فضالة
فقال :

خف الله وارقد واتد يا مفضل
فإنك عن فصل القضاء ستسأل
وإنك موقوف به ومحاسب
فدونك ، فانظر كيف فى الحكم تفعل
أفى العدل أن أقصى وأخرج متبعا
وتدنى بفضل منك خصمى وتدخل
ويفتح إن يدنو له الباب جهرة
ويخلق دونى إن دنوت ويقلل
وتقبل منه فى مغيبى شهوده
ويبتلى لست إذا غاب تقبل
فها أنذا أصبحت خصمك فى الذى
قضيت به والحق ما ليس بجمل

فاصنع إلى السمع منك وأنتني
بأى وجوه الفقه أصبحت تعمل (١)
وقول سعيد بن عفير في هجاء الوالى الحسين بن جميل سنة
تسعين ومائة
ما كنت أحسب أن الحين يجمع ما
أمسى بمصر من الأندال في الامر
أما الأمير فحناج وصاحبه
على الخراج سوادى من الأكر
هذا الهنائى (٢) من الفسطاط يخلفه
والباهلى (٣) على أعماله الآخر
كل لصاحبه شكل يلائمه
فهم سواسية في اللؤم كالخمر
وما هناة إلا ظلف ذى يمن
والباهليون مأوى اللؤم من مضر
فما يسوغ لنا عيش فينفعنا
مع مانرى لهم من رقة الخطر (٤)
ولم يصلنا شيء من الهجاء بين الشعراء كالذى نراه بين شعراء

(١) الكندى ص ٣٨٠ — ٣٨١

(٢) الهنائى هو كامل الهنائى الذى ولى الشرطة في ذلك الوقت

(٣) الباهلى هو معاوية بن صرد الذى ولى الشرطة بعد الهنائى

(٤) الكندى ص ١٤٢ — ١٤٣

الانقطاع الإسلامية الأخرى ، والهجاء الذى وصلنا يكاد يكون ذمماً
للهجو دون تعريض بأسرته ، فلم يسرفوا فى الهجاء كما لم يسرفوا
فى المدح .

أما الرثاء ، فالمعروف أن من عادة المصريين منذ القدم الإسراف
فى البكاء والنحيب والويل حزناً لوفاة قريب أو صديق ، وشعراء
العرب كانوا يسرفون فى الرثاء ويكفون ، ولكن ما وصلنا من الشعر
المصرى فى الرثاء يختلف تمام الاختلاف عن عادة المصريين وشعراء
العرب ، فقد قصر شعراء مصر رثاءهم على سرد مناقب الميت ،
وكيف لاقى الموت بشجاعة وجلد ، ويتلقى الشاعر نحي الميت بصبر ،
علماً أن هذا مصير كل حى كقول الشاعر سعيد بن عفير .

سأقت عمير إلى مصر منيته يا مرة لم يكن فيها بمسعود
حتى أتته المنايا وهو ملتحف ثوبين من حبرات البأس والجلود
فاذهب حميداً فلا تبعد فكل قتي يوماً وإن كرمت أفعاله يودى^(١)

وقول سعيد أيضاً فى رثاء هبيرة بن هشام بن حديج الذى قتل
فى حروبه مع السرى سنة مائتين :

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاقَى هُبَيْرَةُ حَشْفَهُ
بِأَفْضَلِ مَا تُلْطِقُ الْحَتُوفُ السَّوَارِعُ
بِأَنْفِ حَمِيٍّ لَمْ تَخَالِطَهُ ذِلَّةُ
وَعِرْضِ نَقِيٍّ لَمْ تَحْسِنْهُ الْمَطَامِعُ

عَشِيَّةً يَسْتَكْفِيهِ مُطَلَّبُ الَّذِي
به ضاق ذرعاً والمنايا كوارع
فما أنفك يحميه ويجعل نفسه
له جُنَّةً حتى احتوته المصارع
فلاقي المنايا فوق أجرد ساج
وفي الكف مأثور من الهند قاطع
فينا يخوض الهول من غمراته
وأعداؤه من حوله قد تجاشعوا
تقطر في أهوية عن جواده
فصادفه حين من الموت واقع
فلم أر مقتولا أجل مصابه
على من يعادي والذين يجمع
من ابن حديج يوم أعلن نعيه

وقام به في الناس راء وسامع^(١)
وقد حفظت قصيدة في الرثاء تكاد تكون كاملة أنشدها الشاعر
المعلّي الطائي يرثي جارية له قيل إنه كان يحبها لأدبها وعلبها ، وكانت
شاعرة ، وقيل أيضاً إن المعلّي باعها بأربعة آلاف دينار ، فلما دخل
عليها قالت له : بعثني يا معلّي ؟ قال : نعم : قالت : والله لو ملكت
منك مثل ما تملك مني ما بعثتك بالدنيا وما فيها . فاضطر المعلّي إلى
أن يرد الدنانير وأن يستقيل صاحبه ويعتذر إلى صاحبه^(٢) وتوفيت
هذه الجارية بعد ثمانية أيام من هذا الحادث فرثاها المعلّي بقصيدة

أرى أنها من آيات الشعر لجمال معناها ، وسمو عاطفتها ، ورشاقة لفظها .
أخذ الشاعر يناجي الموت ويعاتبه كأنه شخص مائل أمام عينيه ،
ويتحدث إليه كما يتحدث إلى شخص يعرفه ، فهو يلوم الموت لأنه
اقتصر جاريته التي عبر عنها بشق نفسه ، فهو لا يستطيع أن يهنا
بالنصف فقط ، وهو يلوم الموت ويستعطفه استعطافاً أملاً عليه
حزنه لفقدائها وجهه لها ، فقال إن الموت لم يرحم شبابها ، ثم يأخذ
في وصف عظامها اللينة ، وشعرها وعينها ومشيتها ، ويترحم على
ذلك كله وأخيراً يعاتب الموت مرة أخرى لأنه ترك حبيبته في قبر
تلعب الريح بترابه ، وتمتد إليه يد البلى ، وأن أحداً لا يستطيع زيارة
هذا القبر لأن في زيارته الهلاك ثم يناشد القبر أن يبقى على محاسنها ،
ويحفظ يرها وظرفها . فالشاعر في هذه القصيدة حزين حقاً ، متألم
أشدّ الألم لفراق جاريته ، ولكنه حزن هادئ — إن صح هذا
التعبير — لم يرسل الدمع ، ولم يلتجب ، وهو في هذا الحزن يذكر
أنه سيلتقي بها يوم القيامة :

يا موت كيف سلبتني «وصفا» قدّمها وترككتي خلفا
هلا' ذهبت بنا معا فلقد ظفرت يدك فسمعتني خسفا^(١)
وأخذت شق النفس من بدني فقبرته وترككت لي النصف
فعليك بالباقي بلا أجل فالموت بعد وفاتها أعني^(٢)
يا موت ما أبقيت لي أحدا لما رفعت إلى البلى «وصفا»
هلا رحمت شباب غائبة ريتا العظام وشعرها الوخفا^(٣)

(٢) أعفاه من الأمر برأه

(١) الحسف القل والموان

(٣) الوحف الشعر الكثيف الأسود

ورحمت عيني ظبية جعلت بين الرياض تناظر الحشفا^(١)
تقضى إذا اتصفت مرابضة وتظل ترعاه إذا أغنى
فإذا مشى اختلفت قوائمه وقت الرضاع فينطوى ضعفا
متحيراً في المشى مرتعشا يخطو فيضرب ظلفه الظلفا
فكأنه ، وصف ، إذا جعلت نحوى تحير^(٢) محاجر^(٣) آ وطفا^(٤)
يا موت أنت كذا لكل أخ إلف يصون ببه الإلفا
خليتي فرداً وبنت بها ما كنت قبلك حاملاً وكفا^(٥)
فتركتها بالرغم في جدث للريح ينسف تربه نسفا
دون المقطم لا يُلْبَسُها في زينة قلبا ولا شتفا
أسكنها في قعر مظلمة بيتاً يصافح تربه السقفا
بيتا إذا ما زاره أحدٌ عصفت به أيدي البلى عصفا
لا نلتقى أبداً معاًينة حتى نقوم لرينا صففا
لبست ثياب الحنف جارية قد كنت ألبس دونها الحنفا
فكأنها والنفس زاهقة غصن من الریحان قد جفا
يا قبر أبق على محاسنها لقد حوت البر والظرفا^(٦)
فأنت ترى الشاعر عميقاً في حزنه ، مستسلماً لما رزى به ،
ولسكنه لم يذكر بكاءه كغيره من الشعراء إذ لا نكاد نجد قصيدة

(١) الحشف مثانة : ولد الظبي أول ما يولد

(٢) حار يحار ويمتد واستحار : نظر إلى الشيء

(٣) محاجر الجمع محجر : ما دار بالعين

(٤) الوطف : كثرة شعر الحاجبين والعيين

(٥) الكف : الانهم

(٦) المقد الفريد ج ٢ ص ١٧٩

في الرثاء بدون دمع متهمر ، فالبكاء عند الشعراء مظهر من مظاهر الحزن وهو أيضاً يدل على بساطة في الحياة وسذاجة في الشعور ، فكما أن الطفل الصغير يبكي إذا تألم ، والمرأة تبكي إذا أغضبها شيء . كذلك شعراء العرب كانوا يبكون إذا رثوا ، ولا أدري لم لم ينبع شعراء مصر في هذا العصر سنة شعراء العرب ، أو طريقة المصريين في المآتم . ومن يدري لعل للمصريين في الرثاء أشعارا كثيرة فيها هذا اللون من البكاء والنحيب ولكن الشعر فقد

أما حياة اللهو والمجون ومجالس الخمر والغزل فلا أكاد أجد لها ذكراً فيها وصلنا من الشعر في هذا العصر ، ولا أستطيع أن أقول إنه لم يوجد في مصر شعراء هـوا كما لها غيرهم ، وتغزلوا كما تغزل غيرهم ، وحياة مصر وأعيادها كانت تدعو إلى أن يتحدث عنها الشعراء ، ويكنى أن أنقل شيئاً مما ذكره المقرئ عن أعياد المصريين ، فقد قال في حديثه عن عيد الشهيد ، « وما كان يعمل بمصر عيد الشهيد وكان من أنزه أفراس مصر وهو الثامن من بشنس ويكون لذلك اليوم عيد ترحل إليه النصارى من جميع القرى ، ويركبون فيه الخيل ، ويلعبون عليها ، ويخرج عامة أهل مصر على اختلاف طبقاتهم ، وينصبون الخيم على شواطئ النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغز ولا مغنية ، ولا صاحب هـو ، ولا رب ملعوب ، ولا بغى ، ولا تحت ، ولا ماجن ، ولا خليج ، ولا فانتك ، ولا فاسق ، إلا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيه إلا خالقهم ، وتصرف أموال لا تنحصر ، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصي والفسوق ،

وتشورفتن ، وتقتل أناس ، ويبيع من الخمر خاصة في ذلك اليوم .
وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائماً بناحية شبرا (١) .

وقد ظل هذا العيد بمصر إلى أن أمر بإبطاله الأمير بيبرس
سنة ٧٠٢ هـ . ومن هذه الأعياد أيضاً عيد الغطاس وفيه يشارك
المسلمون النصارى ، وفي هذا العيد لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره
من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر
والملاهي والعزف والقصف ، وهي أحسن ليلة تكون بمصر ،
وأشملها سرورا (٢) وقد شاهد المسعودي الغطاس سنة ثلاثين وثلاثمائة
هجريّة ووصفها ، ومنع المصريون سنة سبع وستين وثلاثمائة من
إظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس ، ثم سمح لهم سنة ثمان وثمانين
وثلاثمائة . وكذلك عيد الصليب ، وفيه كان المصريون يخرجون إلى
خارج القسطنطينية ، ويتظاهرون بالنسك والحرمان وقد أبطل
هذا العيد سنة اثنتين وأربعمائة أيام الحاكم الفاطمي (٣) .

من الطبيعي أنه كان بين الشعراء في هذا العصر من شارك الناس
في لهوهم وعيبتهم ، وأنشد شعراً في هذه الحياة الصاخبة الماسجة .
ولكن هذا الشعر فقد ولم يبق منه ما يدل عليه ، فلم يروه الرواة ، ولم
يدونه المؤرخون ، ولا أستطيع أن أعلل ذلك . وكذلك لم يصلنا
شعر في وصف الخمر مع أن الكندي يحدثنا أن العلويين خرجوا
بمصر أيام الوالي يزيد بن حاتم ، فأرسل الوالي إلى أصحابه ، ففعلوا
بأتونه سكارى ، فقال لهم : إن نضوحكم الليلة لكثير (٤) . وخشي

(٢) القرظي ج ٢ ص ٢٦

(١) القرظي ج ١ ص ١١٠

(٤) الكندي ص ١١٢

(٣) القرظي ج ٢ ص ٢٩

الوالى على بن سليمان عاقبة انتشار الخمر بين المصريين فأمر بمنع الملاهى
والخمر فى أيامه (١) ، ومع ذلك كله لم يصلنا شعر فى مجالس الخمر
ولا فى وصفها . وكان بمصر قيان ومغنون شأنها فى ذلك شأن كل
الأقطار الإسلامية ، ويحدثنا السكندى أن القاضى العمرى كان يشدو
بأطراف الغناء على مغنى أهل المدينة ، ويبرز كثيراً فى مجالسه ، ولا
يتحاشى أن يقول هذا غنى به ابن سريج ، وهذا به الدلال وهذا
من جيد غناء الغريض ، ولم يكن بمصر مسمعة إلا ركب إليها ،
وسمع غنائها ، وربما قوم ما انكسر من غنائها ، ويرى ذلك من
الدين (٢) وقد هجاه خصومه بذلك فقال يحيى الخولانى :

ألا قم فاندب العربا وبك الدين والحسبا
ولا تنفك تبكى الحد ل لما بان فاغتربا
لقد أحدثت قاضى السو ء فى فسطاطنا عجا
يظل نهاره يقضى بغير العدل منتصبا
ويسهر ليله لسا عه القينات والطربا
ويشربها معتقة عقاراً تشبه الذهبا
ويعجبه سماع العو د والمزمار يا عجا
فيا للناس من قاض يحب اللهو واللعبا (٣)

نستطيع أن ندرك كيف أخذ المصريون على القاضى كفه بالغناء
وإعجابه بسماع العود والمزمار ، وشرب الخمر ، فى حين أن خلفاء

(٢) السكندى ص ٣٣٩

(١) السكندى ص ١١٣

(٣) شرحه ص ٤٠٠

العباسيين في بغداد كانوا يلهون ويمجنون . ويظهرون اللهو والمجون
ويشاركونهم في هذه الحياة الشعراء والندماء .

الشعراء الواقفون

لم ينقطع في هذا العصر أيضا وفود الشعراء على مصر لممدح
الولاة والأمراء ، بل كان بين الولاة أنفسهم من أنشد الشعر ،
كالوالى الفضل بن صالح المتوفى سنة ١٧٢ هـ فقد كان شاعراً فصيحاً
أديباً ومن شعره :

عاش الهوى واستشهد الصبر وعاث في الجزن والضرر
وسهل التوديع يوم نوى ما كان قد وعده الهجر (١)

والوالى عبد الله بن طاهر الذى ولى مصر سنة إحدى عشرة
ومائتين كان بارع الأدب حسن الشعر (٢) ومن شعره ما أرسله
للخليفة المأمون وقد أمره بالزيادة في الجامع العتيق فكتب له ابن طاهر

أخى أنت ومولاى ومن أشكر نعماء
فما أحببت من شيء فإني الدهر أهواه
وما تكره من شيء فإني لست أهواه
لك الله على ذاك لك الله لك الله (٣)

وكان والى يزيد بن حاتم الذى ولى مصر سنة أربع وأربعين

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦١ (٢) شرحه ج ٢ ص ١٩٢

(٣) شرحه وقد وردت هذه الأبيات في كتاب الولاة للسكندى ص ١٨١

مع اختلاف يسير ولكن السكندى روى أن ابن طاهر أرسل هذه الأبيات مع
طلب الأمان لعبد الله بن السرى الذى تحدثنا عنه .

ومائة مقصدا للناس لكرمه ، محبا للشعر وأهله ^(١) ، قصده كثير
من الشعراء منهم ربيعة بن ثابت الرقي ، قيل إنه مدح يزيد ، فتشاغل
هذا عنه ببعض الأمور ، واستبطأه ربيعة فرحل عن مصر وقال :
أراني ولا كفران لله راجعاً بخفي حنين من نوال ابن حاتم
فبلغ هذا القول يزيد ، فأرسل في استدعاء الشاعر ورده إلى مصر ،
فلما دخل عليه قال له : أنت القائل «أراني ولا كفران ؟» قال : نعم
قال هل قلت غير هذا ؟ قال : لا . قال : والله لترجعن بخفي
حنين مملوءة مالا !! فأمر بخلع خفيه ، وأن تملأ له مالا ، ثم قال له
أصلح ما أفسدت من قولك . ففما قاله الشاعر في مدح يزيد لما عزل
عن مصر :

بكى أهل مصر بالدموع السواجم

غداة غدا منها الأغر ابن حاتم ^(٢)

ويذكر السمعاني أن المسهر التيمي الشاعر وفد أيضاً على ابن
حاتم ومدحه وأجزل الأمير عطاءه ، كما قصده الشاعر محمد بن
عبد الله بن مسلم المعروف بابن المولى ومدحه بقصيدة طويلة منها :
وإذا تباع كريمة أو تشتري

فسواك بائعها وأنت المشتري ^(٣)

ومن قوله أيضاً في مدح زيد :

يا واحد العرب الذي أضحي وليس له نظير

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١٥٦ والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢

(٣) النجوم ج ٢ ص ٢

لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير
ويحدثنا الطبري أن البطين الحمصي الشاعر وفد على مصر بصحبة
الوالى عبد الله بن ظاهر^(١).

أبو نواس في مصر :

وفي هذا العصر وفد أبو نواس على مصر ، ولمكانة أبي نواس في
الشعر ، ولكثرة ما حفظ لنا من شعره في مصر رأينا أن نطيل
بعض الشيء في حديثنا عن وفوده على مصر .

حدثنا جامع أخبار أبي نواس^(٢) أن الشاعر خرج إلى مصر
متسكراً في زى الشطار مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على
الخصيب ازدراه واستخف به ، ثم أرسل أبو نواس كتاباً إلى
الخصيب فلم يستشده ، فكان ينصرف مهموماً ، وعلم المصريون
بوجود أبي نواس بينهم ، فهرعوا إليه واستمعوا إلى شعره وكتبوه
فأنشد بعضهم هذا الشعر إلى الخصيب فاستحضره وأنشده قصيدته
التي مطلعها :

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير
ونحن لا نستطيع أن نقبل هذه الرواية إذ كيف يرفض أمير أن يستمع
لأبي نواس مع مكانته في عالم الشعر إذ ذاك ! ففي الوقت الذي كان
ينشد فيه أبو نواس الخليفة في بغداد ، وينادم ولي العهد ، يرفض
أمير مصر أن يستمع إليه ؟ . وهناك رواية أخرى ذكرها صاحب

(١) تاريخ الطبري وحوادث سنة ٢١٠ هـ

(٢) أخبار أبي نواس نسخة خطية بدار الكتب المصرية

أخبار أبي نواس أينما تحدثنا أن الخصب هو الذي استزار أبا نواس
فخص هذا إليه وبينما هو في طريقه صادف قوماً من أهل الأدب لهم
شرف وهبة ، فأنسهم وممنوا جميعاً حتى دخلوا معه مصر ، فسار
أبو نواس إلى الخصب الذي أحسن مقابله وسأله عن خبره في رحلته
واستشده . هذه الرواية تناقض السابقة ، وهي أقرب إلى الصواب
لأن أبا نواس كان معروفاً في ذلك العصر في كل البلاد الإسلامية
وينشد شعره الأدباء بل نرى بعضهم قد تتبع أخبار أبي نواس
كالذي قيل إن النضر بن أمية الحمصي الشاعر قال : لما خرج أبو نواس
من بغداد إلى مصر ، كتب الناس ببغداد إلى أهل الشام بذلك ،
فلم يزل القوم في الشام يرقبون قدومه حتى قدم . ويحدثنا السيوطي أن
أهل الأدب بمصر لما عرفوا قدوم أبي نواس هرعوا إليه واستشده
فكان يجلس في المسجد الجامع والناس حوله ينشدون أشعاره وهم
يكتبون^(١) فهذا يدلنا على أن أبا نواس لم يكن بالشاعر المجهول عند
المصريين وغير المصريين ، ولذلك فإنني أرجح هذه الرواية الأخيرة
أما الخصب الذي استقدم الشاعر فلا نكاد نعرف عنه شيئاً
ولم يذكره المؤرخون بين ولاة مصر وأمرائها ، ولكن جامع
ديوان أبي نواس قال : هو الخصب بن عبد الحميد العجمي ثم المرادي
أمير مصر ، وهو دهقان من أهل المزار شريف الآباء ، وكان
رئيساً في أرضه فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهبويه الرازي ثم
انتقل إلى الامارة^(٢) . وفي حديث المقرئ عن المدن قال : منية

(١) تحفة المجالس للسيوطي ص ٢٢٧

(٢) ديوان أبي نواس ص ٧٧ ، طبع مصر سنة ١٣٢٢

الخصيب ، هذه المدينة تنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر^(١) ، ولكن كتب التاريخ لم تذكر الخصيب أيضاً بين ولاية خراج مصر ، وإذا أمعنا في دراسة ولاية مصر وأمرائها في عصر الرشيد ، نجد المؤرخين قد أهملوا ذكر صاحب الخراج في سنة ١٨٠ هـ وسنة ١٨٣ هـ وسنة ١٨٩ هـ أى أن الخصيب كان أميراً على خراج مصر في إحدى هذه السنين ، والذي أرجحه أنه كان في سنة ١٨٩ هـ إذ هي السنة التي ولي فيها عبد الله بن محمد على مصر وفي سنة ١٩٠ هـ جعل على الشرطة أحمد بن حوى ، وعلى الصلاة هاشم بن حديج ، وقد ورد ذكر هذين الأميرين في شعر أبي نواس ، وإذن فقد كان أبو نواس في مصر سنة ١٩٠ هـ تكاد تجمع الروايات على أن أول قصيدة أنشدها أبو نواس في مصر هي قصيدته الرائية .

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسور مايرجى لديك عسير
وفيها يقول :

تقول التي عن بيتها خف مركبي
عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب
بلى . . إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر
جرت فجري في جريهن عبير

ذريني أكثر حاسديك برحلة

إلى بلد فيه الخصيب أمير^(١)

وهو في هذه القصيدة يصف رحلته من العراق ، ويذكر المدن التي مر بها ثم يحدثنا عن طمعه في نوال الخصيب ، بل هو في كل شعره الذي أنشده في مدح الخصيب كان يتحدث دائماً عن أمله في العطاء الجزيل ، وبمضى نفسه بالمال الكثير :

يا بقتي أبشرى بميرة مصر وتمنى وأسرفى في الأمانى
أنا في ذمة الخصيب مقيم حيث لا تعدى صروف الزمان
قد علقنا من الخصيب جبالا آمنتنا طوارق الحدثان^(٢)
وقوله أيضاً :

وإني جدير إذ بلغتك بالمنى

وأنت بما أملت منك جدير

وفي قصيدة أخرى قال :

أنت الخصيب وهنه مصر

فتدققا فكللا كما بحر

لا تقعدا بي عن مدى أملى

شيداً فالكما به عذر

ويحق لي إذ صرت بينكما

ألا يحل بساحتى فقر

(١) ديوان أبي نواس م ٨٠ وأخبار أبي نواس لابن منظور م ٣٤٧

(٢) ديوان أبي نواس م ٧٨

النيل ينعش مأؤه مصرا
ونداك ينعش أهله الغمر (١)

قلولا هذا الطمع في المال ما أتى أبو نواس من بغداد إلى مصر
وقد ولد الأمل في نفسه ثقة بأن الخصيب سيغدق عليه العطاء فإذا
الشاعر صادق في مدحه للخصيب معتبط بحضوره إلى مصر ، عظيم
الأمل في الثروة ، والخصيب كان يعطف على الشاعر ويعطيه ، حتى
قال ابن منظور إن الخصيب أعطاه أول يوم ألف دينار ، وأعطاه
مثلا ثاني يوم ، وأعطاه أخرى ثالث يوم ، وقربه الخصيب
إليه وناداه .

وهذا المدح الذي أنشده أبو نواس للخصيب يشبه مدح المتنبي
لكافور الأخشیدی ، فكلاهما وقد على مصر بسبب النوال والغنى
وإن كان المتنبي قد طمع أكثر مما طمع فيه أبو نواس وكانت
نهاية أيام الشاعرین في مصر تكاد تكون واحدة ، إذا اضطر أبو
نواس أخيراً إلى أن يهجو الخصيب ، وأن يرميه بالبخل ، وقيل
إن سبب هذا الهجاء هو أن أبا نواس كان يسكره شراب مصر ،
وكان الخصيب يخص نفسه بشراب يحمل إليه ، فغضب أبو نواس
وهجاه بقوله :

يخص خصيب بالشراب ويرتجى
لديه نوالا إن ذا لعجيب
وليس خصيب بالخصيب لضيفه
ولسكنه وعمر المحل جديب

فمن كان ذا أهل بمصر وثروة
فإني بها صفر الدين غريب
وهجاء مرة أخرى بقوله :
نفس الحصيب جميعه كذب
وحديثه لجليسه ككرب
تبكى الثياب عليه معوله
أن قد يجر ذبولها ككلب
وقال مرة أخرى :

خبز الحصيب معلق بالكوكب
يحمى بكل مثقف ومسطب
جعل الطعام على بينه محرما
قوتاً وحلله لمن لم يسغب
فاذا هم رأوا الرغيف تطربوا
طرب الصيام إلى أذان المغرب (١)

وهكذا انتقل أبو نواس من مدح الحصيب إلى هجائه ، ويغلب
على ظني أن الحصيب لم يف بوعده لأبي نواس ، أو أن أبا نواس
كان يطمع في أضعاف ما ناله من الحصيب ، كما كان الحال بين كافور
والمتنبى بعد ذلك بقرن ونصف تقريبا .

ونجد في ديوان أبي نواس بعض قصائد في هجاء هاشم بن حذيم

السكندی ، وفي كتاب أخبار أبي نواس عدة آيات في هجاء معاوية ابن حديج الفيلسوف ، مما يدل على أن أبا نواس كان على صلة ببنى حديج الذين كان لهم شأن كبير في تاريخ مصر الإسلامية ، ومؤسس هذه الأسرة في مصر هو معاوية بن حديج التجيبي السكندی ، وفد على مصر في جيش الفتح ، وكان رسول عمرو بن العاص إلى الخليفة يبشره بفتح الإسكندرية ، وكان رابع أربعة عينهم عمرو على خطط الفسطاط وبعد مقتل الخليفة الثالث كان ابن حديج زعيم العثمانية بمصر ، إذ بايعه المصريون على الطلب بدم الخليفة المقتول ، فقام محمد بن أبي حذيفة واسكن ابن حديج اضطر إلى أن يهرب إلى دمشق ، ثم عاد إلى مصر لا تزاعها من أيدي العلويين ، وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر وألقاه في جيفة حمار وأحرقه . كان هذا الرجل رأس أسرة بني حديج الذين أصبح منهم بعض الأمراء والقضاة كعبد الرحمن بن معاوية ابن حديج الذي خرج ببيعة أهل مصر للوليد بن عبد الملك الأموي وعبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية الذي ولي مصر من قبل أبي جعفر المنصور سنة ١٥٢ ، وفي سنة ١٩٠ — وهي السنة التي فيها كان أبو نواس في مصر كما رجحت — صرف عبد الله بن محمد العباسي عن ولاية مصر ، فخرج واستخلف عليها هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن ، وهو الذي هجاه أبو نواس .

أما سبب هذا الهجاء فقد ذكر جامع ديوان أبي نواس أن الشاعر مدح هاشماً فلم يعطه شيئاً فهجاه ، ونقل عن كتاب الروضة للبرد أن هاشماً أراد أن يستبق أبا نواس عنده في مصر فرفض هذا البقاء

وخرج من مصر يهجو هاشما ويهجو المصريين .
قفوا معشر الراجلين اسمعوا أنبشكم عن بني كنده
وردنا على هاشم مصره فبارت تجارتنا عنده
رأيتك عند حضور الخوا ن شديد اعلى العبد والعبد^(١)
وزاء في هذا الهجاء يعير بني حديج بقتل محمد بن أبي بكر الصديق .
فإن حديجا له هجرة ولكنها زمن الرده
وما كان إيمانكم بالرسول سوى قتلكم صهره بعده
وما كان قاتله في الرجال بحمل لظهر ولا رشده^(٢)
وقوله :

يا هاشم بن حديج ليس نخرم
بقتل صهر رسول الله بالسدد
أدرجتم في اهاب العير جثته
فبئس ما قدمت أيديكم لغد
ولسكن يخيّل إلى أن هناك سببا آخر لهجائه بني حديج يضاف
إلى ما ذكره جامع ديوان أبي نواس ، فقد كانت المنافسة التي بين
أحمد بن حوى العذرى وهاشم بن حديج شديدة جداً ، وتجلت
هذه المنافسة في قضية أهل الحرس التي تحدثنا عنها ، وكان أبو نواس
شديد الصلة بابن حوى حتى أن الشاعر هجا كل المصريين إلا
ابن حوى .

(١) ديوان أبي نواس ص ١٣٨ (٢) شرحه ص ١٣٩ .

دم المكارم بالفسطاط مسفوح
 والجود قد ضاع فيها وهو مطروح
 يا أهل مصر لقد غبتم بأجمعكم
 لنا حوى قصب السبق المساميح
 أموالكم حمة والبخل عارضها
 والنبل مع جوده فيه التماسيح
 لولا ندى ابن حوى أحمد نطقت
 منى المفاصل فيكم والجواريح^(١)
 وفي قصيدته السبئية التي هجا بها هاشم بن حديج قال :
 ما منك سلى ولا أطلالها درس
 ولا نواطق من طير ولا خرس
 يا هاشم بن حديج لو عددت أبا
 مثل القلس لم يعلق بك الدنس
 إذ أصبح الملك النعمان وافده
 ومن قضاة أسرى عنده حبس
 فابتاعهم بإخاء الدهر ما عمروا
 فلم ينل مثلاً من مثله أنس
 أورحت مثل حوى في مكاره
 هيات منك حوى حين يلتبس^(٢)

(١) ديوان أبي نواس م ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢) ديوان أبي نواس م ١٣٩

ومع ذلك كله فقد عاد أبو نواس إلى نفسه ، وذكر نسبه في
البنية وأن البنية تجمع بينه وبين هاشم بن حديج ، فعاتب نفسه
واعتذر إلى هاشم عن هذا الهجاء .

أهاشم خذ مني رضاك وإن أتى
رضاك على نفسي فغير ملوم
فأقسم ما جاوزت بالشتم والدي
وعرضي وما مزقت غير أديبي
فعدت بحقوي هاشم فأجارتني
كريم أراه فوق كل كريم
وإن امرأ أغضى على مثل زلتني
وإن جرححت فيه لعين حلیم
تطاول فوق الناس حتى كأنما
يرون به نجماً أمام نجوم^(١)

أما صلة أبي نواس بشعراء مصر ، فحدثنا السيوطي أن أدباء مصر
وشعراءها تسابقوا لمصاحبة أبي نواس ، وكتابة شعره ، وكان بينهم
رجل يعرف بالحسن بن عمر الأجهري ، كان شاعراً ضعيف الشأن
فأراد أن يبلى شأنه ، فهجأ أبا نواس بقوله

ألا قل للنواصي الضعيف الحال والقدر
خبرنا منك أحوالا فلم نحمدك في الخير
وما إن دعت بالمنظر ولكن دعت بالذكر

وكان هذا الشاعر من أوحش الناس صورة ، فنظر إليه النواسي وقال بماذا أهجوك ، وبأى شيء أصفك ، وقد سبقني الله تعالى إلى توحيش منظرك ، وتقبيح خبرك ، وهل أكون إن قلت شيئاً إلا سارقاً من ربي ، ومتكلفاً ما قد كفاني . فقال له بعض من معه من المصريين : على كل حال لا يقول هذا إلا إنه أخفك ، فقال النواسي

بما أهجوك لا أدري لسانى فيك لا يجرى
إذا فكرت في هجو ك أبقيت على شعري

وحدثنا صاحب أخبار أبي نواس قصة دعاة أبي نواس ولهو مع الفتيان الثلاثة ، وهذا الشعر الذى أنشده فى أصحابه هؤلاء ، كل هذا يدلنا على أن أبا نواس اشترك مع الشعب المصرى فى لهوه ومجونه .
لأبى نواس أشعار كثيرة قيلت فى مصر ولكنها لم تصل إلينا فيقول جامع شعره إن لأبى نواس بمصر قصائد لا يعرفها أهل العراق وروى لديك الجين وقد دخل مصر بعد أن تركها أبو نواس أنه وجد للنواسي أشعاراً كثيرة منها .

إذا ذكرت بغداد لى فكأبما تحرك فى قلبى شباه سنان
وأوبة مشتاق بغير دراهم إلى أهله من أعظم الحدثان
وروى حمزة الأصفهاني أنه وجد رسالة فى شعر أبى نواس وقد سقط منها الشعر الذى قاله بالشام ومصر ، مع أن المصريين يروون للنواسي أشعاراً كثيرة لم تقع إلى أهل العراق ، قال وقدم علينا رجل من حمص حافظ لشعر أبى نواس وزعم أن أباه كان قد لقي أبا نواس بحمص فكتب عنه قصائد له أنشدها فى مصر .

وفي كتاب أخبار الحسن بن هانيء لابن منظور نجد روايات كثيرة تدلنا على أن أبا نواس كان صديقاً لأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية . ولكنني أعتقد أن أحمد بن يوسف هذا لم يقابل أبا نواس لأن ابن الداية توفي بمصر بعد وفاة أبي نواس بنحو قرن ، أى بعد انتهاء الدولة الطولونية . فقد وهم إذن ابن منظور حين روى عن ابن الداية أنه كان صديقاً لأبي نواس ، وربما كان أحمد ابن يوسف كاتب العباسيين المعروف هو صاحب أبي نواس فوهم ابن منظور وظنه ابن الداية لتشابه اسميهما .

خرج أبو نواس من مصر بعد أن مكث فيها سنة كما ذكر صاحب أخباره ، وقد هجما مصر والمصريين بالأبيات التي ذكرتها سابقا ، ثم نراه يهجو النيل أيضاً .

أضمرت للنيل هجرانا وتقلية إذ قيل لي إنما التمساح في النيل

وفي شعر أبي نواس في مصر ، نجد أثر مصر واضحاً قوياً ، فمثلاً هو يذكر دائماً قصة (موسى وفرعون) التي كانت في مصر . فنراه قد شبه شعره بعضاً موسى تلقف ما يقول غيره من الشعراء . فقد قيل إن أبا نواس لما دخل لأول مرة عند الخصيب رأى جماعة من الشعراء أسن منه ، فطلب من الخصيب أن ينشدوا قبله ، فلما أنشدوا تبسم أبو نواس وقال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصي موسى تلقف ما يافكون ، ثم أنشده قصيدته الرائية وفيها يقول :

وأطرق حيات البلاد الحية خصيبية التصميم حين تسور

ومدح الخصيب مرة أخرى بقوله :
حبة تصرع الرجال إذا ما صار عوازا به على الأذقان
وحذر المصريين من الاستمرار في الفتنة والثورة بقوله :
منحتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا تفتنوا من ناصح بنصيب
فإن يك باق أفك فرعون فيكم
فإن عصى موسى بكف خصيب
رماكم أمير المؤمنين بحجة أكل لحيات البلاد شروب
ولا أكاد أعرف لأبي نواس شعراً في هذا المعنى أنشده في غير
مصر مما يدل على أن هذا المعنى من أثر مصر في شعر أبي نواس ،
ثم ذكر النيل مراراً وما به من التماسيح ، وهو معنى مصرى لا يتأق
لشاعر لم ير النيل ، وما به من التماسيح .

ووفد على مصر أيضاً الشاعر الهجاء دعبل بن علي الخزاعي طمعا
في نوال أحد أقاربه المطلب بن عبدالله الخزاعي والى مصر ، ومدحه
دعبل أولاً بقصيدته التي فيها :
أبعد مصر وبعد مطلب ترجو الغنى إن ذا من العجب
إن كاثرونا جثنا بأسرته أو واحدونا جثنا بمطلب
فولاه المطلب إقليم أسوان فكث به أياماً ولعله لم يرض بما
ناله فغضب ، ولم ينج المطلب من هجائه إذ قال فيه :
أطلب أنت مستعذب حيا الأفاعي ومستقبل
وعاديت قوماً فما ضرهم وشرفت قوماً فلم ينبلوا
فاضطر الوالى إلى أن يعزله وكان المطلب يقول كلما قابل دعبلا

ما تفكرت في قولك قط ، وإن كاثرونا جثنا بأسرته ، إلا كنت أحب
الناس إلى ، ولا تفكرت والله في قولك ، وعاديت قوماً ، إلا كنت
أبغض الناس إلى (١)

وحدث أنه عزل المطلب عن مصر فلم يقبل أن يسلمها لمن خلفه
فتحارباً فانهزم المطلب واضطر إلى أن يفر إلى مكة فقال دعبل في ذلك :
فكيف رأيت سيوف الحريش ووقعة مولى بني ضبة
أحبتك أسياهم كارها وما لك في الحج من رغبة (٢)
يريد بمولى بني ضبة السرى بن الحكم الوالى الذى جاء بعد المطلب
ولقد سعدت مصر سنة تسعة وتسعين ومائة بوفود الإمام محمد بن
إدريس الشافعى على مصر بصحبة عبد الله بن الوالى العباس بن
موسى وقيل إن الشافعى قدم مصر بعد أن أحس بالشر في بغداد ،
فقد اشتدت الفتنة في إظهار القول بخلق القرآن فهرب من بغداد
إلى مصر (٣) ومهما يكن السبب الذى جاء من أجله الشافعى إلى مصر
فإنه أقام بها ناشراً لأرائه وعليه ملازما للاشتغال بجامع عمرو
بزواية الخشاية التى عرفت به (٤)

كان الشافعى شاعراً ويحدثنا السيوطى أن الشافعى اجتمع بعد
الله بن هشام صاحب السيرة وتناشدا من أشعار العرب أشياء
كثيرة (٥) ومع ذلك فالشافعى كان يهتم بالفقه أكثر من اهتمامه
بالشعر ولأنه كان يقول :

(١) تراجع أخبار دعبل بمصر ج ١٨ ص ٤٨ من كتاب الأغاني .

(٢) الولاة والقضاة الكندي ص ١٦١ .

(٣) تمرات الأوراق مطبوع على هامش محاضرة الأدياء ص ٤٤ .

(٤) الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ج ٤ ص ١٤٠ .

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٦ .

ولولا الشعر بالعلماء يزدى لسكنت اليوم أشعر من لبيد^(١)

* * *

كان مجي. هؤلاء الشعراء إلى مصر من العوامل التي ساعدت روح الشاعرية المصرية وأيقظت ما كمن منها ، ومن الجائز أن بعض الشعراء المصريين كانوا يحاولون تقليد الشعراء الوافدين ، وقد رأينا كيف كان يجتمع المصريون في المسجد الجامع لاستماع شعر أبي نواس وكيف اهتموا به ، فهذا يدل على نمو الروح الأدبية في مصر وتطورها .

شعراء مصريون راحلون

يمتاز هذا العصر أيضا بظهور شعراء مصريين ، أو عن أخذوا بحظ من الثقافة في مصر ، وقضوا فيها شطرا من حياتهم الأولى ، ثم غادروها إلى مقر الخلافة ، حيث اتصلوا بالخليفة ورجاله ، ومع أننا نستطيع أن نسمى هؤلاء الشعراء مصريين أو متمصرين - إن صح هذا التعبير - فإن شعرهم اصطبغ بصبغة البلاد التي حلوا بها فلم يعد لهم أية صلة بمصر ، ولذلك لا يعدهم الأدباء من المصريين ، فشاعر كأبي تمام مهما قيل عن أصله ومولده ، فلا شك أنه جاء مصر وهو صغير ، وكان يسقى الماء في المسجد الجامع ، وجالس الأدباء والعلماء في مصر ، وحفظ في مصر الآلاف من الأراجيز والقصائد التي ساعدته على تهيئة ملكة الاختيار من شعر العرب ، وجعلته يجمع منها حماسه ، وفي مصر قال أبو تمام أول شعره ، وما زال في مصر حتى شاع ذكره قبل الخليفة العباسي المعتصم خبره

(١) راجع ما كتبناه آنفا عن التباس .

فاستقدمه وأحسن إليه^(١) ومكث أبو تمام بالعراق وخراسان حتى آخر أيام حياته .

لم يكن أبو تمام مصرى المولد ولكنه قضى شطرا من حياته فيها كما قضى أكثر أيام حياته بعيدا عنها ، ومع ذلك فالمصريون يعتبرونه واحدا منهم بل يغالون ويدعون أنه شاعرهم الأكبر ، ويفخرون به حتى عده السكندى أحد فضائل مصر^(٢) وذلك لنبوغته وشهرته الواسعة وكثرة الشعر الذى أنشده ، ولعله أول رجل تخرج فى المدرسة المصرية تروى له هذا العدد الكبير من القصائد .

وحياة أبي تمام فى مصر غامضة أشد الغموض فلم تصلنا أخباره ولا نعرف شيئا عن أساتذة الذين أخذ عنهم ، ويغلب على ظنى أن أبا تمام قد استمع إلى هذه الدروس التى كانت تلقى فى حلقات المسجد الجامع بالفسطاط ، وكان فى ذلك الوقت الشافعى وابن هشام رواى السيرة وابن عبد الحكم والليث بن سعد ، ممن يلقون علومهم فى هذه الحلقات ، ولعل أبا تمام قد أدرك سعيد بن عفير والمعلى الطائى ويحيى الخولانى والحسين بن الجمل الأكبر ويوسف السراج وغيرهم من شعراء مصر فى هذه الفترة ، فاستفاد مما سمعه من علوم أولئك وشعر هؤلاء حتى نمت ملكة الشعر عنده فأنشد هذا الشعر الذى استطاع به أن يخمل شعراء عصره .

وأول ما نعرفه عن تكسبه بالشعر فى مصر فهو اتصاله

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) فضائل مصر للسكندى نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٢ تاريخ .

بعياش بن طيعة والتاريخ لا يذكر عياشا إلا أنه كان صاحب
الشرطة في مصر سنة ٢٠١ هـ وأن أباه هو القاضي طيعة بن عيسى
الحضرمي الذي ولي القضاء مرتين الأولى سنة ١٩٦ هـ إلى أن عزل
سنة ١٩٨ هـ . ثم وليها مرة أخرى في المحرم سنة ١٩٩ هـ وظل في
منصبه إلى أن توفي سنة ٢٠٤ هـ ، أما ابنه عياش فقد انقطعت
أخباره ولا نعلم عنها شيئا ، ويذكر الرواة أن أباه تمام أول ما قال
الشعر فهو في عياش .

تقى جمحاقي لست طوع مؤني
وليس جنبي إن عدلت بمصحي
فلم توقدي سخطا على متصل
ولم تنزلي عتبا بساحة معتب
رضيت الهوى والشوق خدنا وصاحبا
فإن أنت لم ترضي بذلك فاغضبي
إلى أن يقول :

تركت حطاما منكب الدهر إذ نوى
زحامي لما أن جعلتك منكبي
وما ضيق أقطار البلاد أضافني
إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي
وأنت بمصر غايتي وقرابتي
بها وبنو الآباء فيها بنو أبي
ولا غرو أن وطأت أكتاف مرتعي
لمهل أحفاضى ورفعت مشربي

فقومت لي ما أعوج من قصد همتي

وبيضت لي ما أسود من وجه مطلبي

فاعطاه عياش وأجزل مكافأته ، وظل الشاعر متصلا بعياش إلى أن فسد ما بينهما ففرى الشاعر حينما يعاتبه وأخرى يهجوّه حتى مات عياش . ولا ندرى سبب هذا التحول من المدح إلى الهجاء إلا ما يرويه ابن عبدربه أن أبا تمام استسلف عياشا مائتي مثقال فشاور فيه زوجته فقالت : « هو شاعر يمدحك اليوم ويهجوّك غدا فاعتل عليه واعتذر إليه ولم يقض حاجته »^(١) فعاتبه أبو تمام بقصيدته التي أولها :

صدفتُ لهُبًا قلبي المستهتر فبقيتُ نهب صباة وتفكر
والتي يقول فيها :

القطر والأضحى قد انسلخا ولي
أمل يبابك صائمٌ لم يُفطّر
حوّل ولم ينتج نذاك وإنما
تتوقع الحُبلى لتسعة أشهر
جشّ لي يبحر واحد أغرقك في
مدح أجيش له بسبعة أبحر

وفهم من شعر أبي تمام أن بعض القوم سعوا به عند عياش ، ومن يدرى لعل بعض شعراء مصر حسدوا هذا الشاب على صلته بالأمير ، فأوقعوا بينهما بما أدى الشاعر إلى أن يقول .

(١) المقدم الفريد ج ١ ص ١٤٤ .

أظن عندك أقواما وأحسبهم
لم يأتلوا في ما أعدوا وما ركضوا
يرموتى بعيون حشوها شزر
نواطق عن قلوب حشوها مرض
لولا صيانة عرضى وانتظار غد
والكظم حتى على الدهر مفترض
لما فسكت رقاب الشعر عن فكرى
ولا رقابهم إلا وهم حيض
ولكن العلاقة بين عياش وأبي تمام فسدت نهائيا فهجاه الشاعر
بعدة قصائد منها قوله :

النار والعار والمكروه والمطب
والقتل والصلب والمران والخشب
أحلى وأعذب من سيل تجود به
ولن تجود به يا كلب يا كلب
ويتوعده مرة أخرى بقوله :

ولأشهرن عليك شنع أوابد
يحسبن أسيفا وهن قصائد
فيها لأعناق اللثام جوامع
تبقى ، وأعناق الكرام قلائد
يلزم عرض قفاك وسم خراية
لم يخزها بأبى عينة خالد

وظل يهجو عياشا إلى أن مات عياش فلم يتورع امام الموت
بل هجاه بقصيدة منها .

فكف أكف الموت غل قصائدي
عنه وضيغمها عليه يزر
ما زال غل الموت ثاقى عطفه
حتى أتاه الموت وهو أسير
من بعدما نزهت في سوءاته
حنات شعر بجرهن بخور
يا خلقه الله التي من طرزها
نشأ فكان القرد والخنزير

لم يحفظ لنا التاريخ شيئا عن علاقة أبي تمام بشعراء مصر في هذا
الوقت إلا ما رواه ابن رشيق صاحب العمدة إن أبا تمام هاجى
السراج^(١)، وما جاء في الوساطة وما عدت في هذا الفصل قضية
أبي تمام ولا خرجت عن شرطه أن يقول في يوسف السراج شاعر
مصر في وقته

فلو نبش المقابر عن زهير لعل بالبكاء وبالنحيب
متى كانت معانيه عيالها على تفسير بقراط الطيب
وكيف ولم يزل للشعر ماء يرف عليه ريحان القلوب^(٢)
ويفهم من هذا أنه كانت هناك منافسة فنية في الشعر بين شاعر
مصر يوسف السراج وبين أبي تمام وأن أبا تمام كان يعيب على السراج

(١) العمدة ص ٦٩ ج ١ (٢) الوساطة ص ٢٥ .

فته وشعره ، فهو يأخذ على شاعر مصر معانيه الفلسفية التي لم تعرف عند زهير أى عند القدماء كما يأخذ عليه الغريب والتعقيد في شعره بينما الشعر في نظر أبي تمام يجري كلام السلس الذي يرف عليه ربحان القلوب ، والغريب أن أبا تمام الذي يتقد شاعر مصر على هذا النحو هو نفسه من أشد الشعراء إغراقاً في التعقيد المعنوي واللفظي ، ومن أكثر الشعراء استعمالاً للغريب فهل نستطيع أن نقول إن فن أبي تمام هو أثر من آثار مصر .

ونرى أبا تمام يتصل بالأمير عبد الله بن طاهر حين قدم مصر وهزم عبيد الله بن السري الثائر بمصر سنة ٢٢١هـ ومدحه بقصيدة منها

لعمرى لقد كانت بمصر وقيعة
أقامت على قصد الهوى كل ماثل
على الخندق الأقصى وما كان حوله
وما قد يليه من فناء وساحل^(١)

وأشدد أبو تمام شعراً في الحروب التي كانت بمصر في هذا العهد من ذلك قصيدته في رثاء عمير بن الوليد الذي قتل يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من ربيع الآخر عام أربعة ومائتين وقد قتل في حرب بينه وبين أهل الحوف وفي هذه القصيدة ظهر أثر حفظه للأشعار ولعادات الجاهلية من بكاء على الميت ولطم الحدود ، وهي نفس عادات المصريين التي لم يشر إليها الشعراء المصريون وإنما تشاهد كل يوم أعيدى للنوح معولة أعيدى وزيدى في بكائك ثم زيدى

وقوى في نساء حابرات خوامش للنحور وللحدود
هو الخطب الذي ابتدع الرزايا وقال لأعين الثقلين جودى
ألا رزئت خراسان فتاها غداة ثوى عمير بن الوليد
ألا رزئت بمسئول منيل ألا رزئت بمتلاف مفيد
ألا إن الندى والجود حلا بحيث حلت من حفر الصعيد
بنفسى أنت من ملك رمته منيته بسهم ردى سديد
واستمر في بكائه ونحيبه ثم انتقل إلى ذكر الميت فوصفه بالشجاعة
في القتال والجود والسخاء .

ويا يوم الثلاثاء اعتمدنا بفقد فيك للسند العميد
فكم أسخت فينا من عيون وكم أعثرت فينا من جدود^(١)
ضاق أبو تمام ذرعا بما هو فيه من فقر وإملاق وكان يطمع في
المال الكثير :

لقد طلعت في وجه مصر بوجه بلا طالع سعد ولا طائر سهل
وساوس آمال ومذهب همة نخيمة بين المطية والرجل
نأيت فلا مال حويت ولم أقم فأمتع إذ فجعت بالمال والأهل
لثام طغام أو كرام بزعمهم

سنوافية ما أشبه الحول بالقبل^(٢)

واضطر إلى أن يرحل من مصر غير آسف على فراقها وإن حزن
إليها بعد خروجه منها فذكر إخوانه بالقسطاظ

(١) السكندى ص ١٨٦ وديوان أبي تمام (طبعه محمد جمال ترخيص نظاره
لمعارف نمرة ٤١٣) والجزء الخامس من نهاية الأرب ص ٢٠٤ .
(٢) ديوان أبي تمام ص ٤٢١ .

بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنا
بالرقتين وبالفسطاط إخواني
وما أبطن النوى ترضى بما صنعت
حتى تشافه بى أقصى خراسان
خلقت بالأفق الغربى لى سكناً
قد كان عيشى به حلواً بجلوان^(١)

ماتى الموسوس:

وهناك شاعر آخر يختلف عن أبى تمام اختلافا تاما ذلك هو
محمد بن القاسم ويكنى بأبى الحسين، ويعرف بماتى الموسوس لأنه كان
بعقله شىء من الجنون، هذا الرجل مصرى المولد والنشأة، لكنه
خرج من مصر ولم نعرف متى خرج، إذ لم نثر على شىء من أخباره
غير أن أبا الفرج يحدثنا أن هذا الشاعر قد قدم مدينة السلام ولقيه
جماعة من شيوخنا منهم أبو العباس بن عمار وأبو الحسن الأسدى
وغيرهما^(٢) وقد وصفه أحد الأدباء لمحمد بن عبد الله بن طاهر وقد
طلب أحداً لمنادمته فقال له: قد خطر ببالى من ليس علينا بمنادمته
ثقل، قد خلا من إبرام المجالسين، وبرىء من ثقل المؤانسين، خفيف
الوطأة إذا أدنيتته، سريع الوثبة إذا أمرته^(٣).

لم يصلنا عن هذا الرجل سوى أخبار فى جنونه، وأبيات قليلة
مبعثرة فى كتب الأدب تحملنا عن القول بأن الشاعر كان كلفا
بالغزل ووصف مجالس الخمر واللهو، وبرع فى هذه الفنون، وقد

(١) شرحه ص ٣٣٢ (٢) الأغاني ج ٢٠ ص ٨٤ .

(٣) ذيل ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٢ .

تأثر بالقدم فوقف على الديار وبقي الأطلال . وكان يحفظ كثيرا
من الشعر ويرويه لأبي العباس ابن عمار وهذا يكتب عنه ، قال ابن
عمار ^(١) كان « مان » يالفني ، وكان مليح الإنشاد حلوه ، رقيق
الشعر غزله ، فكان ينشد في الشيء ثم يخاط فيقطعه ، وكان يوماً
جالسا إلى جنبي فأنشدني للريان البصري قوله :

ما أنصفتك العيون لم تكف

وقد رأيت الحبيب لم يقف

إلى آخر القصيدة فسأله أن يملئها على ففعل ، ثم قال : أكتب
فعارضه أبو الحسين المصري يعني مانا نفسه فقال :

أقفز معنى الديار بالنجف

وحلت عما عهدت من لطف

طويت عنها الرضا مذمة

لما انطوى غصن عيشها الألف

حللت عن سكرة الصبابة من

خوف إلهي بمعرك قذف

سئمت ورد الصبا فقد يبست

منى بنات الخدور والخذف

سلوت عن نهد نسبين إلى

حسن قوام واللحظ في وطف

وتوفي هذا الرجل سنة خمس وأربعين ومائتين .

لمحة عن أشهر الشعراء في ذلك العصر

١ - سعيد بن عفير

هو سعيد بن كثير بن عفير بن مسلمة بن يزيد بن الأسود الأنصاري ويكنى بأبي عثمان ، ولد بمصر سنة ست وأربعين ومائة ، وأتم علومه الدينية بمصر ، ثم رحل إلى بغداد فالمدينة حيث سمع الموطن من الامام مالك وعاد إلى مصر فروى الحديث عن الليث بن سعد ، وابن طيبة ، وصار أحد المحدثين الثقات ، وعنه أخذ البخاري والنسائي ، وابن عبد الحكيم وبكار بن قتيبة وغيرهم^(١) وأخذ بحظ وافر من العلوم الأدبية فدرس علم الأنساب والتاريخ وحفظ أيام العرب وماثرها ووقائعها ، والمناقب والمثالب ، وكان في ذلك كله عالماً كبيراً ، وكان أديباً فصيح اللسان حسن البيان ، لا تمل مجالسته . ولا ينزف عليه ، ويقال إن مصر لم تخرج أجمع للعلوم منه ،^(٢) وكان عبد الله بن طاهر يقول : رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء ، النيسل والهرمين وابن عفير^(٣) . وبجانب هذا كله كان الشاعر ذكياً سريع البديهة ، حاضر الجواب فقد حدثنا ابن زولاق أن المأمون لما قدم مصر سنة سبع عشرة ومائتين جلس بقبة الهواء وبجسسه سعيد بن عفير ، فقال المأمون : لعن الله فرعون حيث يقول : أليس لي ملك مصر ، فلو رأى العراق وخصبها ، فقال سعيد بن عفير : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله

(١) حسن المحاضرة في مواضع متفرقة ، ومساك الأبصار للعدي في باب المحدثين (نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(٢) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٧٤ . (٣) البلدان للهمداني ص ٦٨ .

عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا
يعرشون ، فإظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته !! (١) .

ويحدثنا السيوطي (٢) أن ابن عفيرولى قضاء مصر ولكنى لم أجد له
ذكر أ بين القضاة فى كتاب الكندى ، ولا فى رفع الإصر عن قضاء
مصر لابن حجر العسقلانى ، ولكنه كان صديقاً للقضاة ، وكانوا
يرجعون إليه فى كثير من المسائل الفقهية ، ويثقون بشهادته ، كما كان
أحد الذين جعل إليهم التحكيم فى قضية أهل الحرس التى مر ذكرها ،
كما كان له رأى فى اختيار قاضى مصر سنة اثنتى عشرة ومائتين ، فقد
قيل إن عبد الله بن طاهر أمر بإحضار وجوه أهل مصر ، فحضر عدد
كبير بينهم سعيد بن عفيرو ، فطلب إليهم ابن طاهر أن يختاروا قاضياً
من بينهم ، فرشح بعضهم أصبغ بن فرج الفقيه العالم ، فعارضه سعيد
ابن عفيرو وقال : ليس هذا الرجل كما وصفت ، هذا رجل بنى بطويل
اللسان ، وسجع سعيد فى وصفه . فقام أصبغ فقال : إن الأمير أمر
أن يحضر فى مجامع الفقهاء وأهل العلم لا الشعراء ولا الكهنة (٣) .
من هذا الحديث نستطيع أن ندرك أن ابن عفيرو عرف بين معاصريه
بالشعر ، وهجاه خصومه بذلك .

اتصل ابن عفيرو بالحوادث التى كانت فى عهده ، وأنشد الشعر
فى كل الاضطرابات التى كانت فى مصر إذ ذاك ، لاسيما ما كان منها

(١) فضائل مصر وأخبارها لابن زولاق (نسخة خطية بمكتبة الأزهر
رقم ٦٦٩) .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٨ (٣) القضاة الكندى ص ٤٣٤ .

بين سنة ثمان وستين ومائة وسنة تسع ومائتين وقد ظهر في شعره روح العصية العربية وقد ذكرنا صوراً من شعره في ذلك . وكان ابن عفير رجلاً كريم النفس لم يتعلق رئيساً ، ولم يمدح أميراً بقصد العطاء ، فلم يتكسب بشعره كغيره من الشعراء ، بل بالعكس من ذلك ، نراه قد هجا الوالى المطلب الخزاعى ومدح معارضه هبيرة ابن هاشم ، ورثا أبا بشر الأنصارى الذى قتله الوالى (١) .

لم يصلنا كل شعر هذا الرجل وإنما هى مقطعات قصيرة صغيرة ، لا نستطيع أن نعرف منها شاعريته ، ولا أدرى كيف قال الأستاذ « جيست » ، أن رثاء ابن عفير أرق ما وصل إليه الشعر العربى فى كتاب السكندى وأجمله (٢) . ولكن الأستاذ « جيست » ، كغيره من المستشرقين لا يستطيعون أن يتذوقوا الشعر العربى مهما بلغ عليهم وثقافتهم فى العلوم العربية ، لأن ذوقهم الفنى متأثر بالبيئة التى هم فيها ، وخاضع لآلوان الحياة التى يحيونها ، وهى تختلف تمام الاختلاف عن البيئة والحياة العربية ، والذوق لا يأتى بالعلم والدرس فقط بل هو خاضع قبل كل شىء لما يحيط بالناقد من ضروب الحياة ، فالمستشرق يستطيع أن يحكم على شعر أنشد بلغته وقد يكون دقيقاً فى حكمه ، حكماً فى نقده ، ولكنه لا يستطيع أن يحكم على شعر عربى لبعده من بيئة هذا الشعر ، ثم إن الأستاذ جيست قد حكم على الشاعر بهذه المقطعات القصيرة الصغيرة ، وهى عندى لا تكفى لأن ترينا رقة الشعر وجماله ، فالناقد لا يحكم على شاعر بقصيدة قائلها ، وإلا كنا كالقدماء الذين كانوا يفضلون شاعر أعلى آخر ليبت قاله حتى سخر منهم مروان

ابن أبي حفصة فقد قيل إنه كان يروى شعراً لزهير ، وقال زهير
والله أشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى ، وقال الأعشى ، أشعر الناس
ثم أنشد لامرئ القيس وقال امرؤ القيس أشعر الناس ، ثم ضحك
وقال : والناس والله أشعر الناس . .

ومهما يكن من شيء فإن ابن عفير لم يكن شاعراً فحسب ، فقد
كان عالماً محدثاً وفقهاً ، وأظن أن علم الرجل يفسد في كثير من
الاحيان شعره إذا أخضع فنه لعله ، ويخرجه من الشعر الطبيعي إلى
الشعر القريب من النظم ، لأن الشاعر العالم يخضع لعقله أكثر
ما يخضع لعواطفه وشعوره ، أما إذا استطاع أن يخضع عليه لفنه فهنا
نستطيع أن نذوق الشعر الفنى القوى الذى لا يدانيه شعر آخر .
وتوفى سعيد بن عفير كما قال الذهبي سنة ست وعشرين ومائتين (١) .

٢ - المعلى الطائى

لا نعرف عن هذا الشاعر إلا شيئاً قليلاً ، ولم يتحدث عنه
المؤرخون إلا بقدر لا يسمح لنا أن نعرف شخصيته ، وكل
ما نعرفه أنه كان معاصراً لابن عفير ، ولكنه لم يبلغ من العلم
ما بلغه صاحبه ، ويخيل إلى أنه انقطع إلى الشعر والتكسب به ،
فقد مدح الولاة ، واتصل بهم جميعاً ، ودافع عن سياستهم ، وهجا
أعداءهم ، فكان كثيره من الشعراء المادحين المتكسبين بشعرهم ،
فكان يمدح الولاة فإذا عزل الولاة يمدح من يأتي بعده ، وقد رأينا
يمدح المطلب الخزاعي وابن السرى ، ويحدثنا ابن سعيد فى كتابه

(١) تاريخ الاسلام للذهبي نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

« المغرب في أخبار المغرب » أن المعلي بن عاصر أبا نواس^(١) ، فن
الجاتر أن يكون قد اتصل بأبي نواس لما وفد هذا على مصر ،
ولكننا لا نعلم تماما مدى هذا الاتصال إذ لم يصلنا شيء من أخبارها
ويروى ابن سعيد هذه الآيات الشهيرة للمعلي :

لولا بُنيَّات كزُعب القطا جمعن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا يبتنا أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم أشفقت العين من الغمض^(٢)

ولكن أبا تمام في حماسه ينسبها لحطان بن المعلي^(٣) ، ورواها
ابن عبد ربه منسوبة إلى المعلي^(٤) ولا أستطيع أن أجزم لمن هذه
الآيات وإن كنت أميل إلى الأخذ بقول أبي تمام لأنه كان
معاصرا للمعلي .

ويحيل إلى أن المعلي الطائي كان ضاحك لهُو ومجون . ولعل
هذه الآيات القليلة التي رواها أبو الفرج في الأغاني تؤيد أن المعلي
كان يشرب الخمر كما كان يشربها كثير من الشعراء فهو يذكر الخمر
بقوله :

باكر صبوحك صبة النيروز
واشرب بكأس مترع وبكوز

(١) المغرب ص ١٠١ (٢) شرحه .

(٣) ديوان الحماسة ص ١٠١ مطبعة السعادة سنة ١٩١٣ .

(٤) القند الفريد ج ١ ص ٣٦٤ .

ضحك الربيع إليك عن نواره
آس ونسرين ومراحوز^(١)
٣ - الجل الأكبر :

اسمه الحسين بن عبد السلام ، ويعد في طليعة شعراء هذا العصر
فقد تمتع بشهرة فائقة في دولة الشعر ، واتصل بكثير من الأمراء
والقضاة ، ولد سنة سبعين ومائة ، وتلقى العلم بمصر حتى إذا وفد
الشافعي على مصر ، صجبه الجل وأخذ عنه ولا نعلم شيئاً عن حياة
هذا الرجل أيضاً ، سوى أنه كان يتكسب بشعره ، فدح الولاة
وغيرهم ابتغاء الأموال والهبات ، فقد مدح المأمون بمصر ، كما مدح
عبد الله بن طاهر ، وأكثر مدائح التي وصلتنا أنشدتها في مدح
القاضي محمد بن أبي الليث ، وظل الشاعر يعرض شعره على الأمراء
حتى كان ابن المدبر فاتصل به ، ثم اتصل بأحمد بن طولون ، وخص
به فاتخذ شاعره ونديمه ، وعرف عن الجل شره في الطعام ، وقذارة
الثوب ودناءة النفس^(٢) ولست أدري كيف نعتة ابن يونس بهذه
الصفات ، في حين أننا نجد الجل يقول في إحدى قصائده :

إذا أظمأتك أكف اللثام كفتك القناعة شبعاً ورياً
فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همته في الثريا
أيا لنائل ذي ثروة تراه بما في يديه أيا
فان إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء الحيا^(٣)

(١) الأغاني ج ١٧ ص ١٢٧ (٢) معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢٦
(٣) شرحه

ومن الجائز أن الجمل كان من الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون . وعرف الجمل بشيء من الظرف ، وشهد له بذلك ، فان ابن سعيد في حديثه عن الجمل الأصغر قال : لقبه كلقب الأكبر وكذلك اسمه ، وكان ينحو في الظرافة والتطايب منحاه ، (١) .

وكما عرف الجمل بالمدح فقد عرف بالهجاء ، فقد روى أن الحسين بن عبد السلام بكر إلى سليمان بن وهب عامل الخراج بمصر ، فلم يمكنه الحاجب من الدخول ، وأدخل شاعرين آخرين هما ابن شعوة وحمديوه ؛ فلم يستطع الجمل صبراً ، وأرسل إلى سليمان أبيتاً منها :

ولعمري لئن حجبنا عن الشيخ فلا عن وجه هناك وجه
لا ولا عن طعامه التافه النزر الذي حوله لطام بينه
بل حجبنا به عن الخسف والمسوخ وذاك التبريق والتقويه
بخرى الله حاجباً فظاً كل خير عنا إذا يجره (٢)
وقد روينا له أبيتاً كثيرة عن الحوادث التي كانت بمصر في ذلك العصر وتوفي هذا الشاعر سنة ثمان وخمسين ومائتين من الهجرة .

(١) المغرب ص ١٠٢ (٢) المقدم الفريد ج ١ ص ٤١ .

الفصل الثالث

الشعر في عهد الطولونيين والأخشيديين

نستطيع أى نقدر لهذا العصر قيمته الأدبية إذا عرفنا أن الدولة العباسية اضمحل أمرها ، وفقدت سلطانها ، وانقسمت إلى دويلات صغيرة صار الأمر فيها إلى حكامها ، ولم يبق للخليفة العباسي إلا الدعاء في الخطبة ، بل كثيراً ما كان الولاة يقطعون خطبة الخليفة العباسي ، فصار أمير كل دولة مستقلاً في شئون دولته . وتنافس الأمراء فيما بينهم ، فكان بينهم حروب ، وأراد كل أمير أن يعرف فضله ، وتعلّى كلمته ، فشجع الأمراء العلم ، وحبب كل أمير إلى العلماء أن يفدوا عليه ، واتخذ الأمراء من الشعراء وسيلة لنشر سلطانهم وازدياد نفوذهم فأغروا الشعراء بالأموال والهبات ، وتنافس الشعراء في خدمة الأمراء ، فكانت في الأقطار الإسلامية نهضة شعرية كبيرة ، وابتدأ ظهور الشعر الإقليمي — إن صح أن نسميه كذلك — إذ ظهر في الشعر عناصر الأقاليم المختلفة ، وبميزات الدول المتباينة ، وأصبح في كل إقليم شعراء ، وحفظ كل إقليم الشعر الذي أنشد فيه ، فبعد أن كانت بغداد هي مركز الحياة الأدبية وقلبها النابض ، صار الشعراء يقصدون الأقاليم المختلفة كما كانوا يقصدون بغداد من قبل ، وأصبحت النهضة الأدبية متفرقة

في الأقاليم ، وكثرت الرحلات العلمية إلى مختلف الأمصار ، وأكثر
الأمراء عطاء ونوالاً هو أعظمهم حظاً من وفود الشعراء والعلماء .

وكان الطولونيون بمصر أهل كرم وبذخ ، يعطون الأموال
الكثيرة ، ويهبون الهدايا . ويمدون السمط لكل طارق ، واستقدموا
الشعراء والأدباء ، وقربوهم ووصلوهم ، فكونوا حولهم بلاطاً
أديباً أشبه ما يكون ببلاط خلفاء العباسيين ، فأتت هذه الحياة
في مصر أيام الطولونيين شعراً كثيراً ، واجتمع في مصر عدد من
الشعراء قل أن يجود الدهر بمثلم حتى بالغ القاضي أبو عمرو عثمان
النابلسي في عددهم ، إذ نقل عنه المقرئ أنه قال في كتابه « حسن
السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة » رأيت كتاباً قدر اثنتي عشرة
كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون
قال : فإذا كان أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة كم يكون
شعرهم ؟^(١) ومع ما في هذا القول من مبالغة فإن بني طولون جمعوا
حولهم عدداً كبيراً من الشعراء فكثرت بذلك الشعراء المتكسبون ،
فلم يأت الأمير أمراً إلا ظهر في شعر الشعراء ، فمثلاً في الخلاف
الذي كان بين أحمد بن طولون والموفق العباسي سنة تسع وستين
ومايتين نجد شعراء ابن طولون قد دافعوا عنه ، ومدحوه لأنه
خلع الموفق عن ولاية العهد ، وأمر بجهاذه وحربه ، من ذلك ما قاله
قعدان بن عمرو .

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ١٢٤ .

طال الهدى بابن طولون الأمير كما
يزهو به الدين عن دين وإسلام
قاد الجيوش من القسطنطين يقدمها
منه على الهول ماض غير محجام
في جفيل للنبايا في مقابله
مكامن بين رايات وأعلام
يسمو به من بني سام غطارقة
بيض وسود أسود من بني حام
لو أن روح بني كنداج معلقة (١)
بالمشترى لم يفته أو بهرام
حاط الخلافة والدنيا خليفتنا
بصارم من سيوف الله صمصام
يا أيها الناس هبوا ناصرين له
مع الأمير بدم الخيل في اللام
ليست صلاة مصليةكم بجائزة
ولا الصيام بمقبول لصيام
حتى يرى السيد الميمون ذبكم
عن الإمام بأطراف القنى الدامى (٢)

(١) يقصد الشاعر هنا إسحاق بن كنداج القنى أسر الخليفة المعتد أثناء
فراره من الموفق في طريقه إلى ابن طولون (٢) الكندى ص ٢٢٧ .

وكقول الشاعر منصف بن خليفة الهذلي :
يا غرة الدنيا الذي أفعاله
غرر بها كل الورى تتعلق
أنت الأمير على الشام وثرها
والرقتين وما حواه المشرق
وليك مصر وبرقة وحجازها
كل إليك فؤاده متشوق
هتك الخلاقة ، صاعد ، ^(١) وخليه
« اسحق ، لعباً والحسود الآخرق
أسياقنا بيض المنون فليتها
بنجيع من خذل الإمام تخلق
تبسّى وتصبح ضارباً من دونه
بمهند منه الختوف تفرق
يتلوك ، سعد ، والمقدم « يتك ،
« واللاذقي ، وذو الحفيظة يلحق ^(٢) »

وفي أيام خماروية بن أحمد بن طولون خرج خماروية للحرب اسحق
ابن كنداج سنة ثلاث وسبعين ومائتين فهزم ابن كنداج وتبعه خماروية
حتى بلغ « سر من رأى ، فدحه القاسم بن يحيى المري

(١) هو صاعد بن غلاة الذي ساعد ابن كنداج في أسر المعتد .

(٢) الكندي ص ٢٢٨ وقد وردت الآيات الثلاثة الأولى في النجوم الزاهرة
ج ٣ ص ٢٠ غير منسوبة لاحد في رثاء ابن طولون ، وهذا خطأ كما يفهم
من الشعر .

أتانا أبو الجيش الأمير يمينه
فشرد عنا الجور وافقر العسر
فإن يك أرض الرقين به اكتست
ضياء وإشراقا لقد أظلمت مصر
فسائل به إسحق إذ سار نحوه
بجيش كعرض النيل يقدمه النصر
فأبلس إذ قيل الأمير يبالس
وأضحى ضعيف العقد إذ عقد الجسر
ولما رأى الجيش ابن كنداج مقبلا
أرته المنايا الحمر أعلامه الحمر
فولى شديدا ذا ارتياح كأنه
بكل بلاد طائر ما له وكر
لئن سر إسحق النجاة بنفسه
لقد ساءه في جمعه القتل والأسر
فلا يغبطن بالعيش من بعد هذه
فقد كسرت كسرة ما لها جبر^(١)
وقد خص القاسم بن يحيى بن معاوية المريشى شعره في مدح بخارويه
وقال فيه كل مدائح حتى سئل مرة أن يرحل عن مصر فقال :
وكيف رحلي عن بلاد غدا بها
أبو الجيش والنيل الذي ملا الأرض^(٢)

(١) الكندي من ٢٣٦ — ٢٣٧

(٢) الجزء الثالث من كتاب المغرب (نسخة خطية بدار الكتب المصرية)

وما كادت تدول دولة الطولونيين ، وتعود مصر مرة أخرى
إلى حكم العباسيين سنة اثنتين وتسعين ومائتين حتى رأينا الشعراء
يرثون الطولونيين ، ويأسفون على أيامهم الزاهرة ، بل نجد شاعراً
هو سعيد القاص ينظم تاريخهم في قصيدة أرى أن أثبتنا هنا لما فيها
من إشادة بأفعال الطولونيين ومنشأتهم

جرى دمعُهُ ما بين سحر إلى نحر
ولم يجنر حتى اسلته يد الصبر
وبات وقيداً للذي خامر الحشا
يثن كما أن الأسير من الأسر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسي
يبست على جمر ويضحى على جمر
تتابع أحداث يُضَيِّعُ صبره
وغدر من الأيام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدعها
ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها
بفقد بني طولون والأنجم الزهر
فبادوا وأضحوا بعد عزٍّ ومنعة
أحاديث لا تنقضي على كل ذي حِجْر
وكان أبو العباس أحمد ماجداً
جميل الحياء لا يبيت على وتر

كأن ليلالى الدهر كانت لحسناها
وأشراقها فى عصره ليلة القدر
يدلّ على فضل ابن طولون هيمه
محلقة بين السماكين والغفر
فإن كنت تبغى شاهداً ذا عدالة
يختبر عنه بالجلّى من الأمر
فالجبل الغربى خطة يشكر
له مسجد يغنى عن المنطق المنذر
يدل ذوى الألباب أن بناءه
وبانيه لا بالاضنين ولا النمر
بناه بأجر وساج وعرعر
وبالمرمر المسنون والجص والصخر
بعيد مدى الأقطار سام بناؤه
وثيق المبانى من عقود ومن جدر
فسيح الرحاب يحصر الطرف دونه
رقيق النسيم طيب العرف والنشر
وتنور فرعون الذى فوق قلة
على شامق عال على جبل وعر
بنى مسجداً فيه يروق بناؤه
ويهدى به فى الليل إن ضل من يسرى
تخال سنا قنديله وضياه
سهيلا إذا ما لاح فى الليل للسفر

وعين معين الشرب عين زكية
وغير أجاج للرواة وللطهر
كأن وفود النيل في جنباتها
تروح وتندو بين مد إلى جزر
فأرقة——أها (١) مستنبطاً لمعناها
من الأرض من بطن عميق إلى الظهر
بناء لو أن الجن جاءت بمثله
لقليل لقد جاء بمستفطع نكر
يمر على أرض المعافر كلها
وشعبان والأحمر والحى من بشر
قبائل لانوء السحاب يمدّها
ولا النيل يرويه ولا جدول يجرى
ولا تنس مارستانه واتساعه
وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاته
ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقر
فللميت المقبور حسن جهازه
وللحي رفق في علاج وفي جبر
وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملاً
إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر

(١) في القاموس أرقاً : أصلح وفسد من الأخذ .

ترى أثراً لم يبق من يستطيعه
من الناس في بدو البلاد ولا حضر
مآثر لا تبلى وإن باد ربهما
ومجد يؤدي وارثيه إلى الفخر
لقد ضمن القبر المقدر ذرعه
أجل إذا ما قيس من قبتي حجر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته
كما قام ليث الغاب في الأسل السمر
أقته المنايا وهو في أمن داره
فأصبح مسلوباً من النهي والأمر
كذلك اللبالي من أعارته بهجة
فيالك من ناب حديد ومن ظفر
وورث هرون ابنه تاج ماجد
كذلك أبو الأشبال ذوالناب والمصر
وقد كان جيش قبسه في محله
ولكن جيشاً كان مستنقص العمر
فقسام بأمر الملك هرون مدة
على كفظ من ضيق باع ومن حصر
وما زال حتى زال والدهر كاشح
عقاربته من كل ناحية تسرى

تذكرتهم لما مضوا فتابعوا
كما ارفض سلك من جمان ومن شذر
فن يك شيئا ضاع من بعد أهله
لفقدهم فليك حزنا على مصر
ليك بنى طولون إذ بان عصرهم
قبورك من دهر وبورك من عصر^(١)

ولهذا الشاعر أيضا عدة قصائد في مدح الطولونيين يصف فيها
ازدهار الحياة في مصر ، وقوة البلاد في عصرهم وما كانت ترتع
فيه من نعيم ورخاء .

على أن هؤلاء الشعراء الذين أكثروا من مدح الطولونيين
وخلعوا عليهم هذه الصفات والألقاب الشعرية التي تراها دائما في
مدح شعراء العرب ، لم يلبثوا أن تحولوا إلى مدح الأمراء والولاة
العباسيين الذي أبادوا ملك الطولونيين ، وأخرجوا قوادهم ومواليهم
نقلت منهم الديار المصرية وأحلوا بالطولونيين النظر يد والتشريد
فقرى شاعرا كاسماعيل بن أبي هاشم قد مدح الطولونيين بعدة
قصائد كقوله بعد أن دالت دولتهم :

قف وقفة بفناء باب الساج
والقصر ذى الشرفات والأبراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم
بعند الإقامة أيما إزعاج

كانوا مصاييحاً إذا ظلم الدجى
يسرى بها السارون في الإدلاج
وكان وجوههم إذا أبصرتها
من فضة مصبوغة أو عاج
كانوا ليوناً لا يرام حمام
في كل ملحمة وكل هياج
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم
علماً بكل ثنية وججاج
وعليهم ما عشت لا أدع البكا
مع كل ذى نظر وطرف ساج^(١)

هذا القول يظهر فيه الوفاء للطلوليين والإخلاص لهم وزراه
قد استمر على وفاته وإخلاصه ، يدلنا على ذلك شعره في ثورة محمد
ابن علي الخليجي^(٢) وكان أحد جند الطولونيين الذين أسرهم محمد
ابن سليمان القائد ، وسار بهم إلى الشام ، وفي دمشق حدثت نفس
ابن الخليجي أن يعود إلى مصر ، ويعيد الطولونيين إلى ملكهم ،
وكاشف بذلك بعض أصفياته فأجمعوا كتبهم على ذلك ، وساروا

(١) الخطط ج ٢ ص ١١٩ والكندى ص ١٣٢ — ٢٥٣ .

(٢) سمي هذا الرجل في الكندي ص ٢٥٩ بابن الخليج وفي القريري ج ٢
ص ١٢٤ ، ولكن صاحب النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٩٢ سماه الخنيجي ، وفي
مروج الذهب ج ٤ ص ٢١٧ سمي بالخليجي وكذلك في تاريخ الطبري ج ١١
ص ٣٩٣ والذي يصح عندي أنه ابن الخليج أو الخليجي لقول الشاعر في مدحه :
وكان أبوك خليج المفاة وبحر القفور التي جالها

معه حتى استولوا على الرملة باسم إبراهيم بن خمارويه ، واجتمع
إليه خلق كثير سار بهم إلى مصر وهزم جيوش عيسى النوشري
الوالى حتى استطاع ابن الخليجي أن يستولى على القسطنطينية في ذي
القعدة سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وأرسل الخليفة المكتفي بالله
جيشا لقتاله وعليهم أبو الأغر خليفة بن المبارك وغيره فقاتلهم ابن
الخليجي بمينة الأصبح وهزمهم سنة ثلاث وتسعين ومائتين (١) فمدحه
الشعراء منهم اسماعيل بن هاشم بقوله :

أميرنا يابن البهاليل الغرر شفيت من عدونا أبي الأغر
صدورنا وقيت من كل حذر إذ جاء في الشوك إلينا والشجر
في جحفل كموج بحر قد زخر يتبعه أهل البوادي والحضر
صبرت إذ لاقيته وما صبر فر في أسرع من لمح البصر
يقطر منه بوله قطر المطر أحدث فوق سرجه وما شعر
شفيتنا من تركهم مع الخزر ثم عفا أميرنا لما قدر (٢)

فهو هنا قد حفظ وفاء الطولونيين ولكن من الجائز أن يكون
الشاعر قد مدحه خوفاً منه ، ومع ذلك فقد مدح أحد صنائع
الطولونيين وهو بخلاف الشاعر سعيد القاص ، فقد رأينا قصيدته
التي تحدث فيها عن الطولونيين ، ومع ذلك فقد مدح القائد بدر الجمالي
الذي هزم ابن الخليجي سنة ثلاث وتسعين ومائتين بقوله :

حالت معارفهم إلى إنكار وغدا الخميس لهم يوم بوار

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥١ وما بعدها .

(٢) الكندي ص ٢٥٩ .

وتقاطعوا وتدابروا وتنافروا وتلاعنوا فيها كأهل النار
وأتوك بين معذر في عنده خجل وبين مصرح الإقرار
وترزعزت تلك الرماح فصورت

ركن المقطم في شفير هار

طلعت نجوم في الرماح يروحها فسقطن إذ طلعت نجوم قدار
لما انجلي ذاك الغبار رأيهم صرعى وقد لبسوا برسم غبار
فأسعد بنصر الله والفتح الذي

عظمت به النعمى على الأبرار (١)

فهذا شاعر متقلب في مدحه يمدح ذا السلطان والإمرة دون نظر
إلى مبدأ أو عقيدة مثله في ذلك مثل الشاعر أحمد بن محمد الحبشي الذي
مدح القائد محمد بن سليمان الكاتب لما دخل مصر وانتزعها من أيدي
الطولونيين — فقد أنشد هذا الشاعر قصيدة بائية تكاد تكون
نفس قصيدة أبي تمام التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحدبين الجد واللعب

فالشاعر المصري في قصيدته أخذ معاني قصيدة أبي تمام وأودعها

شعره بل أخذ ألفاظ أبي تمام وصنع منها قصيدته وفيها يقول :

الحمد لله إقراراً بما وهبنا قدام بالآمن شعب الحق فانشعبا

الله أصدق هذا الفتح لا كذب فسوء عاقبة المشوى لمن كذبا

فتح به فتح الدنيا محمدنا وفرج الظلم والإفلام والسكربا

لأريب رب هياج يقتضى دعة وفي القصاص حياة تذهب الريبا

رى الإمام به عنراء غادرة فافتض عنزتها بالسيف واقتضبا

محمد بن سليمان أعزهم نفساً وأكرمهم في الداهين أبا
سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشرأ أضحى عرينهم الخطى لا القنبا
حم القضاء على اليجوم حين أتوا مثل اللبي يمتحون الدبة الدأبا
إيها علوت على الأيام مرتبة أبا على ترى من دونها الرتبا
لما أطال بنو طولون خطبتهم من الخطوب وعافت منهم الخطبا
هارت بهرون من ذكراك بقعته وشيب الرعب شيئاً: أوقد رعبا
وكم ترى لهم من جنة أنف ومن نعيم جنى من غدرهم عطبا
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنها من زمان غابر ذهباً (١)
ولأترك مقارنة هذه القصيدة المصرية بقصيدة أبي تمام المعروفة
التي أنشدتها في مدح المعتصم ويذكر فيها فتح عمورية إذ ليس هنا مجال
البحث عن ذلك وأكتفي بالإشارة إليها، وأعود إلى الشاعر أحمد
ابن محمد الحيشي فأقول إنه كثيره من الشعراء الذين يمدحون أصحاب
السلطان ويتغيرون بتغير الولاء والأمراء فهو في هذه القصيدة مدح
عدو الطولونيين فلما استولى ابن الخليجي على مصر وأراد أن يعيد ملك
الطولونيين نراه قد مدح الأمير لا تنصاه على جيوش العباسيين بقوله:

غضبت لمصر وما نالها	وشردت بالحوف من غالها
تلاقيتها بعد إذ بارها	وأقبلت تطلب إقبالها
وكادت تؤوّه شوقاً إليك	وتظهر بالشوق بلبالها
وما شوقها كان من طبعها	ولكن ربك أوحى لها
لقد فرّج الله كرب النفوس	وبكتها فيك آمالها
ولما رأيناك في مصرنا	منحتنا الإمارة إجلالها

وما زلت تطلبها همة وتركب بالسيف أهوالها
وتعلم نفسك أن الأمور إما عليها وإما لها
تمنوا لقاك فلما رأوك رأوا للنية إظلالها
ومروا يطيعون في كل شيء رأوه المنايا وإنزالها
وكان أبوك خليج العفاة وبحر الثغور التي عالها
به كانت الروم في أمنها تفرّغ للذنب أطفالها (١)

نستطيع من ذلك كله أن ندرك أن عدداً كبيراً من الشعراء
ظهروا في هذا العصر، وأنشدوا شعراً في مدح الأمراء وأن كثيراً
منهم تقلب في المدح بتقلب الأحوال السياسية في البلد، إذا لاهم
لأمثال هؤلاء الشعراء إلا إرضاء الأمير مهما كان هذا الأمير.

على أنه وجد بعض الشعراء الذين اتخذوا لأنفسهم رأياً خاصاً،
ومذهباً دافعوا عنه غير آبهين بأمر أو سلطان، ففي الوقت الذي
كان فيه أحمد بن طولون في منتهى قوته واتساع سلطانه، وفي الوقت
الذي تقرب فيه الشعراء إليه وحاولوا إرضاءه وطمعوا في نواله
وتحدثوا عن نعمه وأياديه على البلاد، في هذا الوقت نجد شاعراً من
شعراء الطولونيين هو محمد بن داود قد أكثر من هجاء ابن طولون
فلم يأت الأمير عملاً إلا هجاء هذا الشاعر حتى إذا أقام الأمير المنشآت
النافعة نجد الشاعر قد اتخذ هذه المنشآت وسيلة لهجاء الأمير دون
خوف، فثلاً بنى الأمير المارستان سنة تسع وخمسين ومائتين
فهجاء الشاعر محمد بن داود بقوله :

ألا أيها الأغفال أيها تأملوا
وهل يوقظ الأذهان غير التأمل
ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة
تسير من سفلى إليكم ومن عل
ولولا جنابات الذنوب لما علت
عليكم يد العليج السخيف المجهل
فيا ليت مارستانه نيط باسته
وما فيه من عليج عتل مقلل
فكم ضجة للناس من خلف ستره
تضج إلى قلب عن الله مغفل (١)
ولما بنى أحمد بن طولون المراكب الحربية واتخذ الحصن في
الجزيرة هجاء الشاعر بن داؤد بقوله .
لما ثوى ابن بغا بالرقتين مالا
ساقيه زرقا إلى السكعين والعقب
بنى الجزيرة حصنا يستجن به
بالعسف والضرب ، والصناع في تعب
وراقب الجزيرة القصوى فخذقها
وكاد يصعق من خوف ومن رعب
له مراكب فوق النيل راكدة
فما سوى القار للنظار والخشب

يرى عايتها لباس الذل منذ بنيت
 بالشط ممنوعة من عزة الطلب
 فما بناها لغزو الروم محتسباً
 لكن بناها غداة الروع للهرب^(١)

وظل هذا الشاعر يهجو أحمد بن طولون حتى توفي الأمير فلم
 يقلع عن هجائه بل رماه بأشد أنواع الهجاء ولم يتورع عن بسط
 لسانه في الأمير حتى بعد وفاته من ذلك قوله :

مضى غير مفقود وما كان عمره
 سوى نقمة للخلق شنعاء صيلم
 لقد زيد في اليجوم بالرجس لعنة
 ولم يسق بالمرجوس ترب المقطم
 ولم تبكه الأرضون لكن تبسمت
 سروراً ولولا موته لم تبسم
 يبشره إبليس عند قدومه
 عاينه بأحى بقعة في جهنم
 لقد طهرت الأرض من سوء فعله
 ومن وجهه ذاك الكريه المورم
 فلا سقيت أجدائه صوب مزنة
 وأنى وفيها شر أولاد آدم^(٢)

(١) خط المقيزي ج ٣ ص ٢٩٣ والكندى ص ٢١٨ .

(٢) الكندى ص ٢٢٢ .

ولا أدري سبب هذا الهجاء الذى لا أكاد أعرف مثيلاً له فى الهجاء العربى فإن الشعراء كانوا أمام حرمة الموت يتورعون عن هجاء الموتى، ولكن هذا الشاعر المصرى كان موتوراً - كما يخيل إلى - فلم يكفه أن يظهر فرح الموت الأمير بل هجاء بهذه الآيات وبغيرها مما يدل على أن المصريين فى هذا العصر اتخذوا الشعر وسيلة لهجاء الموتى وهو الأمر الذى لم نره فى شعر المصريين قبل ذلك العصر .

وفى هذا العصر أيضاً ظهر فى الشعر المصرى فن لم نجد له مثيلاً فى العصور السابقة ، بل لا نجد له مثيلاً فى الشعر العربى إلا فى شعر الأندلسيين ، فمؤرخو الأدب العربى قالوا إن الأندلسيين امتازوا برثاء الممالك والبلدان كلما اختطف عدوهم منها شيئاً ، وأشاد مؤرخو الأدب بقصيدة ابن عبدون الأندلسى التى رثا بها دولة بنى الألفطس والى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالآثر فالبكاء على الأشباح والصور

ومن يقرأ الشعر المصرى فى هذا العصر يجد أن هذا الفن كان معروفاً فى مصر ، وأن شعراء مصر أكثروا فى الحديث عنه ، فبعد أن دالت دولة الطولونيين ، وعاد الأمر إلى الخليفة العباسى ودمرت القطائع ، وخرب الميدان قام شعراء مصر يرثون أيام الطولونيين ، وما بنوه ، ويعددون مفاخرهم ، ويصفون دورهم ، ويأسفون على ما لحق هذه المنشآت الجليلة من التدمير والحراب ، والترحم على الأيام الجميلة التى قضوها بين هذه المباني مثل قول الشاعر محمد بن طشويه :

من لم ير الهدم للبدان لم يره تبارك الله ما أعلاه وأقدره
لو أن عين الذى أنشاه تبصره والحادثات تعاديه لا كبره
كانت عيون الورى تغشى لهيبته إذا أضاف إليه الملك عسكره
أين الملوك التى كانت تحل به وأين من كان بالإتقان دبره
وأين من كان يحميه ويحرسه من كل ليث يهاب الليث منظره
صاح الزمان بمن فيه فقرهم وحط ريب البلى فيه فدعثره
وأخلق الدهر منه حسن جدته مثل الكتاب بحال العصر ان أسطره
دكت مناظره واجتث جوسقه كأنما الخسف فاجاه قدمه
أوهب إعصار نار فى جوانبه فعاد معروفه للعين منكبه

كم كان يأوى إليه فى مقاصره

أحوى أغن غضيض الطرف أحوره

كم كان فيه لهم من مشرب غدق فعب طرف الردى فيه فكدره
أين ابن طولون بانيه وساكنه أماته الملك الأعلى فأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر طوبى لمن خصه رشد فذكره (١)
وقال اسماعيل بن أبى هاشم:

يامنزلا لبني طولون قد درأ

سقاك صوب الغواذى القطر والمطرا

يامنزلا صرت أجفوه وأهجره وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحببنا أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا (٢)

(١) خطط المفرىزى ج ٢ ص ١٢١ والكندى ص ٢٣٣ .

(٢) شرحه ج ٢ ص ١٢٢ والكندى ص ٢٦٦ .

وكقصيدة سعيد القاص التي مر ذكرها ، فمن ذلك نستطيع أن ندرك أن الشعراء المصريين أخذوا بنصيب وافر من هذا الفن الذي لم يكثر فيه غيرهم من شعراء الشرق ، كما يدلنا ذلك أيضاً على تطور الشعر في مصر ، فبعد أن كان الشعر المصري في العصور السابقة يكاد يكون صورة من الشعر العربي في الأقطار الأخرى من حيث المعاني والخيال مع اختلاف المعاني والخيال باختلاف الحياة المصرية ، وبعد أن كان الشعر شعر مناسبات — إن صح هذا التعبير — أصبح الشعر في عصر الطولونيين والإخشيديين يأخذ مظهراً آخر لم نعرفه من قبل . وقد رأينا الشعراء في العصر السابق يأخذون بحظ وافر من الثقافات المختلفة ، وبعضهم صاحبوا أئمة الفقه وأخذوا عنهم ، تطور الشعراء في عصر الطولونيين فقد ترك أكثرهم العلم ، واهتموا بالفن الشعري والتكسب به ، حقيقة وجد بعض الشعراء في ذلك العصر أتقنوا كثيراً من فنون العلم ، فكان منهم الكتاب أمثال جعفر بن محمد ابن جدار وصالح بن رشد بن وغيرهما ، وكان منهم المؤلفون أمثال ابن الداية الذي تحدثنا عنه ، والحسن بن علي الأسدي صاحب كتاب الأليس الذي وصفه بقوله :

فيه ما يشتهي الأديب من العلم

لم وفيه جلاء هم النفوس

فيه ماشئت من بدور معان

ضاحكات إلى وجوه شمس (١)

(١) ينبهة الدهر لثمالي ج ١ ص ٣٣٧ .

كما كان بين شعراء ذلك العصر بعض الفقهاء أمثال منصور الفقيه والحداد القاضى ، ومنهم المتكلمون كابن الجبى الشير بسيدويه المصرى ، وبالغ بعضهم فى إطالة القصائد كالذى يروى عن قصيدة محمد بن أحمد بن الربيع بن سليمان الاسوائى التى لا يعلم فى الوجود أطول منها ، سئل قبل موته بسنتين كم بلغت قصيدتك إلى الآن قال : ثلاثين ومائة ألف بيت وقد ضمن قصيدته هذه كثيراً من الأخبار وقصص الأنبياء وبعض العلوم والآراء الفقهية وعلوم الطب (١) وبالرغم من وجود هؤلاء الشعراء العلماء كان أكثر شعراء ذلك العصر يهتمون بالشعر دون غيره .

وفى الشعر المصرى فى هذا العصر كثير من الحكم والآيات التى جرت مجرى الأمثال ، وكثير من أشعار الزهد كالتى نراها فى أشعار منصور الفقيه وابن طباطبا وغيرهما .

أثر اللهب فى الشعر :

والظاهرة التى يجب أن نلاحظها على شعراء هذا العصر هى انخساع الشعراء فى تيار اللهب والمجون ، فقد غرهم الترف ، فأخذوا يحط وافر منه ، وكثر المجون فى هذا العصر ، وازداد بازدياد ثروة البلاد ، فرغب الشعب المصرى فى هذه الحياة الماجنة ، والمصرى بطبيعته ميال إلى الفكاهة والدعابة ، وإذا ذكر فى العراق جماعة أبى نواس فى مصر جماعة محمد بن عاصم وسعيد بن فاخر قاضى البقر شاعر الأخشيد ، وأبى هريرة بن أبى العصام وغيرهم .

(١) فوات الوفیات لصفدى ج ١ ص ٤٤٤ نسخة خطية بالمكتبة التيمورية

وقد ساعد على وجود هذه الحياة بمصر بذخ الأمراء وإسرافهم
وأخذهم بحياة النعيم وشرب الخمر والإسراف في شربها وسباع الغناء
واللهو بالجوارى والقيان كما كان يفعل خلفاء بني العباس .
فأحمد بن طولون مع تمسكه بأهداب الدين ، وكثرة علمه ، وما
كان يؤثر عنه أنه كان يسكر كل يوم فيخرج لسباع قراءة الأئمة في
المحراب ^(١) كان مع ذلك كله يشرب الخمر ويسمع الغناء ، ويقرب
المغنين .

حدثنا ابن الداية قال : قال أحمد بن أيمن : كنا عند أحمد بن
طولون فقال لسكينز المغنى أشتهى صوتا ما سمعته منذ خرجت من
سر من رأى ، فقال : وما هو يا سيدى ؟ فقال هذا البيت :

ألا شفيتم غليلا لا أفارقه نفسى فداؤك من ذى غلة صادى
خملنى التبيذ وما استهوانى من تقرب أحمد بن طولون وإيناسه
على أن قلت : أنا أحسنه ١١ فقرح ابن طولون ، واندفعت أغنيته
إياه — وكان أحمد بن أيمن ذا جثة عظيمة ، وعقيرة جهيرة حسنة
الإيقاع — فطرب طربا شديدا ثم صفق يديه ، فسبقتة إلى سخف
الطرب ، ووقت فرقصت على إيقاع اللحن فزاد سروره ^(٢) .

وعرف خمارويه بن أحمد بن طولون باللهو والمجون ، والبذخ
في الحياة والإسراف في الشراب حتى حدثنا التتوخى أن خمارويه
كان إذا قعد للشرب يشرب أربعين رطلا من نبيذ مصر المعروف

(١) الأذكياء لابن الجوزى ص ٤٩ (طبعة سنة ١٢٧٧ هـ) .

(٢) سيرة ابن طولون لابن الداية ص ٤٩ .

بالشربوى ، ومن يشرب منه رطلا يستطيع أن يشرب من غيره
أرطالا^(١) ، وهذا لا شك إسراف من التلوخي أيضا ، ولكنه
يدلنا على أن خمارويه كان كلفا بالشراب . ووجد بعض البلدان
عرفت بصنع الخنور كمدينة أبوان (بالقرب من دمياط) كان أهلها
نصارى ويعمل فيها الشراب الفائق فينسب إليها فيقال بونى^(٢) .

ولا ننسى الأديرة الكثيرة التى كان يتزح إليها الشعراء وغيرهم
من أصحاب اللهب والمجون ، فكما كان العراقيون يذهبون إلى دير
عبوس وغيره من الأديرة . كذلك ذهب المصريون إلى دير
القصير ودير نيا ودير مارحنا وغيرها ، وكان خمارويه يذهب
إلى دير القصير إذ بنى لنفسه غرفة فى أعلى الدير ذات أربع
طاقات إلى أربع جهات ، وكان يذهب إلى هذا الدير مظهرا إعجابه
بصورة مريم العذراء التى كانت فى هيكال الدير ، ويشرب على النظر
إلى هذه الصورة^(٣) . وكان الشعراء يذهبون إلى هذا الدير ،
ووصفوه فى شعرهم ، وذكروا طيبه ونزهتهم به ، ثم لم يهملوا
وأياهم التى قضوها فيه . من ذلك قول أبى هريرة بن أبى العصام
وكان من شعراء الأخشيديين وعاش حتى أوائل حكم الفاطميين .

كم لى بدير القصير من قصف
مع كل ذى صبوة وذى ظرف

(١) نثر المأذنة للتوخي ص ٢٦١ .

(٢) معجم البلدان ج ١ ص ٩٣ .

(٣) ورقة رقم ١٢٤ من كتاب الديارات لأبى الحسن القاسمى . نسخة خطية

بدار السكتب المصرية .

لحوت فيه بشادن غنج

يقصر عنه بدائع الوصف^(١)

ويحدثنا المقرئ أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر بهدم هذا
الدير في رمضان سنة أربعائة . أما دير مارحنا فقد كان على شاطئ
بركة الحبش وبقره بئر تعرف بئر نجاتي عليها جميزة يجتمع الناس
إليها ويشربون عندها^(٢) ومن الشعراء الذين كانوا يذهبون إلى هذا
الدير الشاعر العباس بن البصري ، قال عنه الشاشتي : وكان ابن
البصري هذا من الخلعاء الجبان ، وله شجر يجرى مجرى الهزل والطيب ،
وخدم أبا القاسم أونوجور بن الأخشيد فأحسن إليه وكساه ، وصار
يركب معه ، وكان يلبس طيلساناً أزرق يتشبه بالقضاة ، وكان
أونوجور قد حمّله على بردون أصفر غليظ بطيء السير ، فكان إذا
سار مع أقوام من إخوانه قال لهم : صفوا لي موضعكم حتى ألحق
بكم ! وكان مليح المجالسة كثير النادرة ، وكان يبيع الصيدلة في مسجد
عبد الله بمصر^(٣) . وقد قال هذا الشاعر في دير مارحنا :

يا حامل الكأس أدرها واسقني

قد دعر الشوق فؤادي فاندعر

أما ترى البركة ما أحسنها

إذ تداعى الطير فيها فصفر

أما ترى نوارها أما ترى

حسن مسيل ماها إذا انحدر

(١) يتيمة الدهر للمعالي ج ١ ص ٣٣١ .

(٢) ورقة ١٢٦ من كتاب الديارات (٣) ورقة ١٢٠ من كتاب الديارات

كأنما صفر الدنانير بها
مبدولة ليس بها من متجر
كأنما الجوهر في ألوانه
نثر في تلك التسواحي فانتثر
كأنما كف جواد ولعت
في ذلك الروض بتديد البدر
وابيض الترجس في أجفانه
دمع الندى لولا التشاجي لقطر
ونظرة الورد إلى أترابه
نظرة معشوق بلخط منكسر
دعني فما أهلك إلا بالجوى
ما عيشة العاشق إلا في كدر (١)

ولابن البصري شعر كثير في الأديرة التي كانت بمصر ولاسيما
في دير نيا بالقرب من الجيزة ، قال ابن فضل الله العمري عن هذا
الدير وديرها (أي دير نيا) هذا من أطيبها موصفا ، وأجلها
موقعا ، عامر برهبانه وسكانه ، وله في النيل منظر عجب ، لأن الماء
يحيط به من جميع جهاته ، ويزيد في حسن متزهاته ، فإذا تصرف
الماء أظهرت أرضه غرائب النوار ، وعجائب الزهور المشرقة الأنوار
وله خليج ينساب انسياب أرقم ، وعليه شطوط كأنها بالديباج
ترقم ، (٢) وفي هذا الدير قال ابن البصري :

(١) ورقة ١٢٨ من كتاب الديارات .

(٢) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٦٢ .

يا من إذا سكر النديم بكأسه
غريت لوحظه بسكر الفيق
طلع الصباح فأسقى تلك التي
ظلمت فشبها لونها بالزنبق
والق الصباح بنور وجهك إنه
لا يلتقى الفرحان حتى نلتقى
قلبي الذي لم يبق فيه هواكم
إلا بقية نار شوق قد بقي
أو ما ترى وجه الربيع وقد زهت
أنواره بنهاره المتألق
وتجاوبت أطياره وتبسمت
أشجاره من ثغر زهر مورك
لم يغدها ظل الرذاذ ببرده
حتى تفتح كل جفن مطبق
والبدر في وسط السماء كأنه
وجه مليح من قناع أزرق
يا للديارات الملاح وما بها
من طيب يوم مر لي بتشوق
أيام كنت وكان لي شغل بها
وأسير شوق صباي لم يطلق
يادير دنياه ما ذكرتك ساعة
ألا تذكرت الشباب بمفرق

والدهر غص والزمان مساعد
ومقامنا وميتنا بالجوسق
يادير « نهيا » إن ذكرت فأتى
أسعى إليك على الخيول سبق
وإذ سئلت عن الطيور وصيدها
وجنوسها فاصدق وإن لم تصدق
فالغزّ فالكروان فالقارور إذ
يشجيك في طيراته المتخلق
أشهدت حرب الطير في غيطانه
لما تحرق منه كل محرق ؟
والزمج الغضبان في رهط له
ينحط بين رعد ومبرق
ورأيت للبازي سطوة موسر
ولنفسيره ذل الفقير المعلق
كم قد صبوت بفرق في شرقى
وقطعت أوقاتي برى البنسوق
وخلعت في طلب المجون حبالى
حتى نسبت إلى فعال الأخرق
ومهاجر ومكاسر ومنافر
قلق الفؤاد به وإن لم يقلق
لو عاين التفاح حمرة خده
لصبا إلى ديساج ذاك الروق

يا حامل السيف الغداة وطرفه
أمضى من السيف الحسام المطلق
ارفق بعبدك لا تطل أشجانه
وارفق به يا صاحب الثغر النقي^(١)

ولم يقتصر اللہو على أن يصف الشعراء هذه الأديرة بهذا الوصف
الجميل الرقيق ، وذكر الطرد والصيد كالذي رأيناه في قصيدة ابن البصري
السابقة ، بل نجد كثيراً من الشعراء يصفون مجالس الخمر ويذكرون
مجونهم وفتشهم ويعرضون بالدين ، فثلا الشاعر سعيد بن فاخر
المعروف بقاضي البقر وكان شاعر الأخشيذ وابنه^(٢) قال :

حي على الكأس في الصباح مطرحة نصح كل لاح
واتهب العيش ما نأق فأنت منه على جناح
وأجرني من عقول قوم عموا عن الشرب والملاح
يارب دعني بلا صلاح يارب ذرفي بلا فلاح
يدى مدى الدهر فوق ددف وراحتي تحت كأس راح^(٣)

فهذا الشاعر المصري الذي أنشد مثل هذا الشعر لا يقل في الفجور
والعبث عن أنشد شعراء العراق مجوناً وفسقاً ، فهو هنا قد تهكم بالدين
ودعا الله أن يديم عليه ذلك التهاون بالدين بما يدل على أن حياة اللہو
كان لها أثر كبير في شعراء ذلك العصر .

لم يكن قاضي البقر وحده الذي أنشد مثل هذا المجون والفسح
بل نجد الشاعر أبا هريرة أحمد بن أبي العصام وهو من شعراء أواخر

(١) ورقة ١٢٩ و ١٣٠ من المخطوطات .

(٢) المغرب في حل أخبار المغرب ص ١٠٣ (٣) المغرب ص ١٠٣ .

الدولة الأخشيدية ، وقبل إنه عمر حتى شاهد عصر الحاكم بأمر الله
الفاطمي ، قد أنهك في اللذات ، وأسرف في اللهو ، وأدمن على
الشراب ، فوصف الخمر ومجالس اللهو ، وكان كزيمه قاضي البقر
مهاونا في دينه ، لم يخش صاحب زنقة ولا سلطان أمير ، وكان
كزيمه يتهم بالدين ، بل هو أشد تهكماً من كزيمه بفرائض الإسلام :
مجلس لا يرى الإله به غيـــــــــــــر مصل بلا وضوء وطهر
سجد للكؤوس من دون تسليـــــــــــــح سوى نغمة لعود وزمر^(١)

إذن ظهر اللهو والمجون في الشعر المصري في هذا العصر ، ولم
ييال الشاعر المصري بالشعور الديني الذي كان يسود البلاد . ونعجب
إذا عرفنا أن مثل هذا الشعر صدر عن شعراء على اتصال وثيق
بالأمراء فهل نفهم من ذلك أن أمراء مصر في هذا العصر تهاونوا
بالدين إلى حد أنهم سمحوا للشعراء المتصلين بهم أن يعبثوا ويشدوا
مثل هذه الأشعار !!

الواقع أن أمراء مصر في ذلك العصر قد أكثروا من الترف
والنعيم وأرادوا أن يتمثلوا بخلفاء العباسيين في لهوهم ومجونهم ،
وشاركهم الشعراء والكتّاب في اللهو ، وإن كان الشعور الديني ،
والتمسك بأهداب الدين يعم البلاد ، يحدثنا المقرئ أن أحمد بن
طولون كان قد اتخذ حجرة بقربه فيها رجال سماهم المكبرين ، يبيت
منهم في كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل ، ويكبرون ويسبحون ، ويقرأون
القرآن تطرياً بالحن ، ويتوسلون بقصائد زهدية ، فلما ولي خمارويه
أقرهم على حالهم ، وأجراهم على رسمهم ، وكان يجلس للشرب مع

حظاياه في الليل وقيانه تغنين ، فإذا سمع أصوات هؤلاء يذكرون الله
والقدح في يده ، وضعه بالأرض وأسكت مغنياته ، وذكر الله معهم
حتى يسكت القوم ، لا يضجره ذلك ولا يغيظه أن قطع عليه ما كان
فيه من لذة السماع^(١) بما يدل على أن الشعور الديني كان متغلغلا في نفس
الأمير ولكنه كان يأخذ بحظه من اللهو . وشارك الشعراء أمراءهم في
هذا اللهو وأخذ الشعراء يدعون بعضهم بعضا على مجالس اللهو كما كان
يفعل شعراء العراق ، فالشاعر المصري عبد الله بن محمد بن أبي
الجوع — وكان من شعراء الأخشيديين وعاش إلى أوائل الدولة
الفاطمية ، وصادق أبا الطيب المتنبي في مصر وروى عنه ، وكان من
أكبر علماء اللغة في عصره — دعا بعض إخوانه بقوله :

شعبان قد صار نضوا	ولم نقد فيه هوا
وليس ذلك منا	جهلا ولا كان سهوا
فبالا — ودة إلا	بكرت للقصف عدوا
حتى تقوم فترفوا	ما خرّق الدهر رفوا
من بعد تقديم جدى	مسمّين ظل يشوى
له ثلاثون يوما	يجبوا إلى الضرع حبوا
لما انتزعت حشاه	عوضته البقل حشوا
وقد غنيت بجام	ملأته لك حلوى
وقم — وة بنت كرم	صفت من الثم صفوا
ما شعشت قط إلا	سقط على الهم سطوا

جنبته كل وغد يمحو المحاسن محو
إلا إذا ما اقتنصنا عنب الخلائق حلوا
وشادن ذى دلال يشدوا فيلميك شدوا
إما غنـاء وإما عجائب عنه تروى
حتى تظل بمـاء فيـه من وقارك خلوا
وعنـدنا لك ورد يحدو المسرة حدوا
ريحانه لا يوازى لونا وعطرا وسروا
فما اعتذارك في أن تقنى زمانك صحوا
وأنت بهـد قليل بالصوم والله تطوى^(١)

وهكذا أصبح الشعر المصرى أداة للراسلة بين الأصدقاء .
وبالشعر وصف الداعون ما أعدوا للزائرين من ألوان الأكل
والشرب وما يتبع ذلك من ألوان اللهو والطرب . وهذا كله يدلنا
على تطور الحياة المصرية ، وتطور الشعر بتطور الحياة نفسها .

الطبيعة فى الشعر المصرى :

ويظهر تطور الشعر المصرى فى هذا الفن الذى أجاده كثير من
شعراء مصر فى ذلك العصر ، وهو فن الوصف ، فالطبيعة وما فيها
من جمال بعثت على إغراء الشعراء على وصفها ، وشعراء مصر
الذين لم يكن لهم نصيب فى وصف جمال الطبيعة قبل عصر الطولونيين
أو قل إنه لم يصلنا عنهم شيء فى الوصف قبل عصر الطولونيين ،

أصبح عندهم وصف الطبيعة فنا يقصد لذاته ، بعد أن صقلت الحياة الجديدة مزاج الشعراء وصفت قريحتهم ، ولعل الشاعر ابن طباطبا العلوى كان أقدر شعراء مصر في هذا العصر على الوصف ، وكان له من فنه بل من حياته ما جعله في طليعة شعراء الوصف ، فهو شاعر قال الشعر حبا في الفن الشعري ، وعن طبيعة رجل فنان ، ولم يقصد لغرض آخر سوى اللذة الفنية ، فاستطاع أن يتمتع نظره وحواسه بما حوله من الطبيعة ، وما فيها من جمال وبهاء فتأثر بما رآه ، وأنشد الشعر تحت تأثير جمال الطبيعة الذى فتن به . وأخذ في تشبيه الموصوف وسبغ عليه من الخيال ، وألبسه ثوبا يتفق مع مزاجه الشعرى الفنى ، ففى وصفه لللال قال :

وكان الـ_____لال لما تبدى

شطر طوق المرأة للتذهيب

أو كقوس قد انحنّت أو كتوى^(١)

أو كنون فى مهرق مكتوب^(٢)

ووصف البركة بقوله :

كم ليلة ساهرت أنجمها التى

عرصات^(٣) أرض ماؤها كسائها

قد سيرت فيها النجوم كأنما

فلك السماء يدور فى أرجائها

(١) التوى : الحفيد حول الحباء أو الحجة لمنع السيل (٢) المقرب س ٥٠ .

(٣) عرصات وعراس وأعراس جمع عرصة كل بقعة بين الدور واسعة ليس

فيها بناء

أحسن بها بحراً إذ التبس الدجى
كانت نجوم الليل من حصائها
ترنو إلى الجوزاء وهى غريقة
تبغى النجاة ولات حين نجاتها
تطفو وترسب فى اصطفاق مياهها
لا مستعان لها سوى إنمائها
والبدر يخفق وسطها فكأنه
قلب لها قد ربيع فى أحشائها^(١)

وقد ذكرنا كيف كان شعراء مصر يذهبون إلى الأديرة وغيرها
من أماكن اللهو ، وكيف كانوا يصفون هذه البقاع ، ويتحدثون
بطبيعتها وجمالها ، ويتزعمون بجمال طبيعتها ، بما يدلنا على أن شعراء
هذا العصر قد دقت شعورهم ، ورق قلمهم ، فوصفوا الطبيعة وجمالها
ولا أشك أن شعراً كثيراً قد أنشد فى الوصف ، ولكن هذا
الشعر فقد ، ولم يبق منه إلا أبيات قليلة ، وهى إن دلت على شيء
فهى تدل على أن الشاعر المصرى نظر حوله فرأى ما لم يره غيره ،
فأوحى إليه الشعر ، ووصف ما رآه وما جال فى خاطره ، وصفاً
قربه إلى الطبيعة فأدركها ، وفى هذا اللون من الفن يتجلى فن الشاعر
المهرف الحس ، الدقيق الشعور ، الطبيعى الشعر . وهذا اللون نجده
يغلب على شعراء هذا العصر مما يميزهم عن شعراء العصور السابقة
فإننا لم نعهد شاعراً من شعراء العصور السابقة قال مثل الذى أنشده
الشاعر صالح بن موسى فى وصف البركة .

(١) حلة السكيت ص ٣٣٩ (مطبعة الوطن س ١٢٩٩ هـ) .

أو ما ترى حسن الريا ضوما اكتسين من الزهر
وجه الريع وجذا وجه الريع إذا ظهر
الوشى ينشر والملا حف والمطارف والخبر
هذا البنفسج في الحدا د بغير حزن قد ظهر
وأتى البهار بصفرة فلكل حسن قد بهر
وكان آذريونه كاسات خمر تبدر
وكانما المشور عقد في جوانبه انتثر
والأقحوان فضاحك عن عسجد فيه درر
وشقائق النعمان كاله أعلام ثم لمن نظر
وتورد الورد الذكسى وفاح مسكا في السحر
وتجاوبت طير الغصون بكل لحن مشتهر
فغرد حسن الغنا شدا وآخر قد زمر
وتسرقت أنفاسنا بنسيم أنفاس السحر^(١)

من ذلك كله نستطيع أن ندرك إلى أى حد تطور الشعر في مصر
في هذا العصر ، كما نلاحظ أن الشعراء غنوا بالمعاني كما أنهم غنوا
بالألفاظ وتنسيقها وأكثروا من التشبيهات الرائعة التي أضافت
إلى شعرهم جمالا ، كما نجد بعض الشعراء قد كلف بالزينة اللفظية
وتعمدها كما كان يتكلفها أصحاب مسلم وأبي تمام ، وفي حديثنا عن
الشاعر ابن جدار سنجد كيف تلاعب هذا الشاعر باللفظ تلاعباً
غريباً لم نجد له مثيلاً عند شعراء البديع .

أغراض أخرى للشعر :

أما فنون الشعر التي طرقها شعراء مصر في هذا العصر فقد تحدثنا عن أكثرها كما أننا نجد شعراً كثيراً في الرثاء كقصيدة محمد بن الحسن ابن زكريا في رثاء الأخشيذ التي أولها :

في الرزايا روائع الأوجال والبرايا دريئة الآجال
وكذا الليل والنهار اعتبار للورى في تفكر الأحوال
كل شيء وإن تهادى مداه قصره للفناء أو للذوال (١)
وكقول مهمل بن يموت في رثاء الأخشيذ أيضاً :

أى عز مضى من الإسلام أى ركن أضحى حديث انهدام
ذاق موتاً محمد بن طعج هوليث الشرى وغيث الغام
فقد الناس مولى الإنعام فهم سائمون كالأنعام
مات رب العلا وراعى الرعايا والسرايا وكافل الأيتام (٢)

أما الهجاء فقد ذكرنا هجاء ابن أبي داؤد في ابن طولون —
وظهر في هذا العصر الهجاء بين الشعراء ، كالذى كان بين صالح بن
مؤنس ، وعبد الله بن أبي الجوع (٣) ، وفي هجائهما نرى شيئاً من
الفحش كالذى كان في هجاء جرير والفرزدق ، وهناك لون
آخر من الهجاء لم يكن بين الشعراء ، إنما كان هجاء بين العلماء
كالذى رأيناه في العصور السابقة ، وبخاصة هجاء القضاة ، فابن

(١) هذه القصيدة بأكملها في نهاية الأثر لتويرى ج ٥ ص ١٨٤ .

(٢) هذه القصيدة بأكملها في نهاية الأثر لتويرى ج ٥ ص ١٨٦ .

(٣) بقيمة الدهر ج ١ ص ٩٠٣ وما بعدها .

سكرة الشاعر هجا الحسين بن أبي الشوارب القاضى المتوفى سنة ٣٤٩ هـ بقوله :

ولقد جنى قاضى القضاة حسين نجل أبي الشوارب
هذا الذى هتك الشرايع بالبدائع والمثالب
هذا المضمّر للفروج وللدماء بغير راكب^(١)

وبالرغم من أن القاضى محمد بن أحمد بن الحداد — الذى ولى قضاء مصر سنة أربع وعشرين وثلاثمائة من الهجرة — كان عالماً فقيهاً حتى قال عنه ابن زولاق : كان فقيهاً متعبداً يحسن علومه كثيرة منها علم القرآن وعلم الحديث والأسماء والسكنى والرواة والنحو واللغة واختلاف العلماء وسير الجاهلية وأيام الناس والأنساب ويحفظ شعراً كثيراً . غير مطعون عليه فى قول ولا فعل بمجموعاً على صيانة وطهارة وكان من محاسن مصر حاذقاً بعلم القضاء حسن التوقيعات . . .^(٢) بالرغم من ذلك كله فلم يتركه خصومه من الهجاء فقد رميت فى ولايته رقعة فى الجامع فيها أبيات شعر منها :

قولوا لحدادنا الفقيه	العالم الماهر الوجيه
وليت حكماً بغير عهد	وغير عقد نظرت فيه
ثم أبجت الفروج لما	وقعت فيها على البديه
هذى فعال حملت فيها	وزرك مع وزر من يليه
وهل ترى ذاولست فيه	بجائز من مخالفيه
أنكرت حالاً من ابن عمرو	ما أنت فيه ومرتضيه
والمكر فى الناس داء سوء	والعجب لمن يرتديه ^(٣)

(١) . الكندى ص ٥٤٦ (٢) شرحه ص ٥٥١ .

(٣) شرحه ص ٥٥٦ .

ولما بلغت هذه الآيات محمد بن موسى المعروف بسبيويه
المصرى مدح ابن الحداد بقصيدة جاء فيها :
ما يضر البحر أمسى زاخرا إن رمى فيه صبي بحجر
والقاضي محمد بن بدر الذي ولي قضاء مصر ثلاث مرات
آخرها سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ، هجأ زميله القاضي ابن
الوليد — الذي عزل عن القضاء سنة ستة وثلاثين وثلاثمائة —
بقصيدة طويلة منها :

لو كنت تخشى قضيات المعاد لما
ألقيت في كل أمر فاضح علما
أعنى عن الرشد في كل الأمور فقد
أصبحت في الدين بين الناس متهما
يا ابن الوليد تدبر ما أتيت به
ولا تكن للهوى مستكملا عما
لو كنت تعلم قول الحق معتقدا
أو كنت تخشى عذاب الله معتصما
لما استعنت بجهاد اللعين وما
رأيت أنت له في صالح قدما
جعلته كاتباً يَمْضِي الأمور ولم
يمس في العلم قرطاساً ولا قلباً^(١)

فهذا الطهجا يكاد يكون صدوره لطهجا العلماء الذى رأيناه فى العصر السابق للعصر الطولونى .

من هذا كله نستطيع أن ندرك تطور الحياة العامة فى مصر ، وتطور الحياة العقلية والأدبية فيها ، وأن نقول إن مصر كانت عظمة الحظ من العلوم الإسلامية والأدبية العربية ، وساهمت فى هذه الألوان المختلفة من الثقافات ، فظهر الأدب المصرى مضطجاً بالعصبية المصرية الخالصة فاختلف الأدب المصرى عن الأدب فى الأقطار الإسلامية الأخرى .

الشعراء الوافدون :

وكانت الحياة فى مصر أيام الطولونيين والاختشيديين تجذب إليها شعراء وعلماء الأقطار الأخرى ، وتجذب إليهم المقام فى مصر أو الرحلة إليها ، وسأحاول أن ألم ببعض هؤلاء الشعراء الذين وفدوا على مصر فى ذلك العصر .

المتنبى فى مصر :

إذا تحدثت عن المتنبى فى مصر فلن أتحدث عن وفوده على كافور الاختشىدى ومدحه لهذا الأمير ثم هجائه له ، هذا كله معروف متداول ، حدث عنه كثير من الأدباء والمؤرخين ، وألوا بجميع نواحيه ، ولكننى سأحاول الحديث عما تركه الأدباء والمؤرخون ولم يتحدثوا عنه وهو أثر مصر فى المتنبى وأثر المتنبى فى مصر ، فلا أشك أن المتنبى كانت له صلة ببعض المصريين وأنه أنشد شعراً فى بعض الشخصيات المصرية غير كافور الاختشىدى وفاتك ، كما تحدثنا بعض الروايات أن من شعراء مصر من نقد المتنبى

وعاب شعره . وإذن فحياة المتنبي في مصر تكاد تكون حلقة من سلسلة حياته في حلب ، وأن العلماء والشعراء الذين كانوا في خدمة سيف الدولة الذين هاجموا واضطروه إلى الرحيل عنهم ، وجد أمثالهم في خدمة أمير مصر فهاجموه واضطروه إلى الرحيل أيضا . وجد المتنبي في مصر خصما قويا في شخص الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن خزابة ، الذي وزر لآنوجور بن الأخشيدي ثم لأخيه أبي الحسن علي ثم لكافور إلى أن انقضت دولة الأخشيديين ، وكان عالما محدثا كما كان مكرما لأهل العلم والحديث وقد رحل إليه أبو الحسن الدارقطني وصنف له مسنداً ، وكتب الدارقطني عنه مجالسه^(١) ، كان يطمع ابن خزابة في أن يمدحه المتنبي كغيره من الشعراء ، وروى ابن خلكان أن المتنبي نظم قصيدته التي أولها :

ناد هواك صبرت أم لم تصبرا
وبكائك إن لم يجر دمعك أو جرى

في مدح الوزير ابن خزابة ، فلما لم يرضه صرفها عنه ولم ينشده إياها فلما توجه إلى عضد الدولة حول القصيدة إلى مدح ابن العميد^(٢) ، فعنى هذا أن الوزير كان حاقداً على المتنبي لأن الشاعر لم يمدحه ، وكان الشاعر حاقداً على الوزير لأن الوزير لم يرضه . فكانت نتيجة ذلك أن أخذ الوزير يغري

(١) راجع ترجمته في ياقوت ج ٧ ص ١٦٣ (طبعة فريد رفاعي بك) وابن خلكان ج ٢ ص ١١٠ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١١١ .

الشعراء والعلماء بمعارضة المتنبي ، وكانت فرصة للشعراء المصريين الذين كانوا يحقدون على المتنبي ما بلغه من قوة الشعر وذبوع الصيت فكثرت حساد المتنبي في مصر ، منهم أبو القاسم ابن أبي العفيرة الأنصاري الشاعر ، الذي قيل إنه كان في حضرة كافور الأخشيدى والوزير ابن حنظلة وأبي بكر بن صالح وكان المتنبي حاضراً ذلك المجلس ، فعارض المتنبي قول الأنصاري :

« نظر المحب إلى الحبيب غرام ،

فقال المتنبي : إن العرب لا تقول إليه غرام ، وإنما تقول له .
فقال الأنصاري : تقول إليه ولديه وله وحروف الخفض ينوب بعضها عن بعض ^(١) ويخيل إلى أن أبا بكر بن صالح وابن حنظلة اتصرا للشاعر المصري لأنه مدحهما وعرض بالمتنبي قوله :

أما الثناء فصادر بك وارد

باد بما تسدى إلى وعائد
لك يا أبا بكر إلى صنائع

أيقظن أحوالى وجدى راقد
أوليتى نعماً متى أنكرتمـا

شهدت على مواهب وفوائد
وقصائد لى فيك لولا أنها

كلم شهدت بأنهن مشاهد
ولهن فى عين الولى شواهد

تترى وفى عين العدو جلامد

لما تعرض لي بمقت حاسد
أبدى الملام وكيف يرضى الحاسد
ما زال ينشد قائماً حتى إذا
أنشدت عارضني لأنى قاعد
في مجلس أما الوزير فنكب
فيه يؤيده وأنت الساعد
ولى ولا أنا شاكر لسؤاله
فيه ولا هو للإجابة حامد^(١)

وورد في كتاب الصبح المنبى وكتاب أخبار سيبويه المصرى لابن
زولاق أن محمد بن موسى الملقب بسيبويه كان يقول : مدح الناس
المتنبى على قوله :

ومن نسكد الدنيا على الحر أن يرى

عدواً له ما من صداقه بد

ولو قال : ما من مداراته أو مداجاته بد لكان أحسن وأجود
واجتاز المتنبى به ، فوقف عليه وقال : أيها الشيخ أحب أن أراك .
فقال له : رعاك الله وحياك . فقال له : بلغنى أنك أنكرت
على قولى :

عدوا له ما من صداقه بد ، فما كان الصواب عندك ؟ فقال
له : الصداقة مشتقة من الصدق فى المودة ، ولا يسمى الصديق
صديقاً وهو كاذب فى مودته ، فالصداقة إذن ضد العداوة ، ولا

موقع لها في هذا الموضع ، ولو قلت ما من مدارته أو مداجاته
لأصبت ، هذا رجل منا (يريد نفسه) قال :

أتأتى في قيص اللاز يسعى

عدو لى يلقب بالحبيب

فقال المتنبي : أمع هذا غيره ؟ قال : نعم

وقد عبث الشراب بوجنتيه فصير خذه كسنا اللبيب
فقلت له متى استعملت هذا لقد أقبلت في زى عجيب
فقال الشمس أهدت لى قيصاً مليح اللون من نسج المغيب
فتوبى والمدام ولون خدى قريب من قريب من قريب (١)

فتبسم المتنبي وانصرف ، وسيبويه يصيح عليه : أبكم الرجل
وجلائل الله . (٢) وهذا الشاعر الذى عارض المتنبي هو أبو بكر
محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى ولد بمصر سنة أربع وثلاثين
وماتين وتوفى فى صفر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . كان عالماً
بعلوم القرآن والحديث أخذ عن النسائي وإسحق بن إبراهيم المنجنيق
والطحاوى وغيرهم وكان يعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه
بسيبويه ، وتفقّه على مذهب الشافعى وتلذذ لأبى بكر بن الحداد ،

(١) يفهم من كتاب الصبح المنى أن هذه الأبيات لسيبويه المصرى ، ولكن
هذه الأبيات وردت فى بقيمة المخرج ١ ص ٢٣٨ منسوبة إلى محمد بن عباس
البصرى .

(٢) الصبح المنى ص ٦٣ وأخبار سيبويه المصرى لابن زولاق نسخة خطية
بدار الكتب المصرية رقم ١٢٠ ع تاريخ .

وأخذ علم الاعتزال عن الواسطي وجه المتكلمين بمصر إذ ذاك ، وكان يظهر الكلام في الاعتزال في الطرق والأسواق فيحتمل لما هو عليه ، وكان شاعرا من فحول الشعراء جالس أنوجور بن الأخشيد أمير مصر ، والحسين بن محمد المادرائي وزير مصر ، ونادماه ، كما كان محبوباً عند جميع المصريين ^(١) .

وبجانب هؤلاء الشعراء الذين عارضوا المتنبي ، وجد آخرون صحبوا المتنبي وأخذوا عنه وحدثنا الثعالبي عن كثير منهم أمثال عبد الله بن محمد بن أبي الجوع ^(٢) وصالح بن رشدين الكاتب وكان أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب صحب المتنبي وروى شعره ^(٣) .

إذن انقسم الشعراء في مصر بين حاسد للمتنبي وبين ضديق له يروى عنه ، كما انقسم أمراء مصر في أمره ، فكان ابن خزابة الوزير ساخطا عليه لأن الشاعر لم يمدحه ، ولذلك هجاه المتنبي مع هجائه لكافور فقد قيل إن المتنبي قصد الوزير بقوله :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطى من أهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا ^(٤)
أراد بالنبطي الوزير ابن خزابة ، بينما مدح المتنبي رجلا من

(١) راجع أخبار سيديويه المصري في معجم الأدباء . وقيمة الدهر وكتاب أخبار سيديويه المصري .

(٢) قيمة الدهر ج ١ ص ٣١٤ (٣) شرحه ص ٣١٧ .

(٤) مسالك الأبصار للمري نسخة خطية بدار الكتب المصرية - وابن خلكان ج ١ ص ١١٢ .

فيس هو عبد العزيز الخزاعي زعيم أهل الخوف ، وهو الذى هيا
للمتنبي وسائل الهروب من مصر ، ولذلك قال فيه المتنبي :

لئن مر بالفسطاط عيشى فقد حلا
بعبد العزيز الماجد الطرفين
تناول ودى من بعيد فـالـه
جرى سابقاً فى المجد ليس برين

إذن اتصل المتنبي بالمصريين ، كما ألقى عليهم بعض العلوم فى
مصر ويحدثنا الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام أن المتنبي قرأ
كتاب « المقصور والممدود » لابن ولاد وأنه أخذ على مؤلفه غلطات
وأن المتنبي أملا على المصريين ما أخذه على ابن ولاد من أخطاء .
فإن صح هذا الخبر فإنه يدل على أن المتنبي لم ينقطع عن المصريين كما
زعم القدماء بل كان يشارك فى الحياة العلمية والأدبية فى مصر (١) .
وتحدث الأستاذ الدكتور طه حسين بك طويلاً عن أثر مصر فى شعره
المتنبي (٢) فذهب إلى أن مصر اضطرت المتنبي إلى أن يعرف شيئاً من
الهدوء وإلى أن يكثر التفكير وإمعان النظر فى الحياة وإلى أن يحاول أن
يستقصى أسرار الحياة ، فظهر فى شعره فى مصر رقة حزن وشكوى الدهر
ثم ينتهى به الأمر إلى لون من السخرية بالدهر وحوادثه وإلى الاستهزاء
بكل ما يمر به فى الحياة ، وأن يهزأ بالناس وبالمجتمع وبأمير مصر

(١) راجع ذكرى أبى الطيب للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٣٠٧
وما بعدها .

(٢) مع المتنبي للأستاذ الدكتور طه حسين بك من ص ٥١١ إلى ٦٤٦ .

الذى كان رفعه في شعره وقد أسهب أستاذنا الجليل الدكتور طه بك في ذلك كله فليرجع إلى كتابه الممتع ففيه كل غناء

الناشئان الأكبر والأصغر

أما الناشئ الأكبر ، فهو أبو العباس عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير أو الناشئ الأكبر ولد بالأنبار ، وأقام زمناً طويلاً ببغداد ، وبها أنشد جل شعره ، وتلقى علومه التي عرف بها ، وتكسب بهذه العلوم ، فداع فضله ، وانقاد له الشعر وفنونه ، حتى استطاع أن يعارض أشعار القدماء ، وباتساع عليه في الكلام استطاع أن ينقض على النحاة ، فرماه أعداؤه بالسوسة ، ووشوا به ، تخاف قوة أعدائه ، فخرج إلى مصر يتجر بعلومه ^(١) . لم نعلم أن الناشئ الأكبر اتصل بأبى من أمراء مصر ، إذ أخذ من علمه وقوة فطنته مكتسباً يغنيه عن سؤال الأمراء ، فكث في مصر يعلم ما حذقه حتى سنة ثلاث وتسعين ومائتين .

كان هذا الشاعر قليل الحظ بعد مماته كما كان بائساً في حياته ، فلم يعن بشعره أحد حتى ضاع ديوانه ، ولم يصلنا من شعره إلا النزر اليسير ، مع أن الرواة أجمعوا على أن الناشئ الأكبر يعد في طبقة ابن الرومي والبحتري وأنظارهما ^(٢) ثم هو يمتاز عن غيره من الشعراء بسعة اطلاعه في العلوم ، وكان أستاذ أبى الحسن الأشعري المعتزلي صاحب المذهب المعروف ، وقد وصلنا شيء من نظمته في الكلام يدلنا على مقدرته واطلاعه ، فن ذلك قوله :

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٦٢ (٢) شرحه .

ونحن أناس يعرف الناس فضلنا
بألسنتنا زينت صدور المحافل
تتير وجوه الحق عند جوابنا
إذا أطلبت يوماً وجوه المسائل
صمتنا فلم نترك مجالاً لصامت
وقلنا فلم نترك مقالاً لسائل (١)

ويروي البغدادي في تاريخه أن للناسي قصيدة واحدة في فنون
من العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروي ابن كثير
في « البداية والنهاية » قصيدة للناسي في نسب الرسول صلى الله عليه
وسلم وهي طويلة تبلغ نحو ألف بيت ، ووصفها ابن كثير بقوله
« وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته ، وعلمه
وفهمه ، وحفظه وحسن لفظه ، وإطلاعه واضطلاعه ، واقتناده على
نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره ، وغوصه على هذه المعاني
التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره » (٢) ، وأورد الحصري في
كتابه « زهر الآداب » مقالاً من كتاب للناسي في الشعر ، أوضح
فيه معنى الشعر وأغراضه (٣) .

ولست أدري أي شعر الناسي قيل في مصر ، وأي كتبه التي
ذكرها المؤرخون ألفت بها ولا شك أن الحياة العقلية والحياة الأدبية
في مصر كان لها أثر كبير في هذا الشاعر ، وربما أنشد الناسي بمصر

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ٣ .

(٢) البداية والنهاية نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية .

(٣) زهر الآداب ج ٣ ص ٤٩ .

بعض أشعاره في الصيد . فقد رأينا شعراء مصر في هذا العصر كانوا يذهبون إلى الصحراء وتلال المقطم للمطاردة والصيد ، وقالوا أشعاراً في ذلك ، فربما قلدهم الناشئ . وتحدث في جوارح الصيد وآلاته ، وما يتعلق به ، وربما أخذ كشاجم شيئاً من أشعار الناشئ . مستشهداً بها عندما وضع كتابه في المصايد والمطارد .

أما الناشئ الأصغر فهو علي بن عبدالله بن وصيف وكان متكلماً بارعاً كسميه ^(١) أخذ علم الكلام عن أبي سهل بن نوبخت المتكلم ، كما كان من كبار الشيعة ، وفد على الكوفة سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وأمل شعره بجامعها ، وكان المتنبي وهو صبي يحضر مجلسه ^(٢) ، وفد على سيف الدولة بجليب ومدحه ، ويحدثنا ياقوت أن الناشئ الأصغر قصد كافورا بمصر وامتدحه ، وامتدح ابن خزيمة وكان ينادمه ^(٣) ولكن لم يصلنا شيء من شعره في مصر ، وتوفي سنة ست وستين وثلاثمائة ببغداد .

كشاجم

وفد على مصر في ذلك العصر الشاعر الأديب أبو الفتح محمود ابن الحسين المعروف بكشاجم . وهو من أهل إقليم الرملة الذي كان تابعاً لمصر في ذلك العصر ، ونفهم من ديوانه أنه جاء مصر عدة مرات . وكان كلما بعد عنها حن إليها . وإلى ما بها من رياض وحوائط ، وإلى حياة اللهو والمجون بما تصبو إليه نفس كشاجم الماجة :

(١) ابن خلسكان ج ١ ص ٣٥٤ .

(٢) شرحه .

(٣) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٣٥ (ملبة مرجوليت) .

قد كان شوقى إلى مصر يؤرقى
 فاليوم عدت وعادت مصر لى دارا
 أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحبا
 طورا وطورا أرجى السير أطوارا
 بينا أسامى رئيسا فى رياسته
 إذ رحت أحسب فى الحانات خمارا
 أما الشباب فقد صاحبت شرم
 وقد قضيت لباتات وأوطارا
 من شادن من بنى الأقباط يعقد ما

بين السكيب وبين الخصر زنارا (١)
 أخذ كشاجم بحظ وافر من حياة اللهو التى كانت بمصر، وذهب
 كما ذهب شعراء مصر إلى الأديرة، ففى دير القصير كان كشاجم
 يتصيد الأطباء لطعامه، أو ليتخذ من لحمها ما يأكله مع شرابه، بين
 عزف الفيان وغنائهن.

سلام على دير القصير وسجنه
 فجئات حلوان إلى النخلات
 منازل كانت لى بهن مآرب
 وكانت مواخيرى ومنزهاتى
 هنالك تصفو لى مشارب لذى
 وتصحب أيام السرور حياتى (٢)

(١) ديوان كشاجم طبع بيروت سنة ١٣١٣ هـ.

(٢) ديوان كشاجم

فهذا يدلنا على أن الشاعر اختلط بالمصريين ، ولها كما هو ،
والتمس من مجونهم ما يتحدث به في هذا الشعر ، وتأثر بالبيئة المصرية
الخالصة فوصفها في شعره .

تدلنا حياة كشاجم على أن الشاعر كان متكسباً بشعره ، ولا
ندري بمن اتصل من المصريين ، وإن كنت أرجح أنه مدح كافوراً
ثم عاد فجهاه ، وعرض به في أشعاره ، فقد قيل إن الشاعر كان له
غلام اسمه كافور فكان يهجو غلامه ويعرض بالأمير :

حكيت سميك في برده وأخطأك اللون والرائحة

كذلك هجا القاضي عبد الله بن محمد بن الحبيب المتوفى سنة
سبع وأربعين وثلاثمائة ، وكان القاضي قد اشترى داراً كبيرة ،
وعمرها ، وأقام فيها دعوة عظيمة فقال كشاجم :

اشترى الدار الكبيرة ودعا فيها الوكيره

صغر الباب وفي تصغيره أشأم طيره

قبره لا شك فيها بعد أيام يسيره^(١)

وقال فيه أيضاً :

قبح الله الخصيى فما أقبح أمره

اشترى الدار التي كانت قديماً لابن شعره

وهي الدار التي يبيت فيها الله عمره

لا يتم الحول حتى يجعل المجلس قبره^(٢)

ومهما يكن من شيء فإن كشاجماً كان فقيراً ، متكسباً بشعره ،
ولكنه لم يستطع أن يفوز بالمال الذي كان يريده ، ولعل غروره

(١) الكندي ص ٥٧٨

(٢) شرحه *

واعتقاده بأنه نابغة عبقرى ، وأنه أشعر خلق الله وأكثرهم تأدبا .
لعل هذا كله كان سبباً في شقائه ، فقد زعم أنه نبى الشعر :

على أنى نبى الشعر قد جئت على قتره

ويخيل إلى أن كشاجما اتخذ مصر مقراً له ، فقد ترك بها أولاده
وأسرته ، فقد روى الثعالبي أن الشاعر المصرى الهجاء صالح بن
مونس هجا ابني كشاجم أبا النصر وأبا الفرج بقوله :

يا ابني كشاجم أتما مستعملان مجربان
مات المشوم أبوكم خلفتاه على المكان
وقرفنا في عصرنا ففعلتما فعل القرآن
لغلاء أسعار الطعنا موميته الملك الهيجان^(١)

ووفد على مصر في ذلك العصر أبو الفيض سوار بن شراعة الشاعر
الذى اتصل ببعض أدباء مصر وشعرائها ، وقد ذكرنا أنه كان صديقاً
وفياً لابن الداية ، وكان سبب انتشار شعر ابن الداية في العراق .

كما وفد على مصر عدد كبير غير الذين تحدثنا عنهم ، وقد
يطول بنا الأمر لو تحدثنا عنهم جميعاً . كما رحل عدد كبير من شعراء
المصريين إلى الأقطار الأخرى ، فالشاعر المغنم المصرى أبو الحسن
محمد بن سلمى الشيباني كان من شعراء سيف الدولة^(٢) ، ورحل كثير
من العلماء في طلب العلم كغيرهم من علماء وشعراء الأقطار الأخرى ،
فكانت الرحلة في طلب العلم من أكبر المؤثرات التى ساعدت
على انتشار الثقافات المختلفة ، وألوان المذاهب الأدبية والعلمية .

(١) يقيمة الدرر ج ١ ص ٢١٢

(٢) الفهرست ص ٢٤٠

لمحة عن أشهر شعراء ذلك العصر

ابن جدار :

هو أبو القاسم جعفر بن محمد بن أحمد بن جدار ، ذكره الصولي في كتاب « أخبار شعراء مصر » ، وقال : لم يكن بمصر مثله ، كثير الشعر حسن البلاغة ، عالم له ديوان شعر ، ومكاثبات كثيرة حسنة . (١) ، كان كاتباً من كتاب الطولونيين ، وشاعراً من شعرائهم ، واختص بالعباس بن أحمد بن طولون ، فكان ينهى إليه كل ما كان يسمعه من الأخبار ، وينقل إليه ما يدور بقصر ابن طولون ، ويروى الحصرى : أن أبا حفص عمر بن أيوب كاتب أحمد بن طولون قال لابن جدار : يا أبا جعفر ، إنما مجلس المدام مجلس حرمة ، وداعية أنس ، ومسرح لبانة ، ونداء هم ، ومرتع لحو ومعهد سرور ، وإنما توسطته عند من لا يتهم غيبه . ولا يخشى عتبه وقد اتصل بي ما تنهيه إلى أميرنا أبي الفضل ، أعز الله أمره ، من أخبار مجالستي ، فلا تفعل . . . فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل ، وقام من مجلسه (٢) .

وكان لشعر ابن جدار أثر كبير في عصيان العباس بن أحمد بن طولون ، فقد قيل إن العباس لما هم بالانحلاع عن طاعة أبيه ، كان مرتبك الرأي ، ولكن ابن جدار أنشده قصيدة يحرضه فيها على العصيان وجاء في هذه القصيدة .

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٤١٥

(٢) زهرة الآداب ج ٢ ص ١٤٢

إذا هممت فلا ترجع وقم وثب
فأنت أرفع من يسمو إلى الرتب^(١)

ولما استبد العباس بالسلطان استوزر ابن جدار ، وخرج معه
إلى برقة ، ولكن ظفر به أحمد بن طولون حين سيق له ولده الثائر
وأصحابه الذين أبدوه في حركته ، بل الذين دفعوه إليها ، فبنيت
دكة عظيمة رفيعة السمك ، وأحضر ابن جدار من خاصة العباس ،
فضرب ثلثمائة سوط ، وقطعت يده ورجلاه ، وألقي من الدكة سنة
ثمان وستين ومائتين^(٢) .

كان ابن جدار صاحب لهو ، يميل إلى المجون ، مع أن غزله
الذي وصلنا يدلنا على أنه عفيف ، مع رقة وعاطفة ، من ذلك قوله
في قينة أعجب بها وقتن بجمالها ، وطرب لصوتها

جاءت بوجه كأنه قمر
على قوام كأنه غصن
ترنو بعينين من ليلانهما

من وسن في جفونها وسن
غننت فلم يبق في جارحة

إلا تمت لو أنها أذن^(٣)

ومع ميله إلى اللهو نراه قد أظهر شدة تدينه في بعض أشعاره ،

(١) المترب ص ٨٦ .

(٢) المقرئ ج ٢ ص ١١٥ والكندى ص ٢٢٤ .

(٣) معجم الأدباء ج ٥ ص ٤١٥ .

فكان يطلب العفو ، ويستغفر ربه ، حتى نكاد نشك أن هذه الأشعار
في الزهد هي من قول ابن جدار

يارب لي ألف ألف ذنب إن تعف يارب فاعف جراً
فأبرد بعفو غليل قلب كأن فيه رسيس حتى^(١)
ويمتاز شعر ابن جدار بكثرة تلاعبه بالألفاظ وتشبيهاته ، ولكن
لم يصلنا من ديوانه الذي حدثنا عنه ياقوت عن الصولي إلا عدة
أبيات قليلة مبثورة في الكتب ، ومن شعره الذي أظهر فيه صنعته
البيان ، وتكلفه في قول الشعر حتى أن ابن عبد ربه قال عند ما روى
هذا الشعر : وقد يأتي من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعر منفرد
في غرائبه وبديع صنعته ، ولطيف تشبيهه كقول جعفر بن جدار
كاتب ابن طولون^(٢) .

وطفلة رخصة المرائي	ليست تجلي ولا تسمى
ألا وسلك من الآلي	تعجز من يخرج المعنى
من طفلة بضعة لعوب	تلقاك بالحسن مستما
منهن ريا وكيف ريا	ريا إذا لاقت المشمي
تسحب ذيلين من خلوق	قد أنفيا زعفران قبا
كأنما أحنيا عليها	من طيب ما بشرا وشما
فألنيا زعفران قم	فانغمسا فيه واستحما
فهل تظن اسمها المريا	يفوخ لا مرطها المذما
هيئات يا أخت أهل يما	غلطت في الاسم والمسمى

(١) المقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٨ .

(٢) المقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٦ .

لو كان هذا وقيل سم مات إذا من يقول سما
قد قلت إذ أقبلت نهدي كطلعة البدر أو أما
لو كنت بمن لكنت بما لكنني قد كبرت بما
عائتي الدهر في عذاري بأحرف فارعويت لما
قوس ما كان مستقيا وايض ما كان مدحا
وكيف تصبو الديو إلى من كان أبا ثم صار عما
لى عنك يا أخت أهل يم شغل بما قد دنا وحما
فلست من وجهك المقدي ولست من قدك المحمي
أذهلني عنك خوف يوم يحيا له كل ما أرما
ما كسبته يدي رهينا خيرا وشرأ أصبت ثما
تخسر فيه الجنان زفا وتحشر النار فيه زما
تقول هذي لطالبيها هيت ، وهذي لهم هلم
نفسى أولى بأن أذما من أمرها كل ما استذما^(١)

ففي هذه القصيدة ظهر تلاعب ابن جدار باللفظ عما أضعف
المعنى وشووه ، كما تظهر لنا وحدة القصيدة في الشعر المصري ،
وعدم استقلال المعنى في كل بيت كما ظن القدماء في الشعر العربي .

منصور الفقيه

هو منصور بن اسماعيل بن عمر أبو الحسن التيمي المصري
الضرير ، كان إماما في الفقه ، وفقه الشافعي على الأخص^(٢) ، ووضع

(١) هذه القصيدة بأكلها في المقدم الفريد ج ٣ من ٤٢٦ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ من ٣١٧ .

مؤلفات في المذهب الشافعي منها : الواجب والمستعمل ، والمسافر والهداية وغير ذلك^(١) . اتفق ابن خلكان وياقوت^(٢) على أن الشاعر ولد في رأس العين بالجزيرة وأنه قدم مصر صغيراً ، وأخذ فيها جميع علومه كما أنه أنشد بها جل أشعاره ، وصار له منزلة رفيعة عند القاضي أبي عبيد ، بل صار من خواصه الذين كان يخلو بهم للذاكرة والمحادثة ، ولكن حل البغض على هذا الود ، وانقطع الإخاء بسبب المناقشات الفقهية ، فقد قيل إن أبا عبيد كان له كل عشية مجلس يذكر فيه رجلاً من أهل العلم ، وفي عشية منصور حدث بينهما مجادلات ، انتهت بخصام العالمين ، فتعصب الأمير ذكاً ، وجماعة من الجند لمنصور ، وتعصب جماعة من العلماء على رأسهم ابن الربيع الجيزي للقاضي ، ثم حدث أن شهد ابن الربيع الجيزي على منصور بكلام زعم أنه سمعه منه ، فقال القاضي إن شهد عليه آخر بمثل ما شهد به ابن الربيع ضربت عنقه ، تخاف منصور خوفاً شديداً حتى اعتل ومات سنة ست وثلاثمائة^(٣) وقيل إنه كان حول نعشه آلاف من الجند ، أظهروا سب القاضي ، وقذفوه ، وندم القاضي نفسه على ما كان منه وتأسف على ما فاتته من منصور .

رحل منصور إلى العراق حيث اتصل بالخليفة المعتز العباسي ومدحه بقوله :

ما واحد من واحد أولى بمجد أمروء
من أبوه وجده بين الخلافة والنبوة^(٤)

(١) ابن خلكان ج ٧ ص ١٢٥ (٢) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٥

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٦ (٤) المغرب ص ٩٤

وكل الرواة يجمعون على جزالة شعره وجودته ، وأنه لم ينشد قصائد مطولة ، بل كل شعره مقطعات ، روى الحصري عن شعره « وهو عالى المقطعات ، لا تزال تندر له الأبيات مما يستظرف معناه ويستحلى مغزاه ، ويبقى سناه »^(١) . وأورد له الثعالبي كثيراً من الأبيات التى جرت مجرى الأمثال لدقة معانيها كقوله :

شاهد ما فى مضمرى من صدق ودى مضمرى
فأأريد وصفه قلبك عني يخبرك^(٢)
وكقوله :

من قال لا فى حاجة مطلوبة فما ظلم
وإنما الظالم من يقول لا بعدنم^(٣)

وعاب عليه بعض المصريين التفقه فأجابهم :

عاب التفقه قوم لا عقول لهم
وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة

أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر^(٤)

ويخيل إلى أن الشاعر كان يكذب التتجيم الذى كان منتشرًا بين طبقات الناس وظهر ذلك فى شعره .

من كان يخشى زحلا أو كان يرجو المشتري

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٣٢١ .

(٢) لطائف المعارف نسخة خطية بمكتب الأزهر رقم ٥٦٢ .

(٣) شرحه (٤) طبقات النافذة ج ٢ ص ٣١٧ .

فإني منه وإن كان أبي منه برى^(١)
وكقوله :

إذا كنت تزعم أن النجوم تضر وتنفع من تحتها
فلا تنكرن على من يقول بأنك بالله أشركتها^(٢)

من ذلك يظهر شدة حرصه على دينه ، وعلومه الإسلامية الخالصة
التي تنكر مثل هذه الأقوال التي انتشرت بين الناس ، ولا شك أن
مثل هذا الرجل كان بعيدا كل البعد عن حياة اللهو التي جرفت
أكثر شعراء مصر ، فكان هذا الشاعر يمثل طبقة الشعراء العلماء
الذين لم يأخذوا بنصيب من تطور الحياة في عصره .

ابن طباطبا :

كان بمصر بعض سلالة علي بن أبي طالب . وأقاموا بها مكرمين
معززين ، وكانوا على اتصال حسن بالولاة والأمراء ، لا يعينهم من
أمر البلد السياسي شيء ، فركنوا إلى الآداب والعلوم ، وأخذوا من
هذه وتلك ، وأنشدوا الشعر ورووه ، فمن أعظمهم شأنا في ذلك
أبو القاسم أحمد بن محمد بن اسماعيل بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل
ابن ابراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب^(٣) كان عالما
فاضلا ، وإليه كانت نقابة الطالبيين بمصر^(٤) ، كما كان شاعرا ، وكان
ابناه أبو محمد القاسم بن أحمد وأبو اسماعيل ابراهيم بن أحمد

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٥ (٢) شرحه .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٩ (٤) المغرب ص ٤٩ .

شاعرين^(١) وكان ابن ابنه الحسين بن ابراهيم شاعراً ، وقد روى لهم صاحب يتيمة الدهر بعض أشعارهم ، وإذن نستطيع أن نعد أسرة بني طباطبا في مصر من أسرات الشعر ، ولكن أكثر شعراء هذه الأسرة لم يكونوا في عصرنا هذا الذي تؤرخه ، — وسنعرض للحديث عنهم في بحثنا عن الأدب المصري في عهد الفاطميين — ويكفي أن نتحدث عن أبي القاسم أحمد بن محمد . درس هذا الشاعر الآداب وأكثر من إنشاد الشعر ، وظهر أثر دراساته في شعره ، فكان يميل إلى الأخذ بمذهب مسلم وأبي تمام في الإكثار من الزينة البديعة ، والتشبيهات وما إلى ذلك من ألوان الصنعة البيانية ، وأكثر شعره الذي وصلنا في الغزل ، والغزل المبني على القصص حتى يخيل إلينا أن الشاعر كان متأثراً بمذهب عمر بن أبي ربيعة ، ولكنه يختلف عن عمر ، فقد كان غفيفاً في شعره ، وهذا أمر طبيعي لمن كان في مثل مكاتته الأدبية والدينية ، فغزله يقوم على الوصف والحوار دائماً كقوله :

عيرتني بالنوم جوراً وظلماً قلت : زدت الفؤاد هما وغماً
لم أنم لذة ، ولا نمت إلا طمعاً في خيالكم أن يلها^(٢)
وكقوله أيضاً :

قالت : أراك خضبت الشيب . قلت لها :

سترته عنك يا سمعي ويا بصري

فاستضحكت ثم قالت من تعجبها

تكاثر الغش حتى صار في الشعر^(٣)

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٣٠ (٢) شرحه ج ١ ص ٣٣٩ .

(٣) شرحه

ويخيل إلى أن ابن طباطبا أصيب بفقد حبيب عزيز لديه ، إذ ظل يذكره حيناً بعد حين ، ويكثر من الحديث عنه في شعره ، فقال مرة :

خليلي إني للثريا لحاسد وإني على صرف الزمان لواجد
أبقي جميعاً شملها وهي سبعة وأفقد من أحبيته وهو واحد
كذلك من لم تحترمه منية يرى عجا فيما يرى ويشاهد (١)
وقال مرة أخرى :

لا والتي تركتني يوم فرقها كأنما الرمل في عيني مشور (٢)
وقال مرة ثالثة :

ما اخترت تبديل المودة ساعة بعد الذي هجر الحى وجفانى (٣)
ومن يدري لعل هذه الأشعار قيلت في زوجه التي تكون قد توفيت وتركته ينشد مثل هذه الأشعار فيها .

ولابن طباطبا بعض المقطعات في الخمر كقوله فيها :

يا بدر بادر إلى بالكأس فرب خير أتى على يأس
ولا تقبل يدى فإن فى أولى بها من يدى ومن رأيت
لأعاش فى الناس من يلوم على حبي وعشقي لأحسن الناس (٤)
وكقوله :

قل للذى حسنت منه خلأقه باكر صبوحك واسبق من تسابقه
أما ترى الغيم بمجموعاً ومفتقراً يسير هذا إلى هذا يعانقه
كعاشق زار معشوقاً يودعه قبل الفراق فألى لا يفارقه (٥)

(١) المغرب ص ٤٩ (٢) المغرب ص ٤٩ .

(٣) شرحه ص ٥١ (٤) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٢٩ (٥) شرحه

وقد ذكرنا أن ابن طباطبا يعد من أقدس شعراء مصر في هذا العصر في وصف الطبيعة ومحاسنها ، ولعل ما قاساه من فراق من أحب جعله يهيم إلى أحضان الطبيعة يناجي من غاب عنه ، ليأخذ من الطبيعة سلوة ، أنظر إلى قوله :

رب ليل صحبته كاسف البال كئيداً حليف هم شئت
تحت سقف من الزمر د قد رصع بالدر والياقوت
اختلف المؤرخون في وفاة ابن طباطبا فذكر ابن سعيد عن القرطبي أنه توفي سنة اثنتين وخمسين ثلاثمائة^(١) ونقل ابن خلكان عن المسيحي أنه توفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة^(٢) وقال صاحب «مطالع البدور في منازل السرور» أنه توفي سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة^(٣).

خاتمة

لعلك أدركت الآن كيف تطورت مصر في هذا العصر منذ دخلها العرب فاتحين ، ثم استقروا بها ، حتى دخلها جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من الهجرة ، وانتزع مصر من الأخشيديين ، فقد كان أثر العرب في مصر كبيراً جداً ، تدرکه في تحول المصريين عن لغتهم اليونانية والقبطية واتخاذهم اللغة العربية لغة للتخاطب ولغة لأدبهم ، ثم تدرکه في هذه الدراسات الإسلامية والعربية وازدهار هذه الدراسات في مصر ، حتى صارت

(١) المغرب ص ٥١

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٠ (٣) ج ١ ص ٣٦

مركزاً من مراكز الحياة العقلية في الأقطار الإسلامية .
ومع ذلك كله فقد استطاعت مصر أن تحتفظ بشخصيتها ، فقد
اضطرت العرب إلى أن يندمجوا في المصريين ، وأن يكون الجميع
شعباً واحداً هو الشعب المصرى الإسلامى .
وقد تلقت مصر جل المدنات القديمة ، وأخذت منها بحفظ
تختلف قوة وضعفاً ، ولكن مصر استطاعت أن تمصر هذه المدنات
جميعاً ، فلما أن جاءها العرب والمسلمون يحملون الثقافة الإسلامية
العربية ، التقت هذه الثقافة بالثقافات التى كانت فى مصر قديماً ،
وامتزجت هذه الثقافات جميعاً ، فكان ثمرة هذا المزج هى الثقافة
المصرية الإسلامية التى ظهرت بعد ذلك العصر الذى أرخناه فى
هذا الكتاب .

ولعلك أدركت أيضاً أثر مصر فى الشعر الذى أوردنا لك صوراً
منه ، فإنك لم تر المعانى البدوية القديمة ، ولا تشييدات الجاهليين
أو شعراء الأمويين ، وظهر فى شعر المصريين الآراء المصرية
والحوادث المصرية ، التى لا تصدر إلا عن قوم عاشوا فى مصر .
وإذن فقد كان أثر مصر فى الشعر كبيراً كما كان أثرها فى العلم كبيراً .
(وبعد) فهذا البحث الذى تحدثت فيه عن مصر فى القرون
الثلاثة الأولى للهجرة ، ما هو إلا مقدمة لبحث آخر ، أرجو أن أقدمه
للطبع قريباً وهو بحث - الأدب فى مصر الفاطمية - وهو تاريخ
الأدب فى العصر الذى أصبحت فيه مصر زعيمة الأقطار الإسلامية
فى الآداب والعلوم .

ثبت بالمراجع والمصادر

- آثار البلاد للقزويني طبع جوتنجن ١٨٤٨ م
 اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الخلفاء للبقرى د ليبسك ١٩٠٩ م
 أحسن ما سمعت للثعالبي د مطبعة الجمهور بمصر ١٣٢٤ هـ
 أخبار سيويه المصرى لابن زولاق نسخة خطية بدار الكتب المصرية
 رقم ١٢٠ ع تاريخ طبع جوتنجن ١٨٤٥ م
 أخبار قبط مصر للبقرى د أكسفورد ١٨٠٠ م
 أخبار مصر لعبد اللطيف البغدادى د بولاق ١٢٩٨ هـ
 أدب النديم لكشاجم د مطبعة الجمهور ١٣٢٣ هـ
 الأغاني للأصفهاني أنباء الرواة على أنباء النحاة للقفطى
 نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٩ تاريخ
 الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ج ٤ و ٥ طبع بولاق ١٣٠٩ هـ
 الأنساب للسمعاني طبع ليدن ١٩١٢ م
 بدائع البداية لابن ظافر المصرى د بولاق ١٢٧٨ هـ
 بدائع الزهور لابن إياس د د ١٣١١ هـ
 بغية الوعاة للسيوطى مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٦ هـ
 البيان والاعراب عن نزل مصر من الأعراب مطبعة المعارف ١٣٣٤ هـ
 للبقرى
 تاريخ ابن الأثير طبع بولاق ١٢٩٠ هـ
 ابن خلدون د د ١٢٨٤ هـ
 ابن الراهب د بيروت ١٩٠٣ م
 أبى صالح الأرمنى د أكسفورد ١٨٩٤ م

- تاريخ الطبري
الاسلام للذهبي
طبع المطبعة الحسينية بمصر
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٤٢ تاريخ
طبع مطبعة التوفيق ١٩٢١ م
الامّة القبطية
التمدن الاسلامي
يحيى بن سعيد
اليقوي
ووصف الجامع الطولوني للاستاذ
عكوش
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٣١٤ (حديث)
طبع دار السعادة ١٣٢٦ هـ
القاهرة ١٣٤٥ هـ
ثمّرات الأزرار لابن حجر
الجامع في الحديث لعبد الله بن وهب
فؤاد الأول
الجوهر النفيس في أشعار الامام ابن ادريس
حديث الاربعاء للأستاذ الدكتور طه
حسين بك
حسن الجع فيما قيل في قصر الشمع
حسن المحاضرة للسيوطي
حلبة الكيت للتواحي
الخريدة النفسية في تاريخ الكنيسة
در السجادة فيمن نزل مصر من الصحابة
السيوطي
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٣٩ م

- الدر المنظوم فيما ورد في مصر من
موجود ومعدوم للجوهري
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٨٦٣
دمية للقصر للباخرزي
الديارات للشباشقي
طبع حلب ١٩٣٠
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ١٧٥٦
ديوان أبي تمام
د ابن قيس الرقيات
طبعة عبي الدين الخياط
طبع فينا ١٩٠٢
د كشاجم
د المتنبي
د أبي نواس
د بيروت ١٣١٣ هـ
د مصطفى محمد
د مصر ١٢٧٧ هـ
ذكر دخول قبط مصر في دين النصرانية د ١٨٢٨ م
للقريزي
— ذكر ديار مصر
د جوتنجن ١٧٧٦ م
الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية لابن حجر د بولاق ١٣٠١ م
— رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ١٠٥
زهر الآداب للحصري
— سيرة الآباء البطارقة لابن المقفع
— سيرة ابن طولون لابن الداية
— صبح الأعشى للقايشندي
طبقات الشافعية الكبرى
الطبقات الكبرى لابن سعد
العقد الفريد لابن عبد ربه
العمدة لابن رشيقي
— فتوح مصر للواقدي
— فتوح مصر لابن اسحق الأموي
المطبعة الرحمانية ١٣٤٥ هـ
طبع بيروت ١٩٠٧
د برلين ١٨٩٤
د دار الكتب المصرية
المطبعة الحسينية ١٣٢٤ هـ
طبع لندن ١٣٢٢ هـ
د مصر ١٩٢٨
د د ١٩٢٥
لندن ١٨٢٥
مصر ١٢٧٥ هـ

- فتوح مصر لابن عبد الحكم
الفخرى لابن الطقطقي
الفرست لابن النديم
فضائل مصر للكندي
- طبع نيوهاغن ١٩٢١
مصر ١٣١٧ هـ
طبع مصطفى محمد
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٤٣٢
نسخة خطية بمكتبة الازهر رقم ٦٦٩
بولاقي ١٢٨٣
طبع ليبسك ١٩٢٥
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٧٧ ش
طبع مصر ١٢٨٧ هـ
اكسفورد ١٦٦٣
بولاقي ١٢٨٣
طبع دار الكتب ١٩٢٤ والباقي
نسخ خطية بدار الكتب
المصرية رقم ٢٣٦
- محاضرات الأدباء
مختصر تاريخ الدول لابن العبري
مروج الذهب للسعودي
مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري
- معجم الأدباء لياقوت
معجم البلدان
المغرب في حلي المغرب لابن سعيد
- المكافأة لابن الداية
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي
نهاية الأرب للتوحيدي
الوافي بالوفيات للسفدي
وفيات الأعيان لابن خلكان
يتيمة الدهر للثعالبي
- نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ١٠٣ م الجزء الرابع
طبع لندن ١٨٩٨ م
طبع مصر ١٩٢٤ م
دار الكتب المصرية
دار الكتب المصرية
نسخة خطية بالمكتبة التيمورية
مصر ١٣١٠ هـ
طبع بيروت

مراجع افرنجية

- Butcher : The Story of the Church of Egypt (London 1897).
Butler : The Arab Conquest of Egypt (Oxford 1902).
 : The Ancient Coptic churches of Egypt
 (Oxford 1884).
Corbett : The Life & Works of Ahmed Ibn Tulun
 (J R A. S. 1891).
Encycloepedia Britannica.
Encycloepedia of Islam.
Galtier : Contribution à l'Etude de la Litterature Arabe,
 Copte (Cairo, 1905).
Grohman : Arabic Papyri in the Egyptian Library.
Hugh : The Monastries of the Wadi'n Natrûn (V.I. New York.)
Lane-Poole : Mohammedan Dynasties (London 1849).
 : History of Egypt in the Middle ages
 (London 1925).
 The Arts of the Saracens in Egypt (Londod 1868).
Marcel : L'histoire d'Egypte (Paris 1848).
Milne : A History of Egypt under Roman Rule.
Nicholson : A Literary history of the Arabs.
Quatremère : Mémoires Geographiques et Historiques sur
 l'Egypte et sur quelques contrées voisines
 (Paris 1811).
 Recherches sur la langue et la littérature de
 l'Egypte (Paris 1803).

